تنقية أصول

التاريخ الإسلامي

الناشر : دار الرشاد

العنوان : ١٤ شارع جواد حسنى ، القاهرة

تليفون : ٣٩٣٤٦٠٥ ، ٢٩٩٢٦١٥

رقم الإيداع : ٩٧ / ٣٥٢٨

الترقيم الدولي : 5 - 33 - 5324 - 977

طبع : عربية للطباعة والنشر

العنوان : ١٠ ، ٧ ش السلام ، أرض اللواء ، المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ، ٣٠٣٦٠٩٨

مكتب الجمع : آرمس للكمبيوتر

العنوان : ٢٢ ش على عبد اللطيف ، مجلس الشعب

تليفون : ٣٥٦٤٤٠٤

الطبعة الأولى : ١٤١٧هـ ١٩٩٧م

خطوط الغلاف : محمد حمام

تصميم الغلاف : محمد فايد

تنقية أصول

التاريخ الإسلامي

د. حسين مؤنس



تقديـم

من القواعـد الأساسيـة التى نسيـر عليها فى نشـر الأصول القـديمة احـترام النص الذى ننـشره كلمـة كلمـة ؛ لأن هذه هى أصول تاريـخنا وفكرنا . ولكنى لاحظت أن الكثيـر من مؤلفـينا القـدامـي - رغم علمـهم الـواسع ووقـوفـهم عـلى الأصـول - لا يتـميـزون بذكاء قـوى عـربى ، فالطبـرى - على علمـه الواسع وعمله الكثير - ينفق نحو خـمسين صفحة من تاريخه فى الكلام على إسمـاعيل وإسحـاق ابْنَىْ إبراهيم وكلهم أنبيـاء ، ثم ينتهى بعد المناقشة الطويلة والروايات المتـعددة إلى القول بأن إسحاق هو الذى بنى الكعـبة مع إسمـاعيل أو أنه افـضل بنى إبراهيم . والطبرى لا يشـعر هنا أنـه يفضل اليـهود علينا فى صـراعنا الأبدى معــهم . وحتى فى سيرة الـرسول نجد أن حرفـية النقل عند بعـض مـؤرخى السـيرة تجـعلهم يروون أخـبـاراً لا تليق ، وكان أحسن لو أنهم لم يرووها .

وهل هناك أغـرب من الإصرار على أن رسـول الله ﷺ تزوج عائشة - رضى الله عنـها - عندما كانت سنها سـبـع سنوات ؟ ما معنى أن يـتزوج النبى طفلة ؟ حـقًا إنه لم يدخل بهـا إلا عندما كـانت سنهـا تسع سنوات ، و لكنهـا كـانت لا تزال طفلة . لقـد

أثبتنا نحن - جماعة من مؤرخى الإسلام - أن عائشة عندما تزوجت رسول الله كان عمرها تسعة عشر عاماً(*) ، وهذا هو المعقول المقبول .

هذا الكتاب يدقق البحث فى روايات كتابنا القدامى ، ويقدم لك أمثلة كثيرة من الكلام المهين لنا الذى يأتوننا به ، ويؤكد لنا أننا ينبغى أن نُنَقِّيَ أصولنا ، وأن نكون حذرين في قراءة أصولنا ، فإن الكثيرين من مؤلفينا القدامي يقعون في أخطاء كبيرة ، وهي ظاهرة الخطأ ، ولابد من إصلاحها . وهذه قاعدة أساسية ينبغي أن نسير عليها حتي نطمئن علي صحة نصوصنا ، فإن الكتابة لا تحتاج فحسب إلى دقة ، بل هى تحتاج إلى ذكاء ، فأنا أقرأ الأصول بذكاء وأصححها . لا يمكن أن أنقلها كما هى ، كما سيرى القارئ فى الأمثلة التى سأضربها هنا فى هذا الكتاب .

وسلام من الله على القراء . وفقهم الله فى مطالبهم العلمية، ووهبهم الصحة والعافية .

الجمعة ٢٦ من يونيو ١٩٩٢

د . حسين مؤنس

(*) وهذا رأى الكاتب .

- ومعظم المصادر تذكر أنها ما بين تسع وإحدى عشرة سنة (كما جاء فى طبقات ابن سعد ، والإصابة لابن حجر العسقلانى ، والاستيعاب لابن عبد البر) .

(المصحح)

الفصل الأول

بحسن نية أساء إلينا القدماء

بسم الله الرحمن الرحيم

طبعاً ضايقتني حكاية ما سمي بالآيات الشيطانية ، كما ضايقت غيري من المسلمين . وبداية ينبغي أن أقول : إنه لا يمكن أن يكون هناك شيء يسمى آيات شيطانية ؛ لأن الآيات لا يمكن أن تكون إلا إلهية ، أما الذين ابتكروا حكاية الآيات الشيطانية فهم الذين أرادوا أن يسيئوا إلى الإسلام ، فقالوا : إن هناك آيات وصلت إلى رسول الله ﷺ من الشيطان ، والذى ضايقني أكثر هو أننا نحن أصل حكاية تلك الجمل التي وضعها الشيطان على لسان رسول الله ﷺ ؛ لكي يقول للناس : إنها أتته من الله سبحانه وتعالى ، لكي يرضى عنه المنكرون ، فقالها ثم نبهه جبريل إلى حقيقة الأمر فنفاه .

وأصل الحكاية موجود عند أبي جعفر الطبرى ، وإنها لمصيبة أن نجد أن معظم كبار مؤرخينا كانت فيهم سذاجة جعلتهم يحكون حكايات تمس الإسلام ، وقد فعلوا ذلك عن حسن نية أو عن فرط ثقة في الإسلام ، ولم يكونوا يتصورون

انه سيجيء يوم يظهر فيه أعداء لدودون للإسلام من أمثال بعض المستشرقين يأخذون هذه الأخبار ويستعملونها ؛ لكي يلحقوا بالإسلام أذى شديداً . وإليك القصة كما وردت عند الطبري ؛ لترى كيف كان هذا المؤرخ « عبيطاً » إلى درجة يتصور معها أن مثل هذا الخبر لا يمكن أن يضر الإسلام . قال أبو جعفر الطبري (جـ٢ ص٣٣٧ وما يليها) : « فكان رسول الله ﷺ حريصاً على صلاح قومه ، محبًا مقاربتهم بما وجد إليه السبيل ، قد ذُكر أنه تمنى السبيل إلى مقاربتهم ، فكان من أمره في ذلك ما حدثنا ابن حُمَيْد قال : حدثنا سلمة قال : حدثني محمد بن إسحاق عن يزيد بن زياد المدني (أو المُرى) عن محمد ابن كعب القُرظي قال : لما رأى رسول الله ﷺ تولي قومه عنه ، وشق عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من الله تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب « أو يقرب » بينه وبين قومه ، وكان يسره مع حبه قومه وحرصه عليهم أن يلين له بعض ما قد غلظ عليه من أمرهم حتى حدث بذلك نفسه وتمناه وأحبه ، فأنزل الله عليه ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ فلما انتهى إلى قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ (سورة النجم ٥٣ / ١ ـ ٢٠) ألقى الشيطان على لسانه ـ لما كان يحدث به نفسه ويتمنى أن يأتي به قومه : « تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى

به » . فلما سمعت بذلك قريش فرحوا وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم فاصاخوا له - والمؤمنون يصدقون نبيهم فيما جاءهم به عن ربهم ولا يتهمونه على خطأ ولا وهم ولا زلل ، فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها فسجد المسلمون لسجود نبيهم تصديقاً لما جاء به واتباعاً لأمره ، وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم ؛ لما سمعوا من ذكر آلهتهم ، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا وسجد إلا الوليد ابن المغيرة ؛ فإنه كان شيخاً كبيراً فلم يستطع السجود ، فأخذ في يده حفنة من البطحاء فسجد عليها ، ثم تفرق الناس من المسجد وخرجت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم يقولون : قد ذكر محمد آلهتنا أحسن الذكر قد زعم فيما يتلو «أنها الغرانيق العلا وأن شفاعتهن لترتجي » وبلغت السجدة من بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ ، وقيل : أسلمت قريش ، فنهض منهم رجال وتخلف آخرون . وأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ما صنعت ؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله عز وجل ، وقلت ما لم يقل الله . فحزن رسول الله ﷺ عند ذلك حزناً شديداً ، وخاف من الله خوفاً كثيراً ، فأنزل الله عز وجل - وكان به رحيماً - يعزيه ويخفف عليه الأمر ويخبره أنه لم يكن قبله نبي ولا رسول (إلا) تمنى كما تمنى وإلا أحب كما أحب إلا والشيطان قد ألقى في أمنيته كما ألقى على لسانه ﷺ فنسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته ، أي

فإنما أنت كبعض الأنبياء والرسل ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) ﴾
(سورة الحج ٢٢ / ٥٢)

فأذهب الله عن رسوله الحزن ، وآمنه من الذى كان يخاف ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم : أنها الغرانيق العلا ، وأن شفاعتهن لترتجي . بقول الله تعالى حين ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ أى عوجاء ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم ﴾ إلى قوله : ﴿ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) ﴾
(سورة النجم ٥٢ / ٢١ ـ ٢٦)

أى : كيف تنفع شفاعة آلهتكم عنده ! .

فلما جاء من الله ما نسخ ما ألقى الشيطان على لسان نبيه قالت قريش : ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتكم عند الله فغير ذلك وجاء بغيره . وكان ذلك الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسوله ﷺ قد وقعا في فم كل مشرك فازدادوا شراً إلى ما كانوا عليه وشدة على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ منهم ... » (الطبرى تاريخ ٢ / ٣٢٨ ـ ٣٤٠) .

ولم يكتف الطبرى بذلك بل أورد نفس الحكاية في تفسيره (جـ١٧ ص ١٣١ ـ ١٣٢ من طبعة بولاق) ثم ردد نفس الخبر بصورة أخرى في نفس تاريخه (جـ٢ / ٢٣٨ ـ ٢٣٩) أى أنه ما زال يقول ويعيد حتى يتصور الإنسان أن الأمر حدث كما روى . ومن الواضح أن في الخبر مبالغة ، فليس هناك ما يمنع من أن يكون رسول الله ﷺ قد رجا أن ينزل الله على لسانه شيئاً يقرب بينه وبين الكافرين ، وليس من الضرورى أن يكون الرسول ﷺ قد فكر في ذلك ، ولكن يستبعد أن يكون قد قال هاتين الجملتين ، بل يكفي أن تكونا قد خطرتا بباله فكان ذلك سبب تألم رسول الله ﷺ ، خاصة وأن الآية التي يقال : إنها أكدت ذلك وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) ﴾ (سورة الحج ٢٢/ ٥٢) لا يفهم منها أن الرسول ألقى شيئاً بلسانه ، وقد يكون الكفار هم الذين اقترحوا ذلك وتمنى الرسول أن يرسل إليه ما يشبه ذلك حتى لا تشتد عداوة الكفار له وللمسلمين ، خاصة وأن الضعفاء منهم كانوا قد خرجوا إلى الحبشة . وكان رسول الله ﷺ يجتاز محنة كبرى ، ولعله تمنى أن يخفف الله عليه من وقعها ، ولكن تكرار الطبرى إياها وإصراره عليها أمر يدل على غفلة . أما ربط ذلك بعودة بعض مهاجرى الحبشة ظنا منهم أن السلام قد

استقر بين رسول الله والكفار فليس ضروريًا أيضاً ؛ فإن الكثيرين من مهاجرى المسلمين إلى الحبشة كانوا فى حال سيئة جداً هناك . والذى يهمنا هو أن الرسول ﷺ كان فى ظروف سيئة جداً ، وكان الكفار أقوياء جداً ، وكان المسلمون قلة ، ولكن الرسول ثبت وإن كان قد تمنى أن ينزل الله ما يمكن أن يخفف من ضغط الكفار على المسلمين ، وهذا طبيعى .

ولم يكن يخطر على بال أبى جعفر الطبرى أنه سيجىء اليوم الذى يوجد فيه أعداء للإسلام يقرءون كتابه بكل عناية باحثين عن براهين يؤكدون بها ما يزعمون من أن رسول الله قد ألف القرآن بنفسه ـ والعياذ بالله ـ وأن القرآن كله ليس من عند الله ، ولم يكونوا ليجدوا على زعمهم هذا دليلاً هوأنصع من هذا الذى أتاهم به الطبرى بصورة هى الغاية فى الوضوح . وبالفعل نجد أن المستشرقين من أوائل هذا القرن يقفون أمام خبر الطبرى هذا ويتعلقون به ، ويعيدون ويزيدون زاعمين ما يريدون مما لا يمكن أن يكون صواباً كما رأينا . والسبب فى ذلك هو أن النصارى ليس عندهم ما يشبه القرآن ، أى ليس بين أيديهم الكتاب الذى أوحاه الله إلى عيسى ـ عليه السلام ـ فقد ضاع الأصل بمضى الزمن ، ولم تبق إلا تلك الأخبار والكلمات الواردة عن عيسى ـ عليه السلام ـ فى الأناجيل ، وهى فى مجموعها ـ سواء فى العهد القديم أو العهد الجديد ـ تشبه ما لدينا من الآثار والأحاديث النبوية ، ولا تزيد على ذلك .

وهذا الكلام هـو الذى استند إلـيـه ذلك الهندي الـذى كـان مسلمـاً ، ثم كفر وألف تلك الرواية الهزيلة التى سماها « الآيات الشيطانيـة » وكل ما فيـها هراء وعدوان على الإسـلام ورسوله الكريم ، وقد فـعل ذلك وهو يعرف أن المتـعصبـين من النصارى سيقـبلون على مثل هذا الكلام وسيذيع كـتابه ويكسب الألوف ، أى أنه باع دينه بالمـال . وعندمـا نشـر هذا الكتـاب لم يهـتم به الناس لسـخافتـه ، ولكن تصدى الـخـمينى له وحكمـه بالإعدام على مؤلفه شهـره وزاد إقبال الناس عليه . وتعلق أولئك الناس بالقـول بأن كل كـاتب حر فى أن يـقول مـا يريد ، وإذا أردت أن تنقض ما فيه فألف كتاباً فى ذلك ، وهذا طبعاً كلام فارغ ، ولكن الخمـينى كان سـبباً فى شـهرة ذلك الرجل وذيوع كـتابه ، فـقد اشـتـهـر الرجل وأصـبح رمـزاً على حـرية الفكر ، ومـا هو فى الحقـيقة إلا صعلوك شـرير ، ولكننا نعيش فى عصـر مضطرب حـافل بالشرور ، والإسـلام يخوض فـيـه معـركة مع أعـدائه ، ولكننا لا نستطيع أن نخوض هذه المعـركة بالحكم على مثل هذا الرجل بالإعدام ، بل يكون الأمـر بالعقل والهـدوء حتى لا نعطى أعداء الإسلام سلاحاً فى يدهـم .

المهم أنه لولا أن الطبرى قد نشـر هذا الخبر بذلك الإلحاح لما وجـد أعداء الإسـلام ذلك السبـيل إلى النيل منه ، وقـد رأينا أنه خبر ليس من الضرورى أن يكون صحـيحاً ؛ فهو ملىء بنواحى الضعف ، ولكـن كان أحسن لو أن الطبـرى لم ينشره ، خـاصة

وهو ليس أساسيًا بالنسبة للسيرة النبوية ، وهذا هو الذى أريد أن أقوله فى هذه السلسلة من المقالات ، فإن كتبنا القديمة حافلة بأخبار مثل هذه تسيء إلينا ، ولست أريد بذلك أن نراجع هذه الكتب لنشطب منها هذه الأخبار والإشارات ؛ فليس من رأيى أن نمس النصوص ، بل يكفى أن نحذر من مثل هذا الخبر إذا نحن نشرنا الطبرى أو غيره ، ونؤكد للناس أنها أخبار غير صحيحة، ونقدم لهم أسباب آرائنا ؛ لكى نحمى الإسلام من أعدائه ؛ لأننا نعيش فى عصر خطر يتصارع فيه الإسلام مع أعدائه والقدامى كانت فيهم سذاجة وثقة فى النفس تجعلهم يرددون كل ما يصل إليهم من الأخبار دون بعد نظر .

والطبرى نفسه يورد فى تفسيره خبراً آخر ما كان أغناه عن ذكره ، ولكنه كان رجلاً راوية يروى ما يصله من الأخبار دون نظر إلى النتائج ودون أن يحقق ما يروى . والخبر خاص بزواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش ابنة عمته ، ونحن نعرف أن أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم لا يزالون يتحدثون عن زيجات الرسول ﷺ وكأنهم يرون فى تعدد هذه الزيجات عيباً أو مأخذاً على الرسول ، ولا عيب هناك ولا مأخذ ؛ لأن رسول الله ﷺ والمسلمين من حوله كانوا يرون ألا ينبغى أن تظل امرأة دون زواج صيانة لها ، فإذا بلغت البنت سن الرشد كان على الأب أن يبحث لها عن زوج ، ورسول الله ﷺ نفسه كان يكره أن تظل بناته دون زواج ، فعندما ترك المشركون بنات

الرسول ـ كان اثنتان منهن قد خُطِبَتَا : رقية وأم كلثوم ـ تحدث الرسول إلى أبي بكر ثم عمر في زواج أم كلثوم ، فلما اعتذرا عرضها على عثمان فتزوجها ، وعندما ماتت أم كلثوم زَوَّجَهُ الرسول من ابنته الأخرى وهي رقية ، وعندما ترك عبيد الله بن جحش الإسلام في الحبشة تطلقت منه زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان ؛ لأنه ترك الإسلام ، فكان الرسول ﷺ هو الذي تزوج أم حبيبة ـ تزوجها دون أن يراها ، إذ كانت هي في الحبشة وهو في مكة ، ولكن رسول الله ﷺ كره أن تظل أم حبيبة دون زوج ، فكتب إلى النجاشي أن يكون وكيله في الزواج منها ، فتزوجها رسول الله بوكالة النجاشي . وهكذا كان الموضوع تقليداً اجتماعيًا لا تظل المرأة في سن الزواج دون زوج ، وكانت هذه هي المشكلة التي جعلت رسول الله ﷺ يتزوج زينب بنت جحش وهي ابنة عمته ، وسآتيك بالخبر كما رواه الطبري في تفسيره (جـ٢٢ ص٢٠ ـ ٢١ من طبعة بولاق) لنرى سذاجة الطبري وكيف أنه أساء إلينا بالطريقة التي روى بها الخبر والأسلوب الذي حكاه به .

قال : حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد : كان النبي ﷺ قد زوج زيد بن حارثة زينب بنت جحش ابنة عمته ، فخرج رسول الله ﷺ يوماً يريده ، وعلى الباب ستر من شعر ، فرفعت الريح الستر فانكشف وهي في حجرتها حاسرة ، فوقع إعجابها في قلب النبي ﷺ ، فلما وقع

ذلك كُرِّهت إلى الآخر ، قال : فجاء فقال : يا رسول الله ، إني أريد أن أفارق صاحبتي ، فقال : مالك ؟ أرابك منها شئ ؟ قال : لا والله يا رسول الله ، ما رابني منها شيء ولا رأيت ضرًا ، فقال له رسول الله ﷺ : أمسك عليك زوجك واتق الله ، فذلك قول الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ ، أي : تخفي في نفسك أنه إن فارقها هو تزوجتها أنت .

وبقية الخبر معروفة ، فقد طلق زيد بن حارثة زينب بنت جحش ، فزوجها الله سبحانه من محمد ﷺ من السماء . ورواية الطبرى للخبر على هذه الصورة تلقى شكًا كبيراً على طبيعة رسول الله ﷺ . وأعداء الإسلام معذورون إذا هم رأوا هنا قصة حب ؛ لأن أسلوب الطبرى نفسه مفضوح جدًا ، وكأنه يظن حقًا أن رسول الله ﷺ قد وقع فى حب زينب بنت جحش عندما رآها فى ثوب خفيف فى بيتها فمالت نفسه إلى الزواج منها ، فزال من قلبها كل حب لزوجها زيد بن حارثة ولم يعد له مفر من طلاقها ثم كان الله نفسه هو الذى زوجها من محمد رسول الله ﷺ

والقصة تختلف تماماً عما ظن الطبرى ، ونحن نخطئ عندما نظن أن الطبرى وأمثاله كانوا يعرفون من أسرار تاريخ الإسلام ما لا نعرف ، والحقيقة أننا نعلم . وإليك القصة كما وقعت؛

لتعلم أن رسـول الله ﷺ أبعد مـا يكون عن مظنة الحب والجنس في هذه المناسبة .

فقد كانـت زينب بنت جحش ابنة عمته ، وقد تربيـا معاً في بيت واحد ، فهو يعرفها تمام المعرفـة ، ولم يكن بحاجة إلى أن يراها في ثوب خـفـيف لكي يقع في حبهـا ، فـإن زينب لم تكن جميلة ، ولم يكن في جسمها ما يفتن ، فقد كانت قصيرة القامة ، ثم إنها كانت مريضة ؛ فهي التي يقال : إنها كانت تستحاض ، ومعنى ذلك أن الدم يسيل منهـا دائماً لا في المناسبة الشـهرية فـحسب ... ولكنهـا كانت من بـيت شريف ، فـإن أختـها حـمنة تزوجت مصعب بن عمير الصحابي الشهير ، فلما قتل عنها يوم أحد تزوجت طلحـة بن عبيد الله ، فـولدت له محمداً وعمر ابني طلحة ، وكان رسـول الله ﷺ يحب زيد بن حارثة مولاه ، ويريد أن يرفع مكانته ، فزوجه زينب بنت جحش ، فساءها ذلك ؛ لأنه مولى ، ثم إنه كان قبيح الوجه ؛ فـقد كان شديد السمرة ، وكان أفطس الأنف ، وفـوق ذلك كـله كـان مـزواجـاً لا يفـتـأ يتـزوج ويطلق، فنفرت منه زينب نفـوراً شديداً ، وشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ وأخذت تسيء مـعاملة زيد بن حـارثة ، فكان يشكو إلى رسـول الله ﷺ ويقـول لـه : إني أريد طـلاق زينب ، فـيـقـول له رسول الله ﷺ : أمـسك عليك زوجك واتق الله ، وأحس رسول الله ﷺ أن زينب ظلمت في هذا الزواج ؛ لأن زيد بن حـارثة ليس لها بأهل ، وتألم في نفسه ، ولكنه أخفي ما في نفسه ؛ لأنـه كان يحب زيداً ، وكان بقية الصحـابة لا يحبون زيد بن حارثة ؛ لأن

رسول الله ﷺ كان يحبه ويجعله على رأس القيادات العسكرية حتى ولاه قيادة ست سرايا متوالية ، وأخيراً وجد رسول الله ﷺ أنه لم يعد هناك مفر من تطليق زيد من زينب ، وأنه لا يستطيع أن يستمر في كتمان ما في نفسه من هذه الناحية ، وأذنَ الله ـ سبحانه ـ له في أن يطلقها منه ، وتم ذلك ، وأراد الله ـ سبحانه ـ أن يعوض زينب عما لقيت من المهانة من زواجها من زيد ، فزوجها من رسول الله ﷺ ؛ ليرتفع مكانها ، وكانت زينب هي المرأة الوحيدة التي زوجها الله ـ سبحانه وتعالى ـ مباشرة من السماء دون عقد من بشر .

تلك هي القصة ، فلا حب هناك ولا فتنة بجنس ، وإنما حكاية إنسانية عادية يشرف بها رسول الله ﷺ ولا تمسه إطلاقاً. ثم إن الرسول ﷺ بعد أن تزوج زينب لم يظهر نحوها أى ميل أو حب خاص ، إنما هي أسعدها أن ترتد إليها مكانتها ، فانصرفت إلى الإحسان وأعمال التقى ، وكانت تفخر على بقية زوجات الرسول ، وتقول : زوجني الله من السماء . وأولم عليها رسول الله ﷺ بخبز ولحم ، وقال ابن سعد في طبقاته (٨ / ٧٥): كانت زينب كثيرة الخير والصدقة ، ولما دخلت على رسول الله ﷺ كان اسمها برة ، فسماها زينب ، وتكلم المنافقون في ذلك ، وقالوا : إن محمداً يحرم نكاح نساء الأولاد ، وقد تزوج امرأة ابنه زيد ؛ لأنه كان يقال له : زيد بن محمد ، قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ (الأحزاب ٣٣/ ٤٠) وقال: ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ .

الفصل الثانى

ابن هشام وما فعله بسيرة ابن إسحاق

في مقالنا الماضى رأيت كيف أن أصولنا القديمة تروى - بحسن نية - أخباراً تسيء إلينا ، فقد رأيت كيف أن الطبرى يصور زواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش على غير صورته الحقيقية ، وأن القارئ لنص حكاية زواجه من زينب بنت جحش في تفسيره للقرآن يحسب أن هناك ميلاً جسديًا ، وليس هناك أى ميل جسدى فى هذه الحكاية كلها ، ولكن الطبرى كان رجلاً ساذجاً ، وكان لا يدقق فيما يروى ولا فى الصورة التى يروى بها ، فكانت النتيجة أننا اليوم نجد المستشرقين يأخذون أخباره ويستعملونها في حربهم ضد الإسلام ورسوله ، كما رأينا فى حكاية ما يسمى بالآيات الشيطانية .

ولا بد - إذن - أن نعيد النظر فى أصول تاريخنا الإسلامى ، وننبه الأذهان إلى ما يضرنا فيها ، ولست أقصد بذلك أن نشطب منها أخباراً ، فأنا لا أجيز المساس بالأصول ، بل أقصد أن ننبه إلى الخطأ فقط ، أما الأصول فلا يمسها أحد ، وسأضرب هنا مثالاً من أصول السيرة النبوية الشريفة .

مراجعنا عن السيرة كثيرة جدًا ، ولكن أكبرها وأهمها خمسة :

أ ـ السيرة النبوية لمحمد بن إسحاق .

ب ـ مغازى رسول الله لمحمد بن عمر الواقدى .

جـ ـ سيرة الرسول لابن سعد ، وهى الجزءان الأولان من طبقاته الكبرى .

د ـ سيرة الرسول لموسى بن عقبة .

هـ ـ سيرة الرسول لعبد الله بن محمد الأنصارى ، وقد ضاع هذا الكتاب ، ولكن ابن سعد احتفظ لنا بفقرات كثيرة منه .

ونكتفى هنا ـ على سبيل الاختصار ـ بالكلام عن ابن إسحاق .

ومن المعروف أن هذا الرجل هو من أعاظم مؤرخى السيرة ، وكتابه ـ حتى بعد تدخل ابن هشام فيه وإفساد نصه ـ ما زال من مراجعنا الأولى والرئيسية عن حياة الرسول ﷺ ، ولكن اسمع ما يقوله عنه أبو الفرج محمد بن إسحاق بن النديم فى كتابه الأشهر : « الفهرست » (ص ١٣٦ من طبعة دار المعرفة فى بيروت) : صاحب السيرة ، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يسار مطعون عليه غير مرضى الطريقة . يحكى أن أمير المدينة رقى إليه أن محمداً يغازل النساء ، فأمر بإحضاره ، وكانت له شعرة حسنة فوق رأسه (؟) فضربه أسواطاً ، ونهاه عن الجلوس فى مؤخرة المسجد ، وكان حسن الوجه ، يروى عن

فاطمة بنت المنذر زوجة هشام بن عروة (بن الزبير) فبلغ ذلك هشاماً فأنكره ، وقال : ومتى دخل إليها ؟ ومتى سمع منها ؟ ويقال : كان يعمل له الأشعار ويؤتى بها إليه ، ويسأل أن يدخلها في كتابه في السيرة فيفعل ، فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر ، وأخطأ في النسب الذى أورده في كتابه ، وكان يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم في كتبه أهل العلم الأول ، وأصحاب الحديث يضعفونه ويتهمونه . وتوفي سنة خمسين ومائة وله من الكتب كتاب الخلفاء ، رواه عنه الأموى ، وكتاب السيرة ، والمبتدأ والمغازى ، رواه عنه ابن سعد والنفيلي ، واسم النفيلي محمد بن عبد الله ابن نمير النفيلي ، توفي سنة أربع وثلاثين ومائتين بحران ، ويكنى أبا عبد الرحمن .

فأنت ترى هنا أن محمد بن إسحاق بن النديم لم يقل كلمة خير واحدة في ابن إسحاق ، وهذا ظلم بَيِّنٌ ، فما كان الرجل بهذا السوء ، حقًا كان له خصومه ، ولكنه من أوثق مؤرخينا وأولاهم بالتقدير . والحقيقة هي أن هؤلاء الماضين كان بعضهم يقع في بعض لأسباب شخصية وقليلة الأهمية ... وإليك طرفاً مما قاله فيه محققو سيرة ابن هشام المأخوذة عن ابن إسحاق - ثلاثة من أوثق علماء مصر هم : مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبي (سيرة ابن هشام جـ١ ص م وما بعدها) :

وقد ترك ابن إسحاق المدينة ورحل إلى غيرها متنقلاً في

أكثر من بلد . وفي ظننا أن رحلته إلى الإسكندرية التي كانت سنة ١١٥هـ . هي أولى رحلاته التي بدأ بها . وفي الإسكندرية حدث عن جماعة من أهل مصر منهم عبيد الله بن المغيرة ،ويزيد ابن حبيب ، وثمامة بن شفي ، وعبيد الله بن أبي جعفر ، والقاسم بن قزمان ، والسكن بن أبي كريمة . وانفرد ابن إسحاق برواية أحاديث عنهم لم يروها غيره . ثم كانت رحلته إلى الكوفة والجزيرة والري والحيرة وبغداد ، وفي بغداد - على الأرجح - ألقى عصا التسيار ، وفيها لقي المنصور وصنف لابنه المهدي كتاب السيرة ، ورواةُ ابن إسحاق من هذه البلدان أكثر ممن رووا عنه من أهل المدينة ، بل المعروف أنه لم يرو له من أهل المدينة غير إبراهيم بن سعد ، وعاش في بغداد ما عاش حتى وافته منيته بها فدفن في مقبرة الخيزران .

إذن فالمسألة كلها هي أن هذا الرجل كان جميل الصورة عندما كان شابًا ، وكان له ولع بالنساء ، فأنكر عليه أهل المدينة ذلك ، بل أدَّبَه واليها ، وهذا لا يمنع أن يكون - فيما بعد - عالمًا عظيم القدر . وقد وقعت بينه وبين نفر من كبار أهل المدينة خلافات ، فأساءوا الحكم عليه لأسباب شخصية ، ومن هؤلاء مالك بن أنس الذي وقع في خلاف مع حاكم المدينة بسبب امرأة كان مالك يملكها فوضع حاكم المدينة يده عليها ؛ لأنه تبين أنها ليست ملكه ، ووقف محمد بن إسحاق إلى جوار عامل المدينة وحمل على مالك بن أنس ، فكرهه مالك وحمل عليه ، وكذلك

كرهه هشام بن عروة بن الزبير غيرة منه على امرأته ، والنتيجة أن هذين العالمين يكادان يخرجانه من حظيرة المحدثين أهل الصدق والثقة ، ولا يدخران وسعاً في اتهامه بالكذب والدجل ، وذلك إلى اتهامات أخرى رمي بها ابن إسحاق كالتدليس ، والقول بالقدر ، والتشيع ، والنقل عن غير الثقات ، وصنع الشعر ووضعه في كتابه ، وأخطاء في الأنساب ، كما أنك تجد غير واحد من أئمة الأعلام كابن شهاب الزهرى وشعبة والثورى وزياد البكائي - يوثقونه ولا يتهمونه بشيء من هذا .

والحقيقة أن حملة الحاملين على ابن إسحاق لم تكن مبرأة عن الغاية ، ولم تكن من الحق في شيء ، فإننا نعلم أن ابن إسحاق كان يطعن في نسب مالك بن أنس وفي علمه ، ويقول : ائتوني ببعض كتبه حتى أبين عيوبه فأنا بيطار كتبه ، فانبرى له مالك ، وفتش هو الآخر عن عيوبه ، وسماه دجالاً ، وكانت بينهما هذه الحرب الكلامية (مقدمة سيرة ابن هشام ص ت) .

وكذلك كان هشام بن عروة بن الزبير . يقول ابن إسحاق : إنه كان يروى أخباراً عن زوجة هشام ، وكان هشام ينكر أن يكون ابن إسحاق قد رأى امرأته ، وكان هشام ضنيناً على امرأته أن يراها ابن إسحاق ، أو أن ابن إسحاق حمل عنها صغيرا ، ومن الممكن أن يكون ابن إسحاق قد روى عن امرأة هشام من وراء حجاب ، ثم إن هشاماً ما كان له أن يغار من ابن إسحاق ؛ فقد كانت سنها حين كان من الممكن أن يروى عنها

حوالي الخمسين سنة ، فهي أكبـر منه بسبعة وثلاثين عاماً ، ثم إنه لم يكن غريباً في ذلك العـصر أن يروى رجل عن امرأة . وقد أثنى على ابن إسحق الخطيب البـغدادى في تاريخ بغداد ، وابن سيد الناس في كـتابه « عيون الأثر » وهو سيـرة نبوية موثوق فيها ، وهي مروية عن ابن إسحاق عن غير طريق زياد البكائي . وهو الذى أخذ ابن هشـام بروايته عندما أعـاد كتابة سيرة ابن إسحـاق . وابن سيـد الناس بالذات يثنى على ابن إسـحاق ثناء عظيماً ، ويفند المطاعن التى رمى بها ، وينفى عنه التدليس .

وقد أتت هذه المطاعن على أصحـاب الأصول ومـولفاتهم من تقليد جـرى عليه الماضـون يسـمى الجرح والـتعـديل ، ويراد بالجـرح بيان العـيوب ، أما التـعديل فـيراد به المديح ، وكـانت فيهما قسوة في الجرح والنقـد ، وما من عالم مسلم إلا قرأنا فيه قدحاً مقـذعاً من خصومه وأعدائـه ، فهم لم يكونوا نقاداً بالمعنى الصحيح ، وإنما كان فيهم عنف وقـسوة ، وعندما نقرأ ما يقوله ابن حجـر العسـقلاني مـثلاً في غـيره من العلمـاء تدهش لتلك القسوة وهذا العنف ، ونحن اليوم ننقد الكتب وأصحـابها ، ولكن في أدب واعـتدال ، أمـا اتهام الناس بالكذب والتـدليس فأمر لا يليق ولا يصح ، وخـيـر لنا أن نقـرأ النـاس ونحكم عليـهم بما نرى، أما الجـرح والـتعديل بالصورة التـقليدية في تاريخنا فلم يأتنا منهما إلا الضرر .

والذى نراه نحن فـى ابن إسـحـاق أنه كـان رجـلاً فـاضـلاً

ومؤرخاً موهوباً ، وهذا لا يمنع من أن يكون قد وقع في أخطاء ، وكل الناس يقعون في أخطاء ، وكل خطأ يمكن إصلاحه ، ويا ليتنا وجدنا نص ابن إسحاق كما كتبه هو . إذن لكانت لدينا سيرة نبوية ممتازة تشبه ما لدينا من مغازي الواقدي .

أما الأمر الجسيم حقًا فهو ما فعله ابن هشام في سيرة ابن إسحاق ، فقد كان أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري فقيهاً مصريًا من أوائل القرن الثالث الهجري ، ويحدثنا الرواة أن ابن هشام كان من أصل يمني أو كان من غافر أو من سدوس ، وقد ولد بالبصرة ثم هاجر إلى مصر ، ولا نعلم متى ولد الرجل بالضبط ، فقد نشأ من أصل خامل ، ولكنه توفي في مصر سنة ٢١٨ أو ٢١٣ هـ . وقد أصبح ابن هشام في مصر عالماً عظيماً ، ويقال : إنه لقي الشافعي وتناشدا الأشعار . وقد ظهر أمره في اللغة والأدب والفقه والتاريخ ، وله مؤلفات أخرى كثيرة غير سيرة النبي ﷺ ، ولكن سيرته هي التي جعلت له اسماً وشهرة ، ويبدو أن الكثيرين لم يكونوا مستريحين لسيرة ابن إسحاق ، فغلب الاعتماد عند المؤرخين على سيرة ابن هشام حتى خمل أمر سيرة ابن إسحاق ، وقلت نسخها ، وهذا هو السبب في أن سيرة ابن إسحاق اختفت تقريباً ، ولم يبق إلا سيرة ابن هشام ، ومن سوء الحظ أنه عندما تناول سيرة ابن إسحاق وأعاد كتابتها تصرف فيها على هواه ، فشطب ، وأضاف ، واختصر ، وأتانا بسيرة أخرى ، وهذا أمر يؤسف له

حقًا ، وفيما يلي سآتيك بكلامه نفسه عما فعل ؛ لتقف عليه بنفسك : «وأنا - إن شاء الله - مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل ابن إبراهيم ، ومن ولد رسول الله ﷺ من ولده ، وأولادهم لأصلابهم ، الأول فالأول من إسماعيل إلى رسول الله ﷺوما يعرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل على هذه الجهة للاختصار ، وتارك إلى حديث سيرة رسول الله ﷺ ، بعض ما يذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر ولا نزل فيه من القرآن شيء ، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب ، ولا تفسيراً له ، ولا شاهداً عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، أو أشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشفع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره . وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته ، ومستقص - إن شاء الله - في مقالي ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به » . ومعنى هذا أن ابن هشام تصرف في سيرة ابن إسحاق على هواه ، فقد أخذ القاعدة والأساس ، ثم مضى يذكر من الأخبار ما يرضى عنه ، ويستبعد ما لا يرضى عنه ، وإذن فنحن أمام سيرة أخرى من صنع ابن هشام .

وهذا هو الذي يجعلنا نشك في معظم ما يرويه ابن هشام ، وإن كنا لا نستطيع رفضه كله ، ولقد كان ابن إسحاق عالماً بالسيرة حقًا ، وكنا نتمنى لو وصلتنا سيرته كما كتبها كما أخذها من الأصول ، أما ابن هشام فقد روى بحسب مزاجه وما

رأى ، وهذه نقطة ضعف كبيرة ، وهى التى تجعلنا نرى أن السيرة التى يقدمها لنا ابن سعد فى كتاب الطبقات نقلاً عن الواقدى أولى بالثقة ؛ لأن الواقدى كان مؤرخاً صادقاً دقيقاً ، وقد وصل إلينا كتابه الأشهر « مغازى رسول الله ﷺ » كاملاً وحققه المستشرق الأمريكى مارسون جونز تحقيقاً جيداً ، ونحن نجد فى كتاب المغازى من الحقائق عن حياة رسول الله ﷺ وأعماله ما لا نجده عند غيره ، ومن ثم فإننا نرى أن كل المحدثين الذين اعتمدوا على ابن هشام وحده دون الرجوع إلى الطبرى وابن سعد والواقدى لا يروون لنا سيرة نبوية جديرة بالاحترام الذى ينبغى لسيرة رسول الله ﷺ ، وهذا يصدق على كل ما كتب فى السيرة بأقلام رجال من أمثال طه حسين والعقاد ومن جاء بعدهما ؛ فهى فى الحقيقة أدب وليست تاريخاً . والحقيقة هى أن سيرة ابن هشام ـ كما صنعها من سيرة ابن إسحاق ـ تحتاج ممن يستعملها إلى التأنى والتفكير ؛ لأننا لا نطمئن إلى ما يرويه علينا ، وسيرة رسول الله ﷺ أعز علينا من أن نعتمد فى أصولها على ما كتبه رجل كان يتصرف على هواه.

ولكى أصور لك بعد سيرة ابن هشام عن الحقيقة أذكر هنا ما يرويه عن فتح رسول الله ﷺ مكة ، وكيف أنه يجعل العباس ابن عبد المطلب من كبار شخصيات هذا الفتح ، ويزعم أن العباس كان قد أسلم قبل الفتح بزمن طويل ، وأنه أقام فى مكة ؛ لكى يبلغ رسول الله ﷺ ما كانت تفعله قريش ، وكيف أنه

خرج يستقبل جيش الرسول وتوسط لأبي سفيان ، ولولا توسطه لقتله المسلمون ، وهذا كله غير صحيح ، وهو إضافة مصطنعة من الإدارة العباسية ، ومن المعروف أن ابن إسحاق وابن هشام كليهما كتبا في ظلها ، وقد تولت الإدارة العباسية صياغة سيرة الرسول ﷺ على نحو يجعل العباس يبدو كأنه كان من كبار المؤمنين ؛ لأن في ذلك تاييداً لبني العباس وادعائهم بأنهم أحق بالخلافة من علي بن أبي طالب وأولاده.

وسآتيك هنا بما يقوله ابن هشام في هذه المناسبة وأناقشه .

قال ابن هشام (السيرة جـ٤ ص ٤٢) : كان العباس بن عبد المطلب قد لقي رسول الله ﷺ ببعض الطريق . قال ابن هشام : لقيه بالجحفة مهاجراً بعياله ، وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته ورسول الله ﷺ عنه راض فيما ذكر ابن شهاب الزهري . قال ابن إسحاق : وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ ايضاً بنيق العقاب فيما بين مكة والمدينة ، فالتمسا الدخول عليه فكلمته أم سلمة فيهما فقالت : يا رسول الله ، ابن عمك وابن عمتك وصهرك ، قال : لا حاجة لي بهما : أما ابن عمي فهتك عرضي ، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال فيَّ بمكة ما قال. قال : فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بنيٌّ له فقال : والله ليأذنن لي أو لآخذن بيدي بني هذا ولنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ

رق إليهما ، ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما ، وأنشد أبوسفيان ابن الحارث قوله في إسلامه .... فلما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران قال العباس بن عبد المطلب : واصبباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن ياتوه فيستأمنوه إنه هلاك قريش إلى آخر الدهر . قال : فجلست على بغلة رسول الله ﷺ فخرجت عليها حتى جئت الأراك ، فقلت : لعلي أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه ؛ ليستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة ، فقال : والله إني لأسير عليها والتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً .

قال : يقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها (أى أحرقتها وقد تكون حمستها) قال : يقول أبوسفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها . قال : فعرفت صوته فقلت : يا أبا حنظلة ! فعرف صوتي وقال : أبو الفضل ؟ قال قلت : نعم . قال : مالك ؟ فداك أبي وأمي ! قال : ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله ﷺ في الناس واصباح قريش والله ! قال : ما الحيلة فداك أبي وأمي ؟ قال : قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فاستأمنه لك ، قال : فركب خلفي ورجع صاحباه . قال : فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا

بغلة رسـول الله ﷺ وأنا عليـها قـالوا : عم رسـول الله ﷺ على بغلتـه ، حـتى مررت بنار عـمـر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال : من هذا ؟ وقام إليّ ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدو الله ؟ الحـمد لله الذى أمكننى منك بغير عقد ولا عهـد ، ثم خرج يشـتد نحـو رسول الله ﷺ وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيـئة الرجل البطىء قال : فاقتحمت عن البغلة فـدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمـر قال : يا رسـول الله ، هذا أبو سفيان قـد أمكن الله منه فـدعنى فلأضـرب عنقـه ، قـال : قلت : يا رسـول إنى قـد أجـرته ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه وقلت : والله لا يناجيه الليلة دونى رجل ، فلما أكثر عمر فى شأنه قال : قلت : مهـلاً يا عمر ! فوالله أن لو كان من بنى عـدى بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قـد عرفت أنه من رجال بنى عبـد منـاف .



الفصل الثالث

ابن هشام ، وماذا فعل بنص ابن إسحاق ؟

أواصل هنا خبر ابن هشام الذى بدأته في مقالي الماضي ، ثم أناقشه بعد ذلك « فقال : مهلاً يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بي إلا أني عرفت أن إسلامك كان أحب إلي رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم ،فقال رسول الله ﷺ : اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتني به ، قال : فذهبت به إلى رحلي ، فبات عندي ،فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال بأبي أنت وأمي ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد! قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً ! فقال العباس : ويحك ! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك ، قال : فشهد شهادة الحق فأسلم ، فقال العباس : يارسول

الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً !. قال : نعم ! من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ : يا عباس ، احبسه بمضيق الوادى عند خطم الجبل (خطم الجبل : شيء يخرج منه يضيق به الطريق) حتى تمر به جنود الله فيراها . قال : فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادى حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه .

قال : ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : يا عباس ، من هذه ؟فأقول : سليم . فيقول : مالي ولسُلَيْم ! ثم تمر القبيلة فيقول : يا عباس ، من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ، فيقول : مالي ولمزينة ! حتى نفدت القبائل ، ما تمر قبيلة إلا يسألني عنها ، فإذا أخبرته قال : مالي ولبني فلان ، حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء . قال ابن هشام : وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها .. وقال حسان بن ثابت الأنصاري .

لما رأى بدراً تسيل جلاهُ بكتيبة خضراء من بلخزرج

قال ابن إسحاق : فيها (أي في كتيبة الرسول ﷺ المهاجرون والأنصار - رضي الله عنهم - لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد) قال : سبحان الله يا عباس ! من هؤلاء ؟ قال : قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار ، فقال : ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن

أخيك الغداة عظيماً ، قال : قلت : يا أبا سفيان ، إنها النبوة ، قال: فنعم إذن .

قال : قلت : النجاء إلى قومك (أي السرعة إلى قومك) حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فقامت إليه هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميت الوسيم الأحمر (أي الرجل السمين الأحمر الوجه) قُبح من طليعة قوم ، قال : ويلكم ! لا تغرنكم هذه عن أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك الله ، وما تغني عنك دارك . قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد)(١) .

وإذا نحن تمعنّا في هذا الخبر كله وجدنا أنه لا يستقيم ، وتبين لنا أن الهدف منه هو الارتفاع بمكانة العباس وتصويره على أنه كان من خيرة المسلمين في أيام الرسول ﷺ ، وهذا غير صحيح ، فكلنا نعلم أن العباس ظل على دينه المشرك حتى فتح مكة ، وليس لدينا برهان واحد على صحة ما يقال من أنه أسلم في مكة سراً ، وظل فيها يبلغ الرسول بأخبار قريش ، والخبر هنا يقول : إن العباس خرج يستقبل الرسول عند دخوله مكة ،

---

(١) هذه نهاية الكلام الذي نقله المؤلف من كلام ابن هشام المبدوء في ص٨ ص٢٨ .

ويفهـم منه أن العبـاس كان يعلم عن المسلمين كل شيء ، كـأنه كـان واحـداً منهم من زمن طـويل ، وهو يتـحـدث إلى الرسـول حديث المقرب منه العارف بكل شـئونه ، حتى إن الرسول يأمره بأن يقف بأبي سفيـان عند مضيق في الجبل حـتى إذا مرت فرق جيش المسلمين قام بتعريفه بـها ، والخبر يرينا أنه كان بالفعل يعـرفـهـا ، فـمـن أين ـ إذن ـ كـان قـد انضم إلى المسلمين عند دخولهـم مكة ، وفي نفس الوقت الذى انضم أبو سفـيان إليـهـم فيه ؟ .

والخبر يـصوره على أنه هو الذى أنقذ أبا سفـيان من الموت على يد عـمـر أو أى رجل آخـر من المسلمين . هذا كله غـيـر صحـيـح، بل الصحيح الذى نفـهمه من الروايات أن أبا سفـيان هو صاحب الفضل الأكبر في إنقـاذ قريش ، فهو عندما ذهب إلى المدينة أجار لنفسه بين الناس . والرسول ﷺ أقـر هذا الجوار ، وحيث إنه كان ممثل مكة فإنه أصبح من المفهوم أن مكة أصبحت مدينة مفتوحة ، وهذا هو السبب في سـلامتها ، فقد أمر الرسول رجـاله أن يدخلوا مكة دخـول سـلام ، فلم يـحـدث قـتـال إلا في الجنوب حيث دخل خالد بن الوليد ؛ لأن خـزاعة كانت موتورة ، فهاجمت قريشاً وقُتل ناسٌ ، ولكن رسول الله أوقف القتال ، وأقر الناس على السلام مع أهل مكـة ، بل شاء كرمه إلا أن يعـبر عن تقديره لأبى سفيان فقال : إن من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، وهو تكريم ظاهرى ؛ لأن من دخـل دار نفسـه أيضـاً كـان آمناً . وبلغ من توقف الناس عن السلب والنهب أن أحداً لم يفقـد شيئاً

إلا ابنة لأبي بكر ، ثم إن الرسول استسلف مالا من بعض كبار الكفار لكي يعطي جنده ، وقد رد هذا المال فيما بعد .

إذن فهذا الخبر كله موضوع ، وقد وضعه وأدخله في السيرة رجال بني العباس ؛ لكي يعظموا أمر أنفسهم ، ولكي ينالوا من بني أمية .

وهذه أخبار موضوعة في السيرة نفسها ، فعلينا أن نكون أيقاظاً ونحن نقرأ حتى لا يدخل علينا هذا الزيف . ولو أننا أعدنا طبع سيرة ابن هشام فإن علينا أن ننبه إلى ذلك في المقدمة وفي التعليقات حتى يتنبه الناس إلى هذه الزيادات التي تشوه تصورنا للكثير من فقرات السيرة . وجدير بالذكر أن السيرة التي كتبها ابن سعد في الجزأين الأولين من الطبقات تخلو - إلى حد ما - من معظم هذا التزييف .

فإذا انتقلنا إلى ما بعد العصر النبوي ، وهو عندنا يمتد إلى نهاية خلافة عمر ؛ لأن عصر أبي بكر وعمر يدخل ضمن العصر النبوي ، فقد سارا على الخط النبوي ، وفي خلافة عثمان تبدأ الفتنة الكبرى ، وهنا نجد أنفسنا أمام صور من التزييف يدهش الإنسان لقبول الماضين لها . خذ مثلاً حكاية عبد الله بن سبأ المسمي أيضاً بابن السوداء ، ويقصها علينا الطبري وغيره في تواريخهم مع ظهور زيفها ، يقول الطبري تحت عنوان : ذكر مسير من سار إلى ذي خشب من أهل مصر وسبب مسير من سار إلى ذي المروة من أهل العراق .. فيما كتب به إليَّ السري ،

عن شعيب عن سيف ، عن عطية عن يزيد الفقعسي ، قال : كان عبد الله بن سبأ يهوديًا من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، فأسلم زمان عثمان ثم تنقل في بلاد المسلمين يريد ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام ، فأخرجوه حتى أتى مصر ، فاعتمر فيهم .

فقال لهم فيما يقول : لعجب (وعند ابن الأثير والنويرى) العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

(سورة القصص ٢٨ / ٨٥)

فمحمد أحق بالرجوع من عيسى ، قال : فقبل ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها ، ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان هناك ألف نبي ولكل نبي وصي ، وكان عَلِيٌّ وَصِيَّ محمد ، ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، عليٌّ خاتم الأوصياء ، ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصي رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة ! ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصي رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدأوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر ، فبث دعاته وكاتب من كان في الأمصار وكاتبوه ، ودعوا في السر إلى ما كان عليه رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤه أولئك في أمصارهم ، وهؤلاء في أمصارهم ، وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الأرض إذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ، ويسرون غير ما يبدون ، فيقول أهل كل مصر : إنّا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء ، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا : إنا لفي عافية مما فيه الناس، وجامعه محمد (بن مسلمة) وطلحة (بن عبيد الله) من هذا المكان ، فقالوا : فأتوا عثمان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أيأتيك عن الناس الذي يأتينا ؟ قال : لا والله ما جاءني إلا السلامة ، قالوا : فإنا قد أتانا ، وأخبروه بالذي أسقط إليهم ، قال : فأنتم شركائي وشهود المؤمنين ، فأشيروا عليَّ . قالوا : نشير عليك بأن تبعث رجالاً ممن تثق بهم إلى الامصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم ، فدعا محمد بن مسلمة فأرسله إلى الكوفة ، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة ، وأرسل عمار بن ياسر ، إلى مصر وأرسل عبد الله بن عمر إلى الشام ، وفرق رجالاً سواهم ، فرجعوا جميعاً قبل عمار ، فقالوا : أيها الناس ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين ولاعوامهم ، وقالوا جميعاً : الأمر أمر

المسلمين إلا أن أمــراءهم يقـسطون بـينهم ويقـومـون عـليـهم، واستـبطأ الناس عماراً حتى ظنـوا أنه اغتيل ، فلم يفاجـئهم إلا كتـاب من عبد الله بن سـعد بن أبي سرح يخـبرهم أن عمـاراً قد استـماله قوم (وفي نسخـة قد استمـال قوماً) في مصـر ، وقد انقطعـوا إليـه منهـم عبـد الله بـن السـوداء ، وخـالد بن ملجم، وسـودان بن حـمـران ، وكنانــة بن بشـر (الطبـري ٤ / ٣٣٩ ـ ٣٤١) .

هذا هو الخبـر الذي يرويه الطبري وابن الأثيـر والنويري ، وهو لا يكاد يعقل ؛ فإنه يجعل كل أزمة عصر عثمان وفتنته من عمل رجل واحد هو هذا ابن السوداء الذي يقول إن اسمه عبد الله ابن سبأ ، وإنه كان يهوديًا من أهل اليمن ، ودخل الإسلام وبدأ هذه الدسـيسـة الكبرى ، فـهـو الذي اخترع الرجعـة واخترع الشيعـية ، وبدأ تحريض الناس على عثـمان ، مع أننا نعرف أن لهذه الفتنة الكبرى أسبـاباً من واقع التاريخ ، ولن يتسع المجال هنا لذكرها ، ولا أظن أن أحداً في عصـرنا هذا يجرؤ على البحث فيها ؛ لأننا مازلنا في عصرنا هذا على حساسية بالغة في كل ما يتـعلق بالصحـابة ، ولكن من الواضح أن فتنـة عثمـان ـ وهي حادث ضخم لا شك فيه ـ لها أسبابها التاريخية المنطقية ، ثم إن الطبري يأتي بعـد ذلك بروايات عن تفصيل أسبـاب ما حدث في عصر عثمان لا تكاد تفهم المراد منها ، وأنت مهما يبلغ فهمك فإنك لا تستطيع أن تصل إلى مقطع الحق في الموضوع .

وهنا نفهم السر من حكاية ابن السوداء هذه ، فإن الحقيقة فيما يبدو لأى إنسان ذى نظر هي أن عبد الله بن سبأ هذا لم يكن ولا كان قط ، وإنما هي أسطورة وضعت لكى نبعد أى اتهام بالشر إلى أحد من قادة العصر ، وكلهم من الصحابة ، فإن عصر الراشدين هو عصر الصحابة والتابعين ، والثورة على عثمان كانت في الحقيقة ناتجة عن ظروف تاريخية طبيعية ترجع إلى استحالة تسيير الأمور على النظام الذى سارت عليه أيام عمر ابن الخطاب ، فإن الزمان متغير ، ولكل زمن أحكامه ، فقد كان الإيراد وافراً جداً أيام عمر ؛ نظراً إلى غنى الأقاليم التى فتحت في أيامه . وفي منتصف خلافة عثمان - وبعد نهاوند في المشرق، وفتح إفريقية فى الغرب وصلنا إلى بلاد لا قصور فيها ولا أموال ولا ذهب ولا فضة ، وإنما وجد العرب أنفسهم فى مواجهة الترك في المشرق والبربر فى المغرب « ولا مغنم هنا إلا رءوس الماشية والأسرى من الناس » وهذه لا تعطى ما كانت فتوح الشام والعراق ومصر تعطيه من الخيرات الضخمة حتى قيل : « إن دخل الفاتح العربي في عصر عمر كان يصل إلى ثلاثة آلاف دينار سنوياً فى المتوسط ، والمقاتلون الذين كانوا يخوضون هذه المعارك كانوا من العرب الذين أسلموا في العام التاسع من الهجرة وما بعده » وهؤلاء كان نصيبهم قليلاً فى الأعطيات بحسب النظام الذى وضعه عمر ، فلما قلت إيرادات الناس من المعارك نظروا فى العطاء فإذا المستحق لكل منهم لا

يكاد يكفي لشيء ، فذهبوا إلى الخليفة يشكون ما يعانون ؛ ولهذا فإننا نجد أنه بعد مناقشات طويلة مع عثمان حول مآخذ يسيرة كانوا يأخذونها عليه ـ نصل إلى بيت القصيد من هذا الكلام الطويل كله ، فيروى الطبرى ما يلي من غير سيف بن عمر ومن إليه فيقول : إن عثمان لقي وفد أهل مصر فى قرية له خارج المدينة فقال لهم : « ما تريدون ؟ قال : فأخذوا ميثاقه ، قال : ما حسبه قال : وكتبوا عليه شرطاً ، قال : وأخذ عليهم ألا يشقوا عصا ، ولا يفارقوا جماعة ما قام لهم بشرطهم ـ أو كما أخذوا عليه ـ قال : فقال لهم : ما تريدون ؟ قالوا : نريد ألا يأخذ أهل المدينة عطاء ، فإنما هذا المال لمن قاتل عليه ، ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال : فرضوا بذلك وأقبلوا معه إلى المدينة راضين » .

قال الطبرى بعد كلام طويل جداً ص٣٥٥ : « فقام (عثمان) فخطب فقال : إننى ما رأيت والله فى الأرض من هم خير لحوباتي (أى أخطائى) من هذا الوفد الذين قدموا عليّ » .

وقد قال مرة أخرى : خشيت على هذا الوفد من أهل مصر ، ألا من كان له زرع فليلحق بزرعه ، ومن كان له ضرع فليحتلب، إلا أنه لا مال لكم عندنا . إنما هذا المال لمن قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال : فغضب الناس وقالوا: هذا مكر بني أمية » (الطبرى ٤ / ٣٥٥) .

ثم تلا ذلك حكاية مشهورة ومتواردة فى الكثير من مراجعنا « هى حكاية وفد مصر الذى كان عائداً إلى بلاده راضياً بالاتفاق الذى تم مع عثمان ، ثم رأى رجلاً يتجه إلى مصر ويعترض الوفد مرة بعد أخرى ، فامسكوا به وفتشوه فوجدوا معه خطاباً عليه خاتم عثمان إلى والى مصر يامره فيه بقتل هذا الوفد (الطبرى ٣/٣٥٥) ورأى المؤرخين القدامى هو أن هذا الكتاب من تزوير رجال بنى أمية الذين كانوا مسيطرين على إدارة عثمان . وهى أيضاً مستبعدة ، فإن رجال بني أمية لم يبلغ بهم الخطل أن يدبروا هذا التدبير الغبى الذى لا معنى له .

ولكن المهم أننا وضعنا أيدينا على سبب الخلاف بين الناس وعثمان ، فإن الناس لا تثور على الدولة لزيادة مساحة مراعى الدولة أو لضرب عبد الله بن مسعود وما أشبه هذه من الأمور ، وإنما تثور لمسائل اقتصادية ، وهذا واضح من كلام الطبرى ، وقد سبق أن أشرنا إليه ، أما حكاية عبد الله بن سبأ ابن السوداء فخرافة لا معنى لها ، ولا ندرى كيف تواتر ذكرها في معظم مراجعنا ، وقد سبق أن ذكرنا أنها نشأت عن رغبة الناس فى تحاشي أى نقد إلى أى واحد من الصحابة ، وهذا معقول ومشكور - أيضاً - من المسلمين . وقد سبق أن ذكرنا أيضاً أنه يصعب جدًا دراسة فتنة عثمان لنفس السبب ، فإن عصر الخلفاء الراشدين هو عصر الصحابة وهم أبطال تاريخنا الإسلامى ونجومه .

الفصل الرابع

لماذا كان أجدادنا بعيدين عن الفكر السياسى السليم ؟

يستوقف نظرنا أن مراجعنا - بصورة عامة - تحمل على بني عبد شمس حملة بالغة العنف ، وتزعم أنهم كانوا أعداء بني هاشم من يوم ولد هاشم وعبد شمس - وقد كانا توءَماً - فيقولون : إنهما عندما خرجا إلى الدنيا كانت إصبع أحدهما لاصقة بجبين الآخر ، فكان لابد من فصلهما بالسيف ، فكان بينهما دم منذ الميلاد ، والخبر متوارد في معظم مراجعنا مع أنه ظاهر الخطأ .

فإن الثابت هو أن بني هاشم وبني عبد شمس كانوا قبل الإسلام حليفين متعاونين على سواهما ، ولم يقع الخلاف بينهما إلا بعد الإسلام ، فقد كانا شقيقين ، فهما - مع أخيهما المطلب بن عبد مناف - أولاد ابن عبد مناف وعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج من بني قيس عيلان بن مضر ، وقد اشتركا معاً في عقد الأحلاف التجارية لقريش ، وهي التي تسمى الإيلاف . ولم يقع بينهما في الجاهلية إلا ما يقال من منافرة أمية بن عبد شمس بن عبد مناف لعمه هاشم ومحاولته منافسته فيما كان يصنع من

الإنفاق لتأييد مركزه في رياسة قريش ، وقد عجز أمية بن عبد شمس عن ذلك ، ونفرا ـ أى حكما ـ بينهما الطاهر الخزاعى ، فنفر هاشماً ـ أى حكم له ـ وخسر أمية خمسين ناقة ، وخرج أمية إلى الشام منفيّا من وطنه ، وأقام هناك عشر سنين جمع فيها ثروة طائلة ، ثم عاد إلى مكة ، وهذه الثروة التى جمعها أمية هي التى مكنت له ولبنيه من الوقوف في وجه بنى هاشم عندما جاء الإسلام . ولكن منافرة أمية عمه لم تفسد العلاقات بين بني عبدشمس وبني هاشم ، فظلا يتعاونان حتى جاء الإسلام .

وقد وقف بنو أمية من محمد ﷺ والإسلام موقف العداء من أول الأمر ، ولم يكن ذلك استمراراً لعداوة قديمة ، وإنما كان بنو بني عبد شمس ـ فيما عدا استثناءات معروفة ـ لم يفهموا الإسلام قط ، شأنهم في ذلك شأن مخزوم ومن إليهم ممن ظلوا طول الوقت يخافون من أن يكون الإسلام حيلة من بني هاشم لاستعادة الصدارة السياسية التى فقدوها أيام أبى طالب (بعد وفاة عبد المطلب بن هاشم) وقد انتهى الأمر بدخولهم الإسلام جميعاً عند فتح مكة ، وقد يمكن القول إن بعضهم لم يدخل الإسلام عن اقتناع وإنما عن خوف ، وهذا أمر يصعب إثباته ، وإن كان الكثير من مؤرخينا يذكرونه على أنه حقيقة .

إذن فما الذى حدث بعد الإسلام ؟ وما الذى جعل بني عبد شمس ـ وبني أمية بالذات ـ أعداء الإسلام ؟

الذى حدث ـ وهنا أرجو القارئ أن يعيرنى اهتمامه كله ـ هو أن الخلافة كنظام كانت ابتكاراً موفقاً جدّا من أبى بكر وعمر، وأبو بكر وعمر كانا ـ مع على بن أبى طالب ـ أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ وأعرفهم بطريقه ، فسارا فى نفس الطريق دون حاجة إلى تقنين ، ولكن ذلك لا يمنع من القول أن الخلافة رياسة الأمة الإسلامية ـ كانت فى حاجة إلى دراسة وتنظيم ؛ لأن الخليفة هو رأس الدولة ، ولا يمكن أن تترك هذه المسئولية الكبرى دون تحديد مدة أو مدى سلطة ، وإلا فإنها ستتحول بطبيعة الحال إلى ملك مستبد وراثى ، والرومان تنبهوا لذلك قبل أن تظهر الدولة العربية بمئات السنين ، فحرصوا على أن يحددوا مدد الوظائف الكبرى فجعلوها سنتين ، ويمكن أن تجدد ، ولكن ينبغى الرجوع إلى مجلس الشيوخ فى كل حالة ، وحددوا كذلك مدى سلطان كل وظيفة ، وبهذا ضمنوا أن تظل السلطة دائماً فى يد مجلس الشيوخ ، أى فى يد الشعب .

وكان ينبغى أن نفيد من هذه التجربة الكبرى ؛ لأن ترك سلطة رئيس الدولة دون تحديد مدة أو مدى سلطان لا يتفق مع طبيعة دولة الإسلام ، وهى دولة الشورى ، وفقهاء المسلمين ومُشَرِّعُوهم الأوائل كانوا من أمهر الناس وأدقهم ، وقد وضعوا النظم الشرعية الدقيقة لكل شىء فى حياة المسلمين : للطلاق والزواج والميراث والبيع والشراء والدين ، ولكنهم وقفوا عند مسائل النظام السياسى مع أنها عرضت للمسلمين ـ وبشكل حاد جدًا ـ من أول الأمر .

فقد رأينا أن الخارجين على عثمان واجهوه في النهاية بحقيقة السبب الذى دفعهم للثورة عليه ، وهى مسألة نظام تفريق أموال الدولة فى الناس ، وقد اشتدت المناقشة بينهم وبينه ، وكبار الصحابة فى المدينة يدخلون على عثمان ويخرجون من عنده ولا أحد منهم يتوسط بينه وبين الناس توسطاً حقيقياً ، ويبدو كذلك أن عثمان لم يكن مستعداً لأن يقبل من أحد منهم رأياً ؛ لأن أهله كانوا من حوله وكانوا يشدون أمره، وبلغ الأمر فى النهاية إلى أن هددوه بالخلع واشترطوا عليه شروطاً وعد بأن يتبعها ويبقى فى وظيفته ، ولكن الأمر لم يستقم ، وأخيراً قال له الناس فيما رواه الطبرى (٤ / ٣٧٦) : «ولقد رجعنا عنك ، وما كان لنا أن نرجع حتى نخلعك ونستبدل بك من أصحاب رسول الله ﷺ من لم يحدث مثل ما جربنا منك ، ولم يقع عليه من التهمة ما وقع عليك ، فاردد خلافتنا واعتزل أمرنا ؛ فإن ذلك أسلم لنا منك وأسلم لك منا ، فرد عليهم عثمان رداً طويلاً جاء فيه : « أما قولكم تخلع نفسك ، فلا أنزع قميصاً قمصنيه الله عز وجل وأكرمنى به ، وخصنى به على غيرى ، ولكنى أتوب وأنزع ولا أعود لشيء عابه المسلمون؛ فإنى - والله - الفقير إلى الله الخائف منه ، قالوا : إن هذا لو كان أول حدث أحدثته ، ثم تبت منه ، ولم تقم عليه لكان علينا أن نقبل منك وأن ننصرف عنك ، ولكن قد كان منك فى الأحداث قبل هذا ما قد علمت ، ولقد انصرفنا عنك فى المرة الأولى ، وما

نخشى أن تكتب فينا ، ولا من اعتللت به بما وجدنا في كتابك مع غلامك. وكيف نقبل توبتك وقد بلونا منك أنك لا تعطى من نفسك التوبة من ذنب إلا عدت إليه ، فلسنا منصرفين حتى نعزلك ونستبدل بك ، فإن حال من معك من قومك وذوى رحمك دونك قاتلناهم حتى نخلص إليك فنقتلك أو تلحق أرواحنا بالله » (الطبرى ٤ / ٣٧٦ ـ ٣٧٧) .

ولا يستطيع أحد أن يؤكد أن هذا هو الكلام الذى دار بين عثمان والناس كلمة كلمة ، فهذه كلها أخبار وصلت إلى الطبرى بالسماع ، ولكن الأمر الذى يعنينا هنا هو أن عثمان قال : فلا أنزع قميصاً قمصنيه الله عز وجل وأكرمنى به وخصنى به على غيرى ؛ لأنه سيكرر هذا المعنى بألفاظ أخرى فيما جرى بعد ذلك من الحديث بينه وبين الناس مثل قوله : « أما أن أتبرأ من الإمارة فأن تصلبونى أحب إلى من أن أتبرأ من أمر الله عز وجل وخلافته » .

وهذا الذى قاله عثمان مبدأ خطير ، وكان ينبغى أن يناقشه الفقهاء ، فإن كل شيء طبعاً بأمر الله ، ولكن ولاية عثمان كانت من الناس ، والناس كما ولوه فقد كان لهم أن يعزلوه إذا لم يرضوا عن سياسته .

والغريب أن أحداً من الصحابة الذين كانوا موجودين فى المدينة لم يفكر فى مناقشة هذا الرأى ، مع أن بعض هؤلاء الصحابة هم الذين اختاروا عثمان فى الشورى .

وهذا أمر لابد أن يستوقف نظرنا ؛ لأننا هنا أمام أخطر قضية كان لابد أن يناقشها الرأى ؛ لأنها ـ فيما نرى ـ أهم مشكلة واجهت الأمة الإسلامية في تلك العصور ، وكان لابد من حلها حلاً إسلامياً معقولاً يصلح أساساً لتنظيم مسألة رياسة أمة الإسلام أو أمم الإسلام إذا اقتضى الأمر أن تكون فى عالم الإسلام أكثر من دولة .

وقد كان قادة القرون الإسلامية الأولى عباقرة حقاً ، فقد عرفوا أولاً كيف يجمعون نص القرآن جمعاً صحيحاً سليماً ويقضون على القراءات الفرعية أو الشخصية التى لم تكن تضر بالكتاب الكريم ؛ لأن الخلافات كلها كانت ألفاظاً ، ولكن الاكتفاء بنص واحد يتفق الناس على كل حرف فيه أفضل ، وتلك ربما كانت أكبر فضائل عثمان ، ثم عرفوا بعبقرية حقيقية كيف يجمعون أحاديث الرسول ﷺ وآثاره جمعاً عميماً دقيقاً قائماً على أصول وقواعد . وأسماء مثل محمد بن إسماعيل البخارى ومسلم القشيرى وإسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل ، ويحيى ابن معين ـ أسماء خالدة في تاريخ الإسلام ، وعلى القرآن والحديث قام الفقه الإسلامي كله الذى تناول كل كبيرة وصغيرة في حياة المسلمين بالتشريع والتقنين ، إلا مسألة نظام الحكم فقد تركوه لما يعرف بالشورى ، والشورى مبدأ إسلامى مقرر من أيام رسول الله ﷺ ، وهو نفسه وضع لها نظاماً وسار عليه وراعاها في كل تصرف من تصرفاته ، وكذلك كان الحال

مع أبي بكر وعمر ، وعصرهما ـ كما قلنا ـ استمرار للعصر النبوى ، فلما جاء عثمان وتعرضت الأمة لمشكلة سلامة الحكم واحتكما إلى الشورى حقاً وجدنا أنها بالصورة التى كانت موجودة بها لم تنفع ، وها نحن أولاء نرى ما حدث فى أيام عثمان ، فقد كان خيرة أهل الشورى موجودين ، وكانوا قادرين على حل تلك الأزمة ، ولكن المشكلة الكبرى فى الشورى أنها كانت بيد رئيس الدولة ، هو الذى يختار أهل الشورى ، وهو الذى يجمعهم ، وهو الذى يتقيد أو لا يتقيد برأيهم ، وعثمان لم يقرر جمع أهل الشورى وعرض الخلاف الكبير الذى وقع بينه وبين الأمة عليهم ؛ لأنه ـ فى الحقيقة ولأسباب عائلية ـ لم يشأ أن يتقيد برأى الشورى ، وفضل ـ كما رأينا ـ أن يظل الأمر بينه وبين الناس على الصورة المحزنة التى رأينا ، وقرر أن الله ـ سبحانه ـ هو الذى ألبسه ثوب الخلافة ، وكل شىء بطبيعة الحال بيد الله ، ولكن الناس ـ أو أهل الشورى بتعبير أدق ـ هم الذين اختاروه ، وكما اختاروه فإن لهم الحق فى أن يعزلوه ، وهذا حق من حقوق الأمة لو أن الشورى كانت فى رأيه بالفعل أساس الحكم فى الإسلام ، أما أن يتوب كما رأينا توبة كلامية بين أيدى المسلمين وقوله : « ولكنى أتوب وأنزع ولا أعود لشىء عابه المسلمون فإنى ـ والله ـ الفقير إلى الله الخائف منه » (الطبرى ٤ / ٣٧٦) فأمر شخصى صرف ، والمسلمون رفضوه ، ولكن أهل الشورى لم يجتمعوا ؛ لأن اجتماعهم ظل بيد الخليفة

يفعله أو لا يفعله ، فكانت النتيجة أن زادت الأحوال سوءاً وانتهى الأمر بمقتل عثمان .

وتلك هي المسألة التي كان لابد أن يتناولها الفقهاء بالبحث ووضع القواعد لها كما وضعوا القواعد لكل شيء في حياة المسلمين ، ولو أنهم تناولوا هذا الموضوع الأساسي بنفس الدقة العلمية القانونية التي تناولوا بها غيرها من المسائل لكان لدينا أساس شرعي ملزم فيما يتعلق بنظام الحكم وحقوق رئيس الدولة وواجباته وحقوق الرعية وواجباتها .

ولكن المحزن الذي يستوقف النظر حقاً أنهم تركوا هذا الموضوع جانباً دون أن يتدخلوا فيه ، ولا يمكن القول بأنهم خافوا ، فما كانوا بأهل خوف ، ويكفي أن نذكر أزمة أحمد بن حنبل مع الاعتزال وأنصاره من رجال الدولة ، ولا أظن أننا ننتهي إلى نتيجة مقبولة إذا مضينا نبحث عن أسباب الانصراف عن التشريع السياسي ، فظل كل شيء هنا عائماً غير محدد بقواعد ، وتلك كانت المصيبة الكبرى التي حالت دون ضبط نظم الحكم في الإسلام وعند المسلمين بتعبير دقيق ، وكل ما نقرؤه لمفكري الإسلام في الموضوعات السياسية عائم وغامض وغير مضبوط ، وأدع هذا الموضوع لمفكري الإسلام ؛ ليديروا الرأي فيه ، ويكفي أن نقول - وهو مجرد رأي - : إننا لم نعرف الفكر السياسي المقنن المنظم إلا بعد أن اتصلنا بالغرب وأخذنا منه . والغرب لم يصل إلى ما وصل إليه لعبقرية فكرية أو امتياز ذهني ، بل هو مر بتجارب شتى يعرفها الذين يدرسون تاريخ

الفكر السياسي الغربي . وكنا في الحقيقة أولى منهم بالوصول إلى هذه النتائج ؛ لأن القرآن والسنة وتجارب عمر وعثمان وعلي تعتبر أسسا سليمة جدًا لوضع نظام قانوني سياسي محكم .

ولكن الذي حدث هو أننا لم نضع هذا النظام ، فظل الفكر السياسي الإسلامي قائماً على تمنيات وآمال بأن يوفق الله أ؛ الحكم إلى سبيل الرشاد . وبصفة عامة تستطيع أن تقول : ليس لدينا ـ نتيجة لذلك ـ فكر سياسي إسلامي جدير بهم التسمية . وبين يدى الآن كتاب ممتاز عن الشورى وأثرها في الديمقراطية دراسة مقارنة ـ تأليف الدكتور عبد الحميد الأنصاري (القاهرة /مارس ١٩٨٠) ولكن مؤلفه لم يقرأ هذه الصفحات الأساسية من الطبري ؛ لكي يرى أن الشورى لم تطبق عندنا تطبيقاً عملياً نافعاً عندما عرضت الحاجة إلى هذا التطبيق .

وتلك مناسبة لكي أقول : إنني لم آت بهذه الفقرات من تاريخ الطبري لكي أقول : إنها في حاجة إلى تنقية ، بل أتيت بها لكي أثني على الطبري ؛ فإن الرجل أتانا في الحقيقة بنص ممتاز ، ولا يسعنا إلا شكره ، وتنقية النص يراد بها التعليق على هذا النص ، وهي هنا واجب علينا نحن ، فأنا أرى أن أي رجل منا يريد الكتابة عن الشورى لابد له أن يقرأ صفحات الطبري هذه .. وتكون كتابته تاملا فيها وتعليقاً عليها .

ولكي أعطي القارئ فكرة عن بعد المسلمين عن الفكر السياسي أضرب له مثلاً بكتاب من أحسن ما كتب تقي الدين المقريزى في موضوع النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم . والمقريزى ليس أي مؤرخ ، إنما هو واحد من قلائل مؤرخي الإسلام فكراً وفهماً وشمولاً في النظر ، وهو تلميذ ابن خلدون ، ومع ذلك فإن كلامه في كتابه القيم هذا يدل دلالة واضحة على بعده عن الفكر السياسي السليم ، فهو يحمل على بني أمية حملة بالغة العنف ، ويتعجب من وصولهم إلى الخلافة مع بعدهم تماماً عن استحقاقها ، وهو في هذا الكتاب لا يدع شيئاً من المثالب إلا وصف به بني أمية ، وفي إحدى فقراته يقول : « قد عرفنا كيف كان أبو سفيان في عداوته للنبي ﷺ وفي محاربته وفي إجلابه عليه . » ثم يقول : «على أنه إنما أسلم على يد العباس رضي الله عنه ، والعباس هو الذى منع الناس من قتله .. إلخ »(ص٢٧) وقد رأينا أن ذلك كله مشكوك في صحته ، وأن العباس لم يكن أحسن من أبي سفيان بالنسبة إلى الإسلام ، ولكن المقريزى هنا لم يفكر أو يتأمل ، وإنما هو يروى بل هو يتهم بني أمية أنهم انتزعوا الخلافة من الحسن بن علي بن أبي طالب بعد موت أبيه ، ونحن نسأل : وكيف وصلت الخلافة إلى الحسن بن علي بالوراثة عن أبيه علي ؟ وهل تنال الخلافة بالوراثة ؟



الفصل الخامس

مؤرخونا القدامى ومواقفهم من بنى أمية

مراجعنا القديمة ـ بصورة عامة ـ لا تنصف بنى أمية ، بل إن المؤلفين ـ فى الغالب ـ لا يرضون عنهم ، ويرون أنهم ظلمة وجبابرة ، ويذهب البعض إلى اتهامهم بالكفر ، حتى أولئك الذين يذكرون فتوحهم وما أضافوه إلى أرض الإسلام ، وهو يزيد فى مجموعه على ما تم فتحه فى العصر الراشدى ، حتى هؤلاء يشتدون فى الحكم على بنى أمية ، ولا يخطر ببالهم أن يضعوا الحسنات إلى جانب العيوب ، والإيجابيات إلى جانب السلبيات ، ثم يكون حكمهم بعد ذلك على هذا الأساس ، ونحن في الحقيقة إذا وضعنا محاسن بنى أمية أمام عيوبهم ازداد قدرهم فى نظرنا ، فهم ـ دون شك ـ أكبر الأمم الفاتحة فى تاريخ الإسلام ، ولا نريد بذلك سعة الفتوحات فحسب ، بل نضيف إلى ذلك أن فتوح بنى أمية فى مجموعها هى أبقى الفتوحات (بعد فتوح الرسول صلوات الله عليه وأبى بكر وعمر وعثمان) وأبعدها أثراً فى اتساع نطاق العروبة والإسلام ، فقد فتح الغزنويون فى المشرق فتحاً ضاع ، والغالبية العظمى مما

فتح الأتراك العثمانيون في الغرب ضاع ، وما انتشر من الإسلام فيما فتحوه أقل بكثير مما كنا نتوقع ، ولم يستعرب منه شيء طبعاً ، أما بنو أمية فكانوا عرباً فاتحين ، وقد نشروا الإسلام والعروبة في كل ما فتحوا ، ولولا ظروف طارئة حالت بين استعراب إيران وردتهم إلى الفارسية لكان شرق الدولة الإسلامية كله اليوم عربيًا ، كما كان الحال مع غربها ، وما اتصل بهذه الفتوح فيما بعد من بلاد إفريقية الغربية والاستوائية ، ثم إن العروبة والإسلام لم يخسرا مما فتح بنو أمية إلا الأندلس ، وكانت لذلك ظروفه التي لا يسأل عنها بنو أمية ، وهم يظلون - رغم ما حدث للأندلس - أعظم الفاتحين العرب والمسلمين على الإطلاق .

غير أن الفضل العظيم لا يدخل في الحساب عند قدماء مؤرخينا : لأن غالبية هؤلاء المؤرخين مغرضون قبل أن يمسكوا بالقلم ، والغرض هنا عاطفي عام ، فهم كارهون لبني أمية لما فعلوه برجال من العلويين ، ذرية علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وإذا نحن استبعدنا ضرورات التجرد العلمي قلنا إنهم محقون عاطفياً ، فهذه ذرية المصطفى - صلوات الله عليه - ونحن لا نطيق أن يمس أحد رسولنا وذريته بأدنى شيء ، ولكننا عندما ندخل دائرة الواقع التاريخي تخف في نظرنا بشاعة هذه الجرائم ، فإن الخلافة خرجت من أواخر عصر عثمان عن نطاقها الديني الإسلامي الذي وضعها فيه أبو بكر وعمر ، ومعاوية -

إلى حد ما ـ كان محقاً عندما طلب معاقبة قاتلي عثمان ، فهذه جريمة بشعة ، ولا يمكن ـ من الناحية الشرعية الإسلامية ـ أن تمر هكذا ، دون أى تحقيق ، ولم يكن المطلوب أن يسلمهم الخليفة لمعاوية ، بل كان المطلوب أن تضع الدولة يدها عليهم وتعاقبهم . وهذه مسئولية رئيسية من مسئوليات الحكم فى الإسلام ، ولكن الدولة عندما تولى على لم تفكر فى هذا الموضوع بالصورة التى أرادها بنو أمية ، وكان رأى على هو أن يقضى أولاً على خروج الزبير وطلحة عليه ، بل هى حتى لم تضعه موضع العناية ، ومادامت الدولة قد تراجعت ـ ولو مؤقتاً ـ عن واجبها فى هذه القضية فقد أعطت أولياء القتيل الحق فى أن يطالبوا بدمه ، وهذه المطالبة هى الباب الذى دخل منه بنو أمية باب السياسة .

وأنا ـ بصفتى مسلماً ومؤرخاً معاً ـ أسأل نفسى دائماً : لماذ لم يفتح عَلِىٌّ باب التحقيق فى أمر قتل عثمان ؟ والسؤال هذ يصدر عن قلب يحب علياً وآله ؛ لأن الصحابة كانوا إذ ذاك موجودين وقادرين على القيام بهذا التحقيق . ولم يكن من العسير العثور على قتلة عثمان ، فهذه جريمة خطيرة ارتكبت فى وضح النهار ، وكان لابد من تكليف جماعة من أهل الشورى التحقيق فى الأمر ، وحتى إذا لم تضع هذه الجماعة يدها على القتلة فإنها تكون قد قامت بواجبها على الأقل ، نحن لا نرى ما يمنع من أن يشترك معاوية أو من ينيبه عن نفسه فى لجنة

التحقيق حتى يرى أن الأمر جاد ، فقد كان معاوية نفسه صحابياً ، وما نظنه كان يفكر في البداية في الخلافة ، ولكن تطور الأحداث في عصر علي وتصرف علي نفسه أدى إلى ذلك ، وسترى أن النصوص هنا مضطربة جداً ، وأن الوصول إلى حقيقة ما جرى من خلالها يكاد يكون مستحيلاً ، ونلاحظ منذ البداية أن علياً لم يعط الشورى حقها الذي كان لها أيام الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر ، وأنه كان يتصرف في الغالب من وحي نفسه ، ويبدو أن خروج طلحة والزبير وعائشة عليه قد فاجأه وساءه وأضعف مركزه منذ البداية ، فرأى أن يقضي عليه قبل كل شيء ، وسنروي له كلاماً واضحاً في هذا المعنى .

وسنرى أن هذه العوامل كلها ، وخروج علي من المدينة في طلب طلحة والزبير وعائشة كان من أكبر أسباب ضعف مركزه؛ لأن المدينة كانت عاصمة دولة الإسلام ، ولها جلالها الذي كان جديراً بأن يجعل الأمة كلها تلتف حول علي ، كما سبق أن التفت حول أبي بكر عند الردة ، وهو نفسه أحس بذلك عندما استقر في الكوفة ووجد نفسه وسط رجال لم يعرفوا قدره ؛ لأن المسلمين فيها كانوا من المتأخرين ممن لم يعرفوا قدر الصحابة أو عظم مكانتهم ، وقد رأينا ما فعلوه في عثمان والكوفة .

على أي حال لم تكن منذ ميلادها إلى زوالها مدينة بالمعنى الصحيح للمدينة ، إنما هي كانت محطة تنزل فيها القبائل المهاجرة ريثما تعرف إلى أين تهاجر ، والموجودون فيها اليوم

قد لا يكونون فيها غداً : رحلوا إلى مهاجرهم ولن يعودوا إليها ، وفي الغالب يحل فيها غيرهم من نفس القبائل ، ولا يحس الإنسان بهذا التغيير الحاسم ، وقد شكا علي بن ابي طالب من نتائج هذه الظاهرة ، وأما أهل الكوفة الباقون فيها بصورة دائمة فكانوا أهل الخدمات من الصناع والتجار ممن لا تستغني عنهم المدن ، وربما كان سبب عدم تنبه علي بن أبي طالب إلى هذه الحقيقة هو أنه كان عظيم الثقة في نفسه ، ثم إنه كان محاطاً دائماً برجال من أنصاره المخلصين ، ولكنه وقع شيئاً فشيئاً ـ وخاصة بعد معركة الجمل ـ في أيدي رجال من محترفي السياسة من زعماء البدو القبليين من أمثال القعقاع بن عمرو ، ومِسْعر بن مالك ، وهند بن عمرو ، والهيثم بن شهاب ، والحارث بن سريج ، ومن إليهم ممن لم يعرفوا قدره أبداً ، وهؤلاء جميعاً لم ينفعوه في شيء بل أضروا به ضرراً بليغاً ومن هؤلاء ظهر الخوارج ممن حسبوا أنفسهم أصدق تديناً مر علي .

ولدينا عن الأحداث التي وقعت خلال هذه الفترة الخطيرة من تاريخ الإسلام نصوص كثيرة جداً ، بعضها لا يستحق الثقة مثل الإمامة والسياسة للدينوري ، ومن أسف أن هذه المراجع كانت عظيمة الأثر في الصورة التاريخية فيما بعد ، والسبب الأساسي في ذلك هو أن نصوص المرجعين المطولين الجديرين بالثقة هنا ، وهما الطبري (ج٤ ص ٤٥٠ وما بعدها) ومعركة صفين لنصر بن مزاحم المنقري مطولة جداً ، وهي متضاربة

ومتناقضة ، ومن العسير علينا ـ كما سنرى ـ أن نخرج منها بخط واضح لسير الحوادث ...

وقد قرأت هذه النصوص مرة بعد أخرى ، وفي فترات مختلفة ، فلم أخرج بنتيجة ، ورغم الصبر وطول البال وإخلاء نفسي في بعض المناسبات من كل عاطفة ـ وخاصة عاطفتي الهاشمية ومحبتي المتأصلة في نفسي لعلي بن أبي طالب ـ فلم ينفعني ذلك في كثير ، وظللت إلى يومنا هذا غريباً عن الحوادث، وظلت هي غريبة عني ، وإليك الخبر التالي الذي يرويه الطبري عن رواته (٤/ ٤٥٥) : كتب إلى السري عن شعيب عن سيف (ابن عمر) عن محمد وطلحة قالا : بلغ علياً الخبر وهو بالمدينة باجتماعهم (يريد طلحة والزبير والسيدة عائشة) إلى البصرة ، وبالذي اجتمع عليه ملؤهم (من قتال علي) وبلغه قول عائشة ، وخرج علي يبادرهم في تعبئته التي كان تعبى بها إلى الشام ، وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخففين في سبعمائة رجل ، وهو يرجو أن يدركهم فيحول بينهم وبين الخروج ، فلقيه عبد الله بن سلام فأخذ بعنانه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، لا تخرج منها ، فوالله لئن خرجت منها لا ترجع إليها ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً ، فسبوه ، فقال (علي رضي الله عنه) : دعوا الرجل ، فنعم الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، وسار حتى انتهى إلى الرَّبْذة فبلغه ممرهم (يريد أنهم مروا بالربذة وساروا في الطريق إلى العراق) .

وهذا كلام يضم أشياء لم نسمع بها من قبل ؛ فإن عليا ـ كما نرى من الخبر ـ كان يريد أول الأمر الخروج إلى الشام ، وهذا ـ فيما نرى ـ كان الطريق الأمثل لـه ، فقد رفض معاوية الطاعة له، وكان لابد من القضاء عليه بأسرع ما يمكن حتى تنتهي هذه الفتنة . وهذا عبد الله بن سلام ـ وهو من خيرة الصحابة ـ ينصح عليا بألا يترك المدينة ، ويقول : إنه إذا خرج منها فلن يعود إليها ، ولن يعود إليها سلطان من المسلمين أبداً ، وهذا أيضاً كان رأياً صائباً ، وكان من الممكن لعلي ـ بصفته أمير المؤمنين ـ أن يبعث إلى الشام من قواده بقوة ضاربة حاسمة فتقضي على معاوية في أقل وقت ممكن ، ولكن عليّاً لم يسمع لكلام عبد الله بن سلام ، ولابد أنه كان هناك كثيرون آخرون على رأيه ، وإنما رأى أن يتبع طلحة والزبير وعائشة ؛ لكي يقضي عليهم ، بل لكي يردهم عن الخروج ، ومن هذه الفكرة أتاه بلاء عظيم ، ثم إننا نرى أن القوم الذين أرادوا أن يأخذوا عليا إلى الكوفة سبوا عبد الله بن سلام ، فكأنهم كانوا أصحاب أغراض من وراء خروج علي إلى الكوفة ، ولكن أغرب شيء في تصرف علي ـ رضي الله عنه ـ هو عدم تفكيره في الكلام الحكيم الذي قاله عبد الله بن سلام ، وكأنه كان يتصور أنه لا يلبث أن يأخذ طلحة والزبير وعائشة ويعيدهم إلى المدينة ثم يفرغ لمعاوية .

ويأتينا الطبرى بعد ذلك بخبر غريب يضم فقرة نحن

جديرون بأن نطيل التأمل فيها . والطبرى يقول هنا .. رواية عن رواته ورداً على أسئلة وجهها إليه اثنان من أهل الكوفة خرجا للعمرة فبلغهما مقتل عثمان . ولقيا علياً فى الربذة فوجها إليه بعض الأسئلة (سيرد ذكرها فى الإجابة) فقال على : « أى بنى ، أما قولك : لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به ، أما قولك : لا تبايع حتى تأتى بيعة الأمصار فإن الأمر أمر أهل المدينة ، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر ، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير (أى لماذا خرجت فى طلبهما) فإن ذلك كان وهنا على أهل الإسلام ، ووالله مازلت مقهوراً مذ وليت منقوصاً لا أصل إلى شىء مما ينبغى ، أما قولك: اجلس فى بيتك فكيف لى بمن قد لزمنى أو من تريدنى ؟ (يريد من تريدنى أن أكون ؟) أتريدنى أن أكون مثل الضبع ويقال دباب دباب (أى تنادى لتخرج من مخبئها) ليست ها هنا حتى يحل عرقوباها ثم تخرج ، وإذا لم أنظر فيما لزمنى من هذا الأمر ويعنينى فمن ينظر فيه ؟ فكف عنك أى بنى » .

وهذا كلام ما قرأته إلا زاد حبى لعلى بن أبى طالب وحزنى على ما أصابه ؛ فقد كان والله رجلاً على إيمان بالغ وصدق عميق . ولكن يبدو أنه لم يكن يثق كثيراً فيمن معه ، وربما كان أفضل له لو وثق . وهذه الثقة كانت أمراً يحتاج إلى سياسة ، وعلى الذى عانى الكثير ـ كما رأينا ـ منذ تولى ، كان يريد أن يثبت مكانه دون اللجوء إلى السياسة ، وكان أفضل لو لجأ إلى

السياسة في تلك المعركة التي خاضها مع معاوية ورجاله، وكانوا أهل سياسة قبل أي شيء آخر .

ولو أنه أقام في المدينة وتصرف منها ـ كما قال عبد الله بن سلام ـ لأتته الجنود من كل مكان ، بدلاً من أن يذهب هو إليها ، فإن مقام رئيس الدولة في عاصمتها يخلع عليه مهابة وجلالاً وقوة ، والأخبار تدل على أن قبائل العرب بدأت تقبل على عَلِيٍّ عندما قرر الخروج لحرب خصومه ، فقد روى نصر بن مزاحم المنقري أن علياً عندما مر بالربذة ـ في طريقه إلى الكوفة ـ أتته جماعة من طيء ، فقيل لعلي : هذه جماعة من طيء منهم من يريد الخروج معك ومنهم من يريد التسليم عليك ، قال : جزى الله كلا خيراً ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ، ثم دخلوا عليه فقال علي : ما شهدتمونا به ؟ قالوا : شهدناك بكل ما تحب ، قال : جزاكم الله خيراً ؛ فقد أسلمتم طائعين ، وقاتلتم المرتدين ، ووافيتم بصدقاتكم المسلمين ، فنهض سعيد ابن عبيد الطائي فقال: يا أمير المؤمنين ، إن من الناس من يعبر لسانه عما في قلبه ، وإني ـ والله ـ ما كل ما أجد في منه يعبر عنه لساني ، وسأجهد وبالله التوفيق ، أما أنا فسأنصح لك في السر والعلانية ، وأقاتل عدوك في كل موطن ، وأرى لك من الحق مالا أراه لأحد من أهل زمانك ؛ لفضلك وقرابتك ، قال : رحمك الله ! قد أدى لسانك عما يجن ضميرك ، فقتل معه بصفين، رحمه الله .

وبعد قليل نقرأ عند الطبرى أن قبيلة أسد هي الأخرى عرضت أن تسير مع علي . قال الطبرى راوياً عن أصوله : فلما نزل بفيد (في منتصف الطريق من المدينة إلى الكوفة وفي محاذاة المدينة) أتته أسد وطيء فعرضوا عليه أنفسهم ، فقال : في المهاجرين كفاية ، والسؤال الآن : لماذا رفض علي أن تسير معه طيء وأسد ؟ ولو أنه أرسل إلى اليمن وغيرها لأتته ، فقد كان مركزه عظيماً جداً في عالم الإسلام ، ولم يكن في أمة الإسلام من يعدله بل يقاربه ، ولو أنه قر في المدينة وقاد معركته منها لكان النصر حليفه دون شك . ثم لماذا قال : في المهاجرين كفاية ؟ وأين الأنصار ، وهم أعز رجاله وأحب الناس فيه ؟ ولكنه كان يسير بالفعل في طريق مجهول لكثيرين من معاصريه ، قال الطبرى رواية عن أصوله : ولما أراد عليٌّ الخروج من الربذة إلى البصرة قام إليه ابن لرفاعة بن رافع فقال : يا أمير المؤمنين ، أى شيء تريد ؟ وإلى أين تذهب بنا ؟ قال: أما الذى نريد وننوى فالإصلاح منا إن قبلوا منا وأجابونا . قال : فإن لم يجيبوا إليه ؟ قال : ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر . قال : فإن لم يرضوا ؟ قال : ندعهم ما تركونا . قال : فإن لم يتركونا ؟ قال : امتنعنا منهم . قال : فنعم .

وقام الحجاج بن غزية الأنصارى فقال : لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول ، وقال :

دراكها دراكها قبل الفوت

(أى أدركوها قبل أن تخرج من أيديكم) .

وانفر بنا واسم بنا نحو الصوت

لا وألت نفسي إن هبت الموت

(ومعنى : لا وألت نفسي : لاسلمت نفسي) .

والله لأنصرن الله عز وجل كما سمانا أنصاراً .

وهذا كله كلام غير مفهوم . بل إننا إذا فهمنا منه شيئاً فهو أن علياً لم يكن في مسيره هذا واضحاً لا لنفسه ولا للآخرين . ثم إننا نسأل : ما الذى أراد على بقوله : فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابونا إليه ؟ هل يريد الصلح ؟ وعندما يقال له : فإن لم يتركونا ؟ قال : امتنعنا منهم ، فيقول الرجل : فنعم إذن ، فإذا كان على مستعداً لأن يمتنع عن طلحة والزبير وعائشة إذا لم يتركوه فلماذا لم يكتب إليهم بذلك وهو مستقر في دار خلافته بالمدينة وينتظر رأيهم ؟

وبقية كلام الطبرى تدل على أن الناس في كل مكان كانوا مع علي ، وأن الجميع كانوا معترفين به أميراً للمؤمنين ، وإن كان الكثيرون منهم يطالبون عليا بأن يخرج قتلة عثمان ، وكان هو مستعدًا لذلك ، ولكنه ـ لأمر ما ـ كان يرى أن أول ما ينبغي عليه هو القضاء على فتنة الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله

وعائشة بنت أبي بكر ـ رضى الله عنهم ـ ولا ندرى ما الذى كان يخافه منهم والناس كلهم معه إلا معاوية ؟ حتى معاوية نراه صامتاً تماماً في هذه المرحلة من الخلاف ، وما نظن انه صمت وثبت مكانه إلا أنه خاف على نفسه وعلى بني أمية بعد أن عزله على عن الشام وكل ولاة عثمان على غير الشام ، والنصوص تقول : إن أمر الزبير وطلحة وعائشة لم يكن بشيء ، وإن عليا لو قر مكانه في المدينة واجتهد في القضاء علي معاوية لانتهي الأمر .

بل إننا نرى من حديث الطبرى ونصر بن مزاحم أن خروج على إلى الكوفة والبصرة جعل الناس يتصورون أنهم أمام فتنة حقة ، ثم إنه عندما قرر المسير لم يشاور أحداً ولا هو عني بأن يفهم الناس سبب مسيره فدخل ـ هو والمسلمون ـ فى فتنة خطيرة حقاً .



الفصل السادس

حيرة الناس عند مقتل عثمان ..
وكان لابد من وضع نظام للخلافة

رأينا أن محمد بن جرير الطبرى كان يعتمد في تلك المناسبة الخطيرة ـ مناسبة فتنة عثمان والخلافة ـ على رجال بعيدين عن الثقة والتدقيق من أمثال السرى بن يحيى ، وشعيب بن إبراهيم الكوفى ، وسيف بن عمر الأسدى ، وحتى عندما كان يعتمد على رجال من أهل العلم والتدقيق والثقة مثل الواقدى لا يقول لنا من أى كتبه أخذ الخبر !! .

مثال ذلك قوله : « قال محمد ـ يريد محمد بن عمر الواقدى . وحدثنى إبراهيم بن سالم عن أبيه عن يسر بن سعيد ، قال : وحدثنى عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة قال : دخلت على عثمان ـ رضى الله عنه ـ فتحدثت عنده ساعة ، فقال : يابن عياش ، تعال ! فأخذ بيدى فأسمعنى كلام مَنْ على باب عثمان، فسمعنا كلاماً ، منهم من يقول : ماذا تنتظرون به ؟ ومنهم من يقول : انظروا عسى أن يراجع ! فبينما أنا وهو واقفان إذ مر

طلحة بن عبيد الله ، فوقف فقال : أين ابن عديس ؟ فقيل : ها هو ذا ، قال : فجاء ابن عديس ، ففاجأه بشيء ، ثم رجع ابن عديس فقال لأصحابه : لا تتركوا أحداً يدخل على هذا الرجل ، ولا يخرج من عنده . قال : فقال لي عثمان : هذا ما أمر به طلحة بن عبيد الله ، ثم قال عثمان :

اللهم اكفني طلحة بن عبيد الله ، فإنه حمل على هؤلاء وألبهم ، والله إني لأرجو أن يكون منها صفراً ، وأن يسفك دمه ! إنه انتهك مني ما لا يحل له . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا في إحدى ثلاث : رجل كفر بعد إسلامه فيقتل ، أو رجل زنى بعد إحصانه فيرجم ، أو رجل قتل نفساً بغير نفس » .. ففيم أقتل ؟ .. (تاريخ الطبرى ٤ / ٣٧٨ ـ ٣٧٩) وهذا في الحقيقة خبر غريب جداً ـ خاصة وهو مروى عن الواقدى ، وأقل ما يدل عليه هو أن القضية لم تكن بين على وعثمان كما نظن ، وإنما هناك في الحق أناس آخرون . وأنا أسأل هنا ـ مجرد سؤال ـ : أتكون لهذا علاقة بخروج طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام من المدينة بعد بيعة على ، وذهابهما مع عائشة إلى البصرة ؟ وأنا ـ كما قلت ـ أسأل هنا مجرد سؤال؛ لأنني أعرف أن أحداً من المسلمين لا يطلب الحقيقة هنا ، وهي مسؤلة أيًا كانت ، وليس من واجب المؤرخ دائماً أن يعثر على الحقيقة ؛ لأن واجبه الأول هو عرض القضية بوضوح ، والقارئ يستنتج أو يحكم بعد ذلك بما يشاء . واتباعاً لهذا

المذهب واسترسالاً مع الخبر الذى سبق أن رويته أقول : إن الطبرى يروى عن الواقدى أنه سأل بعد بيعة طلحة والزبير- بعد بيعتهما لعلي ـ فقيل له : إنهما فى نفر من أصحابهما ، فقال علي : أما إنهم لن يدعوا (أى لن يلبثوا) أن يخرجوا يقولون : نطالب بدم عثمان ، والله يعلم إنهم قتلة عثمان . (٤ / ٤٤٠) (بالكلام والتحريض) وفى رواية أخرى يرويها الطبرى عن غير سيف بن عمر نجد الزبير فى حالة من عدم الثقة فى نفسه تدعو إلى العجب ، حتى إنه قال لابنه عبد الله : ما بى فى هذه الحرب بصيرة ، فقال له ابنه عبد الله : قد خرجت على بصيرة ، ولكنك رأيت رايات ابن أبى طالب وعرفت أن تحتها الموت فجبنت ! فأغضبه حتى أرعد وغضب وقال : ويحك ! إنى قد حلفت له ألا أقاتله . فقال له ابنه : كفر عن يمينك بعتق غلامك سرجس ، فأعتقه وقام فى الصف بينهم معهم ، وكان عليٌّ « قد قال للزبير: أتطلب منى دم عثمان وأنت قتلته ؟ سلط الله على أشدنا عليه اليوم ما يكره . وقال علي : يا طلحة ، جئت بعرس (أى امرأة) رسول الله ﷺ تقاتل بها وخبأت عرسك فى البيت ؟ أما بايعتنى ؟ قال : بايعتك وعلى عنقى اللج (أى السيف) ، فقال علي لأصحابه : أيكم يعرض عليهم (أى على الناس) المصحف وما فيه ، فإن قطعت يده أخذه بيده الأخرى .. (أى أن عليا ترك طلحة والزبير ومضى يبحث عن أنصار مخلصين) «الطبرى ٤ / ٥٠٩ » .

ومهما نقرأ في الطبرى أو نصر بن مزاحم المنقرى أو ابن الأثير فإننا لا نخرج إلا بانطباعات ثلاثة :

أولها : أن أحداً من خصوم علي ـ بما فيهم السيدة عائشة ـ لم يكن يعرف لماذا خرج على عليّ ؟ وماذا يريد منه ؟ .

ثانياً : أن عليا كان يعرف أنه الخليفة أمير المؤمنين ، وكان مصرّا على أن يقوم بمسئوليته كخليفة وأمير للمؤمنين وبطريقته المباشرة الصريحة التي خرج بها من صحبته لرسول الله ﷺ وتأمله لأعمال أبي بكر وعمر .

ثالثاً : أما قتلة عثمان فلم يكن أحد يعرف على وجه التحقيق من هم ؟ وكانت الأمة ترى أن كل أهل الشورى مسئولون عما وقع ، ولم يكن أحد إطلاقاً يرى أن عليا له يد في الموضوع ، وكان الرجل منذ بداية الاضطراب على عثمان قد التزم حياداً وبعداً عن الخليفة ، فهو لا يراه إلا إذا دعاه الخليفة أو اضطرته الظروف ، وكأنه كان يرى أن المشكلة نفسها في عثمان وإصراره العجيب على التمسك بالخلافة ، وزعمه أن الله قد أختاره لها وأن خروجه منها يعد مخالفةً لأمر الله ، ولم يخطر بباله أن الأمة التي ولته لها أيضاً الحق في أن تعزله ؛ لأنه ليس خليفة على نفسه بل على الأمة .

وهذا الوضع ـ فيما نحسب ـ هو الذى كان يخيف الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، لا لأنه كانت لهما يد في قتل عثمان،

بل لأنهما أثناء الفتنة تكلما كثيراً ، وقالا كلاماً كثيراً في حق عثمان ، وهذا الكلام كان له ـ دون شك ـ أثر في حماس الناس ضد عثمان ، وهما لم ينفردا بذلك ، بل فعل ذلك أيضاً عمرو بن العاص ، ولكن عمراً لم يكن في المدينة ، ومن ثم فقد قال في العقبة ومواضع أخرى كلاماً كثيراً سيئاً لعثمان ، وقد اعترف بذلك ، أما مطالبة الناس علياً بإخراج قتلة عثمان فمطالبة منطقية ؛ لأنه كان الخليفة ، وكان هو لا يعارض فيها ، بل يصر عليها ، ولكن موقف طلحة والزبير حيره حتى إنه شك في أن لهما يداً في موت عثمان كما رأينا ، وعندما خرجا إلى مكة وقالا: إنهما لا يبايعان علياً ؛ لأن بيعتهما صدرت وهما تحت الإرهاب ، وكانا أحراراً في أن يقولا ما يريدان ، ولكن لماذا يخرجان من المدينة إلى مكة ومنها إلى البصرة ، وهناك يطالبان بدم عثمان ؟ لقد كان لذلك التصرف أثره البعيد في زيادة حيرة الناس ، وقد أصبحت الحيرة فتنة عندما لحقت السيدة عائشة بطلحة والزبير ، وقالت : إنها تطالب بدم عثمان ، مع أنها لو قابلت علياً وطالبته بدم عثمان لكان أوقع ، ولكنها لم تكن تحب علياً منذ وقف منها الموقف المعروف في حادث الإفك ، وهي في غضبها على عليّ كانت ترى أن الزبير بن العوام ابن أختها كان أحق بالخلافة من عليّ ، وهو رأي لم يوافقها عليه أحد من المسلمين .

ولكن ما الذي جعل عائشة ـ رضي الله عنها ـ ترى هذا الرأي رغم ما نعرفه من رجاحة نظرها وعمق فهمها للأمور ؟

السبب ـ فيما أعتقد ـ أن أحداً لم يتنبه إلى أن الخلافة اختراع لأبي بكر وعمر ، وقد اخترعها أبو بكر ؛ لأنها كانت الحل المنطقي لمستقبل أمة الإسلام بعد موت الرسول ﷺ وكان عالم الإسلام ـ وأهل المدينة بصورة خاصة ـ قد اصيبوا بذهول عند موت رسولهم ﷺ ومن الخطأ أن نظن أنهم كانوا يرون أنه لا يموت ؛ فإن كل إنسان وكل مخلوق لابد أن يموت ، والقرآن قال مرة بعد أخرى ما معناه أن الرسول ﷺ بشر وأنه يموت كغيره .

ولكن مفاجأة الموت شلت أذهان الناس ، فوقعوا في حيرة كبرى ، وأبو بكر هو الوحيد الذى فكر في مستقبل الأمة ، وعندما تأكد من أن رسول الله ﷺ يموت ابتعد عن الأمة لكي يستطيع التفكير والتصرف ، وذهب إلى منازل زوجه وهم آل حارثة في حي السنح شمال شرقي المدينة ، وهناك فكر وتصرف في هدوء، وعاد وفي ذهنه فكرة الخلافة التي تتمشى تماماً مع روح الإسلام ، وعرف كيف يقنع الناس بها في مناقشة تقيفة بني ساعدة .

وخرج من الاجتماع وهو خليفة رسول الله ﷺ وحاكم أمة الإسلام ، وعلي بن أبي طالب ـ وكانت سنه إذ ذاك تصغر سن أبي بكر بثلاثين سنة ـ سلم بحق أبي بكر في الخلافة ، وفعل كل المسلمين فعله ؛ لأن أبا بكر كان قد تشرب فكر رسول الله ﷺ تماماً ، وأصبح في ذاته استمراراً لفكر الرسول ﷺ وتصرفه ،

وقد عرف كيف يواجه حركة الردة في حزم وشجاعة وسرعة ، وما من شك في أنه لولا أهل الردة وما رأى أبو بكر من ضرورة حربهم لأخذت خلافة أبي بكر صورة أخرى ؛ فإن الرجل لم يكن صاحب عنف ، ولكن مواجهة الخارجين اضطرته إلى أن ينشئ أداة عسكرية لمواجهة الردة ، وبعد أن نجح في مواجهة الردة نجد أن هذه القوة العسكرية التي كانت تحت يده قد غيرت من طبيعة حكمه فأصبح رجلاً ذا سلطان عسكري يخيف أعداءه .

وبدأ نظام الحكم يتحول إلى دولة بعد أن بدأت غنائم الحرب تتجمع في يد الخليفة . وعلى بن أبي طالب كان يرى أن يوزع الخمس - وهو نصيب الدولة - على المحاربين الذين قاموا بالفتح أولا فأولاً ، أما عمر فلم ير بأساً في توزيع الأموال ، أما الأراضي المفتوحة فقد رأى أن الحكومة - أى الهيئة الإدارية للأمة الإسلامية - ينبغي أن تحتفظ بها ويعود خراجها على أجيال الأمة ، ورأى أبو بكر أن توزيع الغنائم ينبغي أن يتم على أساس التساوى في الأنصبة بين المسلمين جميعاً ؛ لأن هذه أرزاق ، والتسوية فيها أسلم ، فلما جاء عمر غيَّر هذا النظام ، ورأى أنه لا يستطيع التسوية في الأنصبة بين قدماء المسلمين ، ومن لم يسلموا إلا مضطرين ، وقال : لا أرى أن أسوى بين من قاتل مع رسول الله ﷺ ومن قاتل ضده .

وكان يرى أيضاً أن يفضل آل رسول الله ﷺ على غيرهم في الأنصبة . وكان عمر يعيش في غاية من التقشف، ولكنه كان

حاسماً وشديداً في الحق ، وكان يخاف على الصحابة من الافتتان بالأموال الكثيرة التي صارت إليهم ، ومن افتتان الناس بهم . فحرم عليهم الهجرة من المدينة إلى الأمصار فثقل على رجال مثل عبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الله بن عباس ، وكان صريحاً في آرائه ، فعندما سئل عن السبب في عدم توليته عبد الله بن عباس الحكم في بعض الولايات قال : لا والله لا أستعمله ليستحل الفيء على التأويل . ولكنه أنشأ الدواوين ، أي سجلات المحاربين ؛ لكي يكون دقيقاً وعادلاً في تقسيم أموال الغنائم والفيوء عليهم ، وقام بدور المشرع أكثر من مرة : ففي عام الرمادة عندما اجتاحت المجاعة الحجاز استحل عدم معاقبة السارق للطعام ليأكل ، واستشار علياً في عقوبة الزاني وأخذ برأيه ، ودفع بالعرب في ميادين الفتوح ، وأنشأ الولايات ، ورسم للمسلمين بخلقه وتصرفه صورة لخليفة تكاد تكون مستحيلة التقليد ، وارتقع بمستوى المسلمين إلى درجة جعلتهم بالفعل خير أهل الأرض ، وعندما مات بعد اثنتي عشرة سنة من الحكم حزنت عليه الأمة حزناً بالغاً ، ولكن بعض الصحابة تنفسوا الصعداء وأحسوا أن الوقت قد جاء لكي يستمتعوا بما حرمهم منه عمر رضي الله عنه - واختار - وهو في سكرات الموت - ستة من الصحابة أهل الشورى ؛ ليختاروا خليفة من بينهم ، وجعل بينهم ابنه عبد الله بن عمر شاهداً لا مشاركاً في الرأي أو الخلافة .

ولا شك أن عبد الرحمن بن عوف عندما وجه جماعة الشورى نحو عثمان وأبعدها عن على بن أبى طالب كان يظن أنه يعرف ما سيجىء ، ولكن الأيام أرته أنه كان جد مخطئ حتى لقد سكت تماماً ولم نعد نسمع عنه .

ذلك أن عثمان بن عفان لم يكن في الغالب يحس أن الخلافة في أيامه أصبحت عبشمية ـ نسبة إلى بني عبد شمس ـ فأصبحت الولايات ومسئوليات الدولة الكبرى في يد رجال من بني عبد شمس وبني أمية ، والأموال كلها أصبحت في يدهم ، ولم يكن عليه بأس في ذلك ، فلم يكن هناك ما يحرم على الخليفة أن يختار الولاة وأصحاب الوظائف والمسئوليات من آل بيته ، وكان يرى أن ثقته في الرجل تكفي لضمان سلامة تصرفه ، وفاته أن الرجل كان من الممكن أن يكون على خلاف ما ظن ، وسارت الأمور مع ذلك سيراً طيباً ؛ لأن مغانم الدولة من الفتوح والفيوء كانت ضخمة ، وإيراد العرب المقاتلين كان وافراً، فلما وصلنا إلى منتصف ولايته وصلنا في الفتوح إلى بلاد الترك شرقاً والبربر في المغرب الأوسط غرباً . وهؤلاء قبائل ، وأولئك قبائل ، والمغانم من الجانبين كانت قليلة ، وهنا التفت المقاتلون العرب إلى العطاء أو الرزق ، وهو النصيب الدائم للرجل من إيراد الدولة .

ولما كان معظم المحاربين من عرب قد أسلموا في العام الثامن والتاسع وما بعدهما فإن عطاء الواحد منهم كان قليلاً ،

فاتجهوا إلى الدولة ، ودخلوا في محاولات مع الخليفة لتغيير نظام الدولة ونظامها المالي خاصة ، فلم يفهمهم عثمان ولا هو وافق على أن يترك الخلافة لغيره ، وقال : إنها شيء أعطاه الله إياه ، وهو - مهما حدث - لا يرفض عطاء الله ، وحاول على وأبو ذر وأبو موسى الأشعرى أن يثنوه عن رأيه دون جدوى ، فتركوه للجمهور يتصرف معه . وهنا نظن أن رجالاً مثل طلحة والزبير قالوا كلاماً كثيراً في مهاجمة عثمان ورجاله ، وأخيراً نجد نفراً من الجمهور الذين يسمونهم أنصار عثمان بالرعاع يقتلونه . وهنا - كما قلنا - تظهر شخصية عبد الله بن سبأ أو ابن السوداء ، وتلقى مسئولية الفتنة عليها ، ويضاف إليها رجال من أمثال خالد الخافقي ، وعبد الله بن أبي بكر ، وقتيرة وسودان الكوفيين ، فقتلوا عثمان ثم نهبوا ما وجدوه في بيت المال وفروا ، وكان ذلك في الغالب بعد ظهر يوم الجمعة ١٨ من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين . بعد ذلك بأسبوع تم انتخاب علي بن أبي طالب ، وقد أبى أن تكون بيعته في جماعة من الصحابة ، وأصر على أن تكون بيعته في المسجد ، فمضى إلى المسجد ، وهناك أعلنت بيعته ، ولم يتخلف عنها أحد أول الأمر .

وهنا كان تصرف على إسلامياً صرفاً .

وكان على عَلِيٍّ - وقد رأى ما وقع لعثمان - أن يكون أول ما ينظر فيه أن يجتمع مع الصحابة لوضع قواعد لتولي الخلافة .

وأهمها :

ـ أن يتقرر بصورة نهائية أن الأمة هى التى تختار الخليفة، وهى التى تعزله إذا لم ترضَ عنه .

ـ أن تحدد للخلافة مدة لا تتخطاها ـ خمس أو ست سنوات مثلاً ـ ثم يعود الأمر إلى الأمة ، فإما جددت البيعة أو اختارت خليفة جديداً .

ـ ما هى حدود سلطة الخليفة ؟ وهل هو يستطيع أن يحكم فى كل القضايا أو فى بعضها وينفذ أحكامه بنفسه ؟ وهل له أن يشرّع ؟ وكيف ؟ وإذا لم يكن فكيف يتم التشريع ؟ وهل لابد أن يوقع الخليفة على كل قانون حتى يكون نافذاً ؟

كيف يتم اختيار كبار الموظفين ؟ وكيف يكون تعيينهم ؟ وكيف تحدد رواتبهم ؟ وما هى وسائل الرقابة عليهم ؟

ـ هل تكون أموال الدولة بيد الخليفة أو لا بد أن يختار هو أو الناس مسئولاً عنها ؟ وأين تحفظ أموال الدولة ؟

ـ هل يمكن أن يكون فى أمة الإسلام أكثر من خليفة فى نفس الوقت ؟ وهل من الضرورى أن يبايع كل المسلمين لنفس الخليفة؟ وما الموقف ممن يرفض أن يبايع ؟

وهكذا . وهذه كلها مشاكل عرضت فى أيام رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر ، باستثناء مسألة مدة الحكم ، فهذه لم توجد أيام رسول الله ﷺ ؛ لأنه كان نبيّاً ورسولاً وإماماً للجماعة ، وكان القرآن الكريم عنده بحراً واسعاً يجد فيه القواعد كلها

بذكاء نادر وموهبة لا تصدق ، ولما جاء أبو بكر ثم عمر سارت الأمور دون مشاكل مستعصية على الحل . إنما جاءت المشكلة الكبرى أيام عثمان وهي مسألة الأموال ، وكذلك مدة الخلافة ، وحق الأمة فى اختيار الخليفة ، وتحديد مدة حكمه وسلطاته، وما إلى ذلك مما ذكرناه .

وهذا هو الذى جعل السنهورى يصفها بالخلافة الناقصة .

وكان ينبغي على عليّ أن يبدأ بذلك كله ؛ ليكمل اختراع أبى بكر ولا تجمد الخلافة كما جمدت في يد عثمان ، ولو فعل أحد ذلك لما وقعت الأمة في الحيرة التي أتينا بصورة منها ، وهذه كلها مسائل أساسية كان لابد من وضع قواعد لها حتى لا تتعرض الأمة لمشاكل من نوع مشكلة عثمان ، وهذه القواعد هي التي نسميها في مجموعها اليوم بالدستور ، وأنت ترى أن الدستور هو أهم شيء في نظامنا السياسي ولا مفر منه ، ونحن أنفسنا تعرضنا للخطر الأكبر الذى تتعرض له الأمم دون دستور ، وهو الوقوع بين براثن الحكم الملكي المستبد ، ومعاوية نفسه لم يكن أول الأمر يفكر في أن يكون خليفة ، ولو أن عليا تركه مكانه كما نصحه المغيرة بن شعبة لما فكر في طلب الخلافة ، ولكن عليا كان يرى أنه ليس أقل من أبى بكر أو عمر ، وهو ليس مضطراً إلى المداهنة ، وما دامت الأمة لا تريد ولاة عثمان فليذهب ولاة عثمان ، ولاشك في أنه ما كان ليدع قَتَلَةَ عثمان دون عقاب ، ولكن خوف طلحة والزبير وإنكارهما بيعتهما وهروبهما إلى البصرة غير رأيه .

الفصل السابع

كان لابد من وضع دستور لتنظيم تطبيق الخلافة

يظن بعض السادة القراء أن هذا الذى أكتبه تاريخ ، أى شيء مضى وانقضى ، ولكن الحقيقة أن المشاكل التى عرضناها مشاكل دائمة وحاضرة ، وهذا لا يمنعها من أن تكون تاريخاً ، فالتاريخ يشمل الزمان كله ؛ ولهذا فإننى أرجو القارئ أن يطيل باله علىَّ ويصبر معى ، فأنا هنا أعالج مسائل راهنة وحية وإذا لم يكن من الممكن العثور على أجوبة أو حلول لها ، فلا أقل من التفكير فيها ، والتفكير هنا إيجابى ونافع ، وهو أكثر فائدة من التفكير فى الفوازير مثلاً .

والتفكير هو الهدف الأساسى من هذه الفصول ، فالحق أن نوع حياتنا الذى نعيشه اليوم يصرفنا عن التفكير بشكل خطر، وليس فى الدنيا أخطر من العيش بدون تفكير . والتفكير له أصوله وقواعده ، فمن أصوله أن يقرأ الإنسان ، ونحن ـ مع الأسف ـ نكتب دون أن نقرأ ، فقد كتب السيد المستشار محمد سعيد العشماوى مقالاً طويلاً جدًا فى العدد ٦٥٤ من مجلة أكتوبر(بتاريخ ٧ من مايو ١٩٨٩) بعنوان « فقه الخلافة »

والمقال يشغل خمس صفحات كاملة من المجلة ، وهو تعليق على الترجمة العربية لرسالة الدكتور عبد الرزاق السنهوري عن الخلافة ، وهذه الرسالة ـ سواء في أصلها الفرنسي أو ترجمتها العربية ـ هي أضعف ما كتب السنهوري وأقله قيمة ، وهو نفسه كان يقول ذلك ، فقد كتبها متعجلاً ودون أن يقرأ الأصول وأصدرها بمناسبة صدور كتاب الشيخ علي عبد الرازق عن الخلافة .

وإذا كان هناك من يعرف السنهوري أيام صدور هذا الكتاب (فيما بين ١٩٣٥ و ١٩٤٠) فأعتقد أنه أنا ، فقد عملت أربعة شهور من تلك الفترة سكرتيراً للسنهوري ، وكان إذ ذاك عميداً لكلية الحقوق بجامعة القاهرة ، وكنت ـ عقب تخرجي في كلية الآداب سنة ١٩٣٤ـ لم أجد إلا عملاً يسمى فني مكتبة في مكتبة جامعة القاهرة ، وهو عمل أشبه بعمل الفراش ، فتركته وعملت مترجماً من الفرنسية إلى العربية في بنك للتسليف الزراعي،وكان إذ ذاك بنكاً دوليًا ، ثم أضيفت إليَّ سكرتارية مدير البنك محمود باشا شكري ، وقد فاتني أن أستقيل من عملي في مكتبة الجامعة قبل التحاقي بالعمل في البنك ، وأراد أستاذي عبد الحميد العبادي أن يستعيدني إلى الجامعة فكلم في شأني السيد عبد الرحيم مصطفى أمين عام الجامعة إذ ذاك ، فقال له : ليس لديَّ إلا سكرتارية الدكتور السنهوري ، وقبلت في الحال ، مع أن الفارق بين راتب البنك وراتب الجامعة كان

أربعة جنيهات ، وقد أسعدني العمل مع السنهوري ، فقد كان إذ ذاك عالماً شاباً ، ولكنه كان ماكينة عمل ، فكان يعمل في الصباح ويخرج بعد أن يقول لي : إنه سيعود إلى العمل في الثانية بعد الظهر ، فكنت أنتظر وكانت أرض الجامعة إذ ذلك مزارع ، وكان فيها مطعم لا يطبخ إلا الفاصوليا البيضاء يقدمها لي مع رغيف وخصاية ، وكنت أقضي نحو عشرين دقيقة في غسل الخص ، ثم آكله على مهل ، وفي تلك الأيام كنت أقرأ كتاب السنهوري هذا، فلما رآني قال لي : لا تقرأ هذا الكتاب ، ولم يكن بحاجة إلى أن يقول لي ذلك ، فقد كنت إذ ذاك أعد الماجستير ، والمراجع كلها تحت يدي ، وقد تبينت أن السنهوري كتب الكتاب دون أن يقرأ الأصول ، وضايقني ذلك جداً ، فتركت الكتاب ، وعندما قلت للسنهوري ذلك ونحن نسير من الجامعة إلى قلب القاهرة في المساء ـ ولا أنسى أبداً حذاءه من القماش الأبيض الذي كان يرتديه دائماً تلك الأيام ـ وقلت له : إنني تركت الكتاب ، أحسست أنه لم يعجبه أن أقول إنني تركته ؛ لأنه لم يعتمد فيه على الأصول اعتماداً كافياً ، بل هو اكتفى في القراءة عن الخلافة بما ورد في كتاب المختصر في تاريخ البشر لأبي الفدا ، وهو مختصر جدًا ، وعندما سأله الأستاذ الفرنسي : وأين دستور الخلافة ؟ قال له : القرآن وها هو ذا ، وقلب الأستاذ صفحات القرآن وقال له : يا بني ، هذا كتاب ! قال له : أجل ، هذا كتاب ، ولكنه يتضمن الدستور ، دستور كل شيء في الإسلام ، قال له

الأستاذ : إذن فاستخرج منه ما يخص الخلافة وهذا يكفيك ، وانتظر أياماً فلم يأته السنهوري بشيء فقال له : هذا إسلام وأنت حر فيما تقول ، وأنت دكتور على أي حال ، فإن أردت دكتوراه على هذا الكتاب أعطيناك ، فهذا اللقب الثاني لا يقدم ولا يؤخر ، ولكن لا تقل لي : إن القرآن كله هو دستور الخلافة .

ثم يجيء المستشار محمد سعيد العشماوي ويكتب عما يسميه فقه الخلافة ، وقد تكلم الفقهاء عن الخلافة ، ولكنهم لم يضعوا للخلافة فقهاً ؛ ومن ثم فليس هناك ما يمكن أن يسمى فقه الخلافة .

وإذن فهذا الكلام كله لا معنى له ، فإذا عرفنا أن المقال كله تعليق على الترجمة العربية لكتاب الخلافة للسنهوري عرفنا أنه لا معنى له أكثر وأكثر .

وأعم عبارة في كتاب الخلافة للسنهوري هي التي وردت في ص ٥٩ و ٦٠ من الترجمة العربية ، وقد أوردها السيد المستشار محمد سعيد العشماوي في مقاله ، وهي : « إن مسائل القانون العام لم تحظ من الفقهاء المسلمين بنفس العناية التي بذلوها لمسائل القانون الخاص ، وإن القواعد المنظمة لحريات الأفراد وحقوقهم العامة تناولتها كتب الفقه الإسلامي بطريقة استطرادية ، دون أن تضع لها نظريات عامة تناسب أهميتها العملية ، ودراستها تحتاج إلى بحوث ومؤلفات خاصة تدخل في نظام سلطة التشريع . انتهى كلام السيد المستشار ، وهذا هو

الذى قلته في الفصل الماضي ، ومع ذلك فإن سيادة المستشار يكتب هذا كله عما يسميه فقه الخلافة بدلاً من أن يستخدم تخصصه في القانون في البحث عن حقوق الأفراد وواجباتهم في الإسلام ، وهذا ما كان يمكن أن نسميه فقه الخلافة . فإذا كانت المسألة ، هي أن يكتب السيد المستشار أى كلام ويسميه أى تسمية فهو حر في أن يفعل ما يريد ، ولكننا نحن أيضاً أحرار في أن نقول : إن مثل هذا الكلام كله لا شيء ، والغريب أن السيد المستشار ينتقد كتاب السنهوري ، ويقول : ومع أن الكتاب والبحث والرسالة هي عن الخلافة الإسلامية فقد خلت من التعريف العلمي لها ، وبذلك تركت الموضوع بلا تحديد ، والدراسة بلا تعريف . والسياسة بلا عنوان ، والخلافة بغير بيان ،

وفي الإشارة إلى تعريف أورد السنهورى تعريفاً للخلافة للتفتازاني (صعود ابن عمر) ويقول السيد المستشار في أسلوبه العربي الركيك : إنه من خير فقهاء الدرجة الأولى بأنها ـ أى الخلافة ـ رئاسة عامة في أمر الدين والدنيا ، خلافة عن النبي ﷺ (ص ٨٣ من ترجمة كتاب السنهورى) كما أشار إلى رأى التفتازاني كذلك في كتاب تقريب المرام شرح تهذيب الكلام « إن الخليفة يمثل الله ويمثل الأمة في الوقت نفسه (ص٧٢ هامش ٣ من ترجمة كتاب السنهورى في الغالب) ونظراً لأن الدكتور السنهورى لم يذكر تعريفه هو للخلافة ، ولا أبدى

الرأى فى تعريفى التفتازانى ، بل إنه كررهما وألح عليهما وقال: فإن مفاد ذلك أنه وإن لم يثبتهما فإنه لا يستنكرهما .

وهذان التعريفان خاطئان ، وهما يكدسان فكرة خلافة الله أو الحق الإلهى المقدس للملوك والخلفاء ، وأبو بكر الصديق نفسه ـ أول خليفة فى الخلافة الكاملة ـ (على رأى الدكتور السنهورى) أنكر أنه خليفة النبى ، وقال : إنما أنا خَالِفَتهُ (أى تلاه فى الزمن) ولست خليفته (أى الذى حل محله وأخذ مكانه وعليه التزاماته) هذا فضلاً عن أنه لم يبدر عن أحد من الخلفاء الراشدين ما يفيد أنه يمثل الله أبداً فيما عدا قولة لعثمان بن عفان عندما أرادوا خلعه من الخلافة قال فيها : إنه « خليفة الله» وهو تعبير قُصِدَ به إلى المجاز ، ولم يرم إلى الحقيقة ، وقد فهمها الناس فى وقته على المعنى المجازى الذى يفيد نسبة كل شىء إلى الله ، كأن يقال : أرض الله ، ومال الله ، وبيت الله ، وهكذا . دون أن يفيد معنى الحق الإلهى المقدس فى الحكم .

وهذا كله كلام غير دقيق ، فقد رأينا أن عثمان لم يقل قط : إنه خليفة الله ، وإنما قال : إن الله أعطاه الخلافة ، فهى على ذلك عطية من الله ، وعطية الله لا يردها المخلوق ، ثم كيف يشبه خليفة الله بمال الله ، وأرض الله ، وبيت الله ، وهذه كلها جمادات لا تتصرف ، فى حين أن الخليفة حاكم حى يتصرف وله سلطان ؟

ومقال السيد المستشار كله على هذا النحو تعليق غير دقيق على ترجمة غير دقيقة لكتاب غير دقيق ؛ ومن ثم فإننا لا نخرج منه بشيء ، ومن هنا فإننا ندع هذا المقال وكتاب السنهورى ونعود إلى ما كنا فيه من قراءة المراجع ومحاولة استخراج الحقائق منها ، وليس غرضنا فى الحقيقة هو أن يعرف القارئ حقيقة ما جرى لعثمان وما حدث بعد موته ، وإنما المراد هو أن يعرف كيف يفكر المسلم فى كل ما يجرى أمام عينيه ، فالمفاتيح ـ كما قلنا مرة بعد أخرى ـ ليس هو الماضى فقط ، بل هو الزمان كله .

وقبل أن أترك مقال السيد المستشار أذكر لك عبارة عجيبة تدلك على ما فيه من خواء وفراغ ، قال : « ومما يناقض هذا الاتجاه فى التسوية بين الخلافة والحكومة أن الترجمة ـ يقصد ترجمة كتاب السنهورى عن الخلافة إلى العربية ـ أشارت فى أكثر من « وضع » ـ يريد موضعاً ـ أن الخلافة عند السنهورى ليست دولة ولا نظام حكم ، إنها مبدأ وحدة الأمة (ص١٧ من الترجمة) فكيف ينحل مبدأ وحدة الأمة إلى مجرد شروط غير قابلة للتحقيق للوزراء والمدراء حتى لو كانوا منفذين لشيء أو أمر لا مفوضين بالتصرف ؟ وكيف يسوغ أن تكون شروط الرياسة العامة شروطاً لأى موظف محلى أو أى عامل إدارى ؟ وما هى الفوارق ؟ وما دواعيها ؟

وهذا كلام يدل على انعدام الفهم للموضوع كله ، وقد قلنا :

إن الخلافة اختراع مثل اكتشاف نيوتن للجاذبية الأرضية ، وكان لابد من وضع القوانين للجاذبية وما يتصل بها حتى يكون لها هذا الدور العظيم في تاريخ الحضارة البشرية ، وكان لابد كذلك من وضع القوانين المنظمة للخلافة ـ كما قلنا ـ حتى لا تظل مجرد كلمة ، والخلافة أيام أبى بكر كانت أبا بكر نفسه ، وفى أيام عمر كان عمر . والمسلمون جميعاً كانوا راضين عن أبى بكر وعمر ، فلما جاء عثمان أصبحت الخلافة عثمان ، والأمة لم ترض عن عثمان ، وقالت له ذلك ، فاما كبار الصحابة ـ وعلى رأسهم على بن أبى طالب ـ فنصحوه بالتخلى عن العثمانية أو الأموية ، ولكنه زعم أن الله سبحانه وتعالى اختاره ـ كما هو ـ للخلافة ، وقال : إنها قميص ألبسه الله إياه ، وهو لن يغير من نفسه أو من القميص ، ولن يذهب ، والأمر انتهى بمقتله ، وأحياناً يسأل الإنسان نفسه :

وهل كان من الممكن أن يكون هناك حل آخر ما دامت المناقشة أصبحت في النهاية بين من يسمونهم بالغوغاء ، وخليفة كان يحكم لصالح غوغاء بنى أمية ؟

والآن فلنفرض أن الفقهاء كانوا قد وضعوا للخلافة القواعد التي ذكرناها : تحديد المدة ليعود الأمر إلى الأمة كل خمس أو ست سنوات ، فإما جددت ، وإما لم تجدد ، وتحديد مدى السلطة فلا يكون للخليفة الحق في أن يحاكم مواطناً مسلماً ويحكم عليه بما يريد ، بل تكون هناك هيئة قضائية هى التى تتولى

ذلك، وكذلك تحديد مدى سلطان الخليفة على أموال الأمة ، فلا يتصرف فيها على هواه ، ثم هل يجوز أن يكون فى عالم الإسلام أكثر من خليفة في الوقت نفسه ؟ وماذا يكون العمل مع رجل - أو جماعة - ترفض البيعة ؟ وإذا نحن عدنا إلى أيام الرسول - صلوات الله عليه - وجدنا الإجابة عن هذه الأسئلة كلها .

فهو بشر ورسول وإمام للأمة ، وهذه أصول لا يملك خلالها الرسول شيئاً ، فهذه إرادة الله الذى خلقه وأعده ؛ لكى يكون نبياً ورسولاً وإماماً ، ولكن الرسول لم يكن يتدخل فى أمور الدنيا إلا على سبيل الاجتهاد ، وكان مستعدًا دائماً للتخلى عن رأيه في هذه المسائل إذا هي لم تعجب الأمة ، وهو هنا لم يكن حاكم بالمعنى الذى رآه عثمان ، ثم إن رسول الله لم يجد بأساً فى ا يوجد فى الأمة ملك على ناحية من النواحى مادام هذا الملك وهو الجلندى وأخوه صاحبا عمان - سائرين على أصو الإسلام مؤديين للصدقات ، ومادام الناس راضين عنهما .

أما الأموال فلم يكن في يد رسول الله منها شيء إلا الضروري الذى تمس إليه حاجاته وحاجات أهله ، وهنا نجد أن رسول الله ﷺ كان طبيعياً جدًا وبعيداً عن التكلف . فقد كان يأكل ما حضر ، فإذا لم يجد إلا الخل والزيت أكل الخل والزيت شاكراً لله ، وإذا وجد لحماً نهش منه فى لذة حتى يشبع ويشكر الله ، ولا معنى - إذن - للقول بأن رسول الله ﷺ خرج من الدني ولم يشبع من خبز الشعير زهداً فيه . حقاً إنه كان مستعدً للزهد فيه ، ولكن الواقع أن خبز الشعير كان موجوداً دائماً .

إن محمداً ﷺ كان رجلاً متنقلاً ، فهو فى خدمة الرسالة أولا وقبل كل شيء ، فهو هنا اليوم ، وهناك غداً ، فلماذا يأمر نساءه بأن يطبخن أى طعام ؟

ثم إن رسول الله كان حريصاً على ألا يضع قواعد للحكم؛ لكيلا يقيد حرية المسلمين من بعده . فماذا فعل مثلاً مع الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج معه للغزو فى غزوة تبوك ، وهم مستطيعون ؟ هل أودعهم السجن ؟ بلى ، ولكن أى سجن ! لقد خاصمهم وأمر الناس أن يخاصموهم ، فامتنع الناس من الكلام معهم ، حتى نساؤهم لم يسمحن لهم باقتراب منهن ، فأصبحوا طلقاء سجناء . وهذا أقسى السجن وأشده ألماً ؛ لأن المسجون لا يعدم إنساناً يعطف عليه ويهمس في أذنه : لا بأس عليك ! سوف تنتهي هذه المدة وتعود إلى الحرية ! ولكن هؤلاء المخالفين حرموا حتى من هذه الكلمة أو أمثالها ، فأصبحوا في أقسى سجن في الدنيا حتى كادوا يجنون ، وعندما انتهت مدة العقوبة التي قررها الله ـ سبحانه ـ ونزل العفو عنهم على رسول الله لم يصدقوا الخبر إلا عندما سمعوه من رسول الله ﷺ.

وماذا فعل رسول الله بأبي لبابة بن عبد المنذر الذى خالف أمر رسول الله وأشار بيده وهو يتحدث إلى بني قريظة إشارة يفهم منها أن الرسول قاتلهم إذا لم يستسلموا له ؟ ولم يكن رسول الله قد ذكر من ذلك شيئاً ، فلما تبين خطاه ذهب فربط نفسه فى أحد أعمدة المسجد ـ وكانت كلها نخلاً ـ وأصر على أن

يبقى هكذا حتى يغفر له الرسول ، ومع أن الرسول ﷺ قال : أما لو جاءني فاستغفرت له ، فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه ، فلما تاب الله عليه وأبلغ رسول الله بذلك كان أبو لبابة مقيداً تجاه باب بيت أم سلمة أم المؤمنين ، فاستأذنت رسول الله في أن تبشره ، فأذن لها ، وسار الناس إليه ليطلقوه ، فقال : لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده . فلما مر رسول الله ﷺ عليه خارجاً إلى الصبح أطلقه . فانظر كيف كان رسول الله يعاقب الناس أو قل يترك الناس ليعاقبوا أنفسهم ، ويظلوا كذلك حتى يكون الله هو الذى يتوب عليهم ، ويصر الناس برغم ذلك حتى يكون تنفيذ التوبة على يد الرسول ﷺ .

وطبعاً ، لم يكن أحد بعد رسول الله يستطيع أن يفعل ذلك ، ولكن الذى يستوقف نظرنا هو الأسلوب الإنسانى الرفيع الذى كان الرسول يتبعه . وهذا ما كان الناس يستطيعون اتباعه فيه . أما أن يأمر معاوية بقتل حجر بن عدى لمجرد أنه كان يرفض أن يسمع لعن على بن أبى طالب من على المنبر فتلك كانت مخالفة لروح الإسلام . وهنا كان ينبغى أن يتدخل الفقهاء ويضعوا القواعد التى تحدد ـ بالقانون ـ سلطان الخليفة ، أما أن يقال : إن مالك بن أنس قال : إن طلاق المكره لا يقع ؛ لأنه مكره ، ويطبق ذلك على بيعة معاوية فليس هذا بتشريع ، وأمثال هذه العبارات هى التى جعلت الناس يقولون : إن مالكاً

قال : إنه يجوز للخليفة أن يقتل ثلث الأمة لينقذ الثلث ! وأمثال هذه الأحكام غير الصحيحة هى التى جعلت أنكد آل عثمان وهو السلطان سليم الأول ياووظ يتولى الخلافة بعد أن قتل أباه وأخا حميه وكل إخوته ، لقد قتل هذا الرجل صدره الأعظم فى دقيقة لكلمة حق قالها . ثم يقولون لنا : آه لو عاش هذا الرجل فوق الأربعين لفتح إنجلترا ! ونحن نقول : لا والله ما نتمنى لو فتحنا إنجلترا على يد هذا الدموى ؛ لأن الأمر فى هذه الحالة ما كان ليكون فتحا بل حمام دم ، والإسلام لا يعرف حمامات الدم .
إن الأتقياء يقولون : إن الله سلط على هذا الرجل ـ سليم الأول ـ أبشع مرض في الدنيا حتى كان لحم ظهره يسقط قطعاً حتى مات ، وخلفه ابنه سليمان المسمي بالقانونى ، وكان هو الآخر هباباً برغم سمعته ، فقد أنزل بنا كوارث ، ويكفي أن نذكر أنه تولى بعد هزيمة ليبانتو بسنوات ، وهزيمة ليبانتو وقعت لأن سفن الأسطول العثماني كانت شراعية تقاتل سفن أوربا التى كانت تسير بالبخار ، وأبسط ما كان هذا الرجل يستطيع أن يفعله هو أن يبعث رجالاً يدرسون حكاية البخار هذه ويدخلها فى تركيا ، أما أن يقول أحد مؤرخى الأتراك : إن الذى هزم الإسلام فى معركة ليبانتو كان البخار لا الأوربيون فدفاع تافه وغير مقبول .



الفصل الثامن

علينا أن ننبه القراء إلى ضرورة البحث عن حقائق الأمور

أعتقد أن ما قلته إلى الآن عن النصوص الأولى لفتنة عثمان فيه كفاية ، فأنا لم أشأ أن أحقق هذا الحادث أو أبحث عن الحقيقة فيه ، وإنما أردت أن أقول للقارئ : إننا ـ مع الأسف الشديد ـ لا نقرأ القراءة الكافية قبل أن نكتب . وبين يدى الآن كتاب اسمه « الحسين بن على » تأليف توفيق أبو علم ، والكتاب صغير ولكن كله نُقُولٌ ، وهذه هى الطبعة الثالثة ؛ لأن مثل هذا الكتاب يباع بسهولة تامة ؛ فإن الناس كلهم يحبون الحسين ـ رضى الله تعالى عنه ـ لأن يزيد الأموى أمر بقتله فقتل ، ولكن لا المؤلف ولا غيره سأل نفسه : ولماذا قتل الحسين ؟ والجواب : لأنه اتجه إلى العراق لطلب الخلافة .

ثم نسأل : وبأى حق طالب بالخلافة ؟ إنه كان حقاً شاباً نقياً عاقلاً هادئاً ، ولكن أكان له الحق فى طلب الخلافة ؟ يقولون : أجل ، كان له الحق ، ونسأل : ولماذا ؟ والجواب : لأنه

ابن علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ ونسأل : وهل هذا كان يكفي لترشيحه للخلافة ؟ يجيبون : نعم ، ولم لا ؟ ألم يكن يزيد بن معاوية خليفة ، وطبعاً الحسين خير منه ؟ والسؤال : لماذا ؟ والجواب الذى يجرى على كل لسان : لأنه كان أفضل من يزيد ، وهذا حق ، ولكن هل هذا يكفي لكي يكون خليفة ؟ والجواب الذى أجيبه أنا ولن تجده في كتاب الأستاذ توفيق أبو علم : لا .. هذا لا يكفي .. وأنا أقول ذلك لأنني أقرأ النصوص فلا أجد فيها دليلاً واحداً على أن الحسين ـ رضي الله عنه ـ كان من الممكن أن يكون خليفة قويًا وقادراً على القيام بمسئوليات الخلافة .

والكتاب الذى أحدثك عنه كله كلام جميل أو ما نسميه نحن « إنشاء » ، فأنت تقرأ فيه مثلاً أن رسول الله ﷺ عندما أخذ الحسين بين يديه لأول ولادته أذن في أذنه ، وتعليقاً على ذلك يقول الأستاذ توفيق أبو علم : أرسل رسول الله ﷺ في ضمير الفتى هذا النداء ؛ ليظل أنشودة نفسه اللاشعورية ، وبذلك أقام في نفسه معبداً ينبض بأحاسيس التقوى ، وفى ضميره شعوراً يفيض بأحاسيس الفضيلة ، ثم لا نختلف عليه ، كما أقام فى نفسه إذ أرسل هذه الكلمة (الأذان) الهادئة مشعلاً يضيء عليه، فلا تخالطه ظلامية أو دجنة فى سبيل حياته المطمئنة ..

وهذا كلام لطيف ، ولكنه غير بليغ ؛ لأن البلاغة هي مطابقة الكلام للمعنى المطلوب ، وليس هنا معنى مطلوب ، أو إننا نحن

لا نعرف أى معنى مطلوب هنا ، والذى يقرأ هذا الكلام يقرؤه محبة فى الحسين لا لكى يفهم شيئاً .

وإذا أردت الحق - ونحن نبحث هنا عن الحق - فهذا ... يا سيدى كلام فارغ ؛ لأن الكلام الفارغ هو الكلام الذى لا يتكون إلا من ألفاظ خالية من المعنى أو الفائدة .

واقرأ السطور التالية ، وقل لى إن كنت تجد لها وصفاً غير أنها كلام فارغ !! فى تاريخ البلاذرى عن محمد بن يزيد المبرد النحوى بسنده قال : انصرف النبى ﷺ إلى منزل فاطمة فرآها قائمة خلف بابها ، فقال : ما بال حبيبتى ها هنا ؟ فقالت : إن ابنيك خرجا غُدوة وقد غم عليَّ قبرهما ، فمضى رسول الله ﷺ يقفو آثارهما حتى صار إلى كهف جبل فوجدهما نائمين وحية مطوقة عند رأسيهما ، فأخذ حجراً وأهوى إليها ، فقالت : السلام عليك يا رسول الله ، والله ما نمت عند رأسيهما إلا حراسة لهما ! فدعا لها بخير ، ثم حمل الحسين على كتفه اليمنى والحسن على كتفه اليسرى ، فنزل جبرائيل فأخذ الحسين ، فكانا بعد ذلك يفتخران فيقول الحسن : حملنى خير أهل الأرض ، ويقول الحسين : حملنى خير أهل السماء ، وفى ذلك يقول حسان بن ثابت .

فجاء وقد ركبا عاتقيه ... فنعم المطية والراكبان

(ص٢٧ من الكتاب) .

وقل لي : بماذا تخرج من هذا الخبر ؟

لا شيء ، بل إنه لا يصدق حتى بيت الشعر في نهاية الخبر ليس شعراً البتة .

وأحب أن أقول للسيد توفيق أبو علم : لا يضايقك أن أقول : إن كتابك عن الحسين كلام فارغ ، فمعظم ما تقرأ من الكتب عن الحسين وأخيه الحسن كلام فارغ ، و(برافو) عليك أن استطعت أن تطبع هذا الكلام الفارغ ثلاث مرات ، وكفى إلى هنا عن عثمان وعلي والحسن والحسين .

وننتقل إلى موضوع آخر من موضوعات التاريخ الإسلامي الحافلة بما يسيء إلينا ، ولابد من أن نفتح عيوننا عندما نقرؤها ؛ لأن المسألة هنا ليست مسألة الخطأ أو الكذب في الخبر، بل إن هذه الأخبار تضر بعقولنا ؛ لأننا تعودنا قراءة الأخبار والحكايات الكاذبة الفارغة وقبولها ، مما يؤدي بعقولنا في النهاية إلى الهيافة والهشاشة ، ويعطي القارئ فكرة سيئة عن الإسلام والمسلمين .

يقول الفخري في كتاب الآداب السلطانية متحدثاً عن الوليد ابن يزيد بن عبد الملك بن مروان عاشر خلفاء بني أمية (١٢٦هـ / ٧٤٣م) : وقد بلغ من استهتار الوليد بالمعاصي أن قال له أخوه هشام يوماً : والله لا أدري إن كنت على الإسلام أم لا . مما

يحكي عن الوليد أنه استفتح فالا في المصحف فخرج ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ (إبراهيم ـ الآية : ١٥) .

فالقاه وجعله هدفاً وأخذ يرشقه بسهامه وهو يقول :

تهـددني بجـبـار عنيـد	نعـم أنا ذاك جـبـارٌ عنيـدُ
إذا مـا جـئتَ رَبَّـك يومَ بَعْثٍ	فـقـلْ : يارب ، خَـرَّقني الوليـدُ

(الفخري : الآداب السلطانية ، ص ١٢١ ـ ١٢٢)

وأنا أقـول : من الممكن أن يكون هناك خليـفة مسـتـهتـر أو جرىء أو وقح أو سكيـر أو ما شئت ، أما أن يكون هناك خليـفة كافر فمن المستحيل !

ومن المستـحيل علينا أن نقبل هذا الخبـر ؛ لأنه ليس إساءة إلى الوليد بن يزيد فحسب ، بل إهانـة لعقولنا أيضـاً . ومهـما كانت كراهية الواحد منا لبني أمية فإن الأمر ينبغي ألا يصل بنا إلى احتـقار عقـولنا وإهانة أنفسنا ، وعند طـبع كتاب الفـخرى ينبـغي أن ننبـه الـقـارئ في الهـامش إلى أن مـثل هذا الخـبـر مستحيل وغير مقبول .

وبمناسبـة تعيين عبـد الملك بن مروان للحـجاج بن يوسف الثقفي يقـول اليعقوبي (جـ٢ ص ٢٧٣) : كتب إليـه عبد الملك كـتاباً بخطه يقـول : يا حـجاج ، فـقد وليـتك العـراقين صدقـة (العراقـان هما العـراق وفارس) فإذا أتيت الكوفـة فطأها وطأة

يتضاءل منها أهل البصرة ، وإياك هويني الحجاز ؛ فإن القائل هناك يقول ألفاً ولا يقطع بهن حرفاً ، وقد رميت الغرض الأقصى فارمه بنفسك وأرد ما أردته بك والسلام ، (يريد منه أن يكون عنيفاً مع أهل العراق ولينا مع أهل الحجاز ؛ لأن أهل الحجاز يتكلمون كثيراً ولا يعملون شيئاً . وقد رميت العراق بأكبر ما عندى ـ وهو أنت ـ فارمه بنفسك وحقق لى ما أريد) .

ويستمر اليعقوبي في رواية الخبر فيقول : فلما قدم الكوفة صعد المنبر متلثماً بعمامته متنكباً قوسه وكنانته . فجلس على المنبر مليا لا يتكلم حتى هموا أن يحصبوه ، ثم قال : « يا أهل العراق ! يا أهل الشقاق والنفاق والمراق ومساوئ الأخلاق ! إن أمير المؤمنين فتل كنانته ، فعجمها عودا عودا ، فوجدني أمرّها عوداً وأصلبها مكسراً ، فرماكم بي ، وإنه قلدني عليكم سوطاً وسيفاً ، فسقط السوط ، وبقي السيف » وتكلم بكلام فيه توعد وتهديد ، ثم نزل وهو يقول :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ۞ متى أضع العمامة تعرفوني

والخبر مشهور جدًا ووارد في كل كتبنا ، وبعضهم يزيد عليه تفاصيل غير معقولة ، فيقول ابن قتيبة الدينورى في كتاب الإمامة والسياسة (جـ٢ ص ٢٥ ـ ٢٦) : إنه بعد أن قال الحجاج هذا الكلام حصبه الناس ، فلما أكثروا عليه خلع عمامته فوضعها على ركبته ، فجعلت السيوف تبرى الرقاب ، فلما سمع

الخارجون الكائنون على الأبواب وقيعة الداخلين ورأوا تسارع الناس إلى الخروج تلقوهم بالسيوف .

فَرَوَّعُوا الناس إلى جوف المسجد (أخذوا فى الفرار وتعقبهم الجند) ولم يتركوا خارجاً يخرج ، فقتل منهم بضعة وسبعون ألفاً حتى سالت الدماء إلى باب المسجد وإلى السكك .

والخبر مشهور جدًا حتى لا تكاد تجد من يشكك فيه ، وعندما تقرؤه عند الطبرى مثلاً فإنك تجده يقع هناك فى صفحات .

ولكننا نقول : إن صلب الخبر معقول ، أما التفاصيل فلا ؛ فالحجاج هدد أهل الكوفة ، وهذا معقول . أما أن يقول لهم إنكم أهل الشقاق والنفاق والمراق وسوء الأخلاق ، فصدقنى : إننا نحن الذين نعرف الحجاج نستبعد ذلك .

فقد كان الحجاج في حقيقة أمره رجلاً مسلماً مؤمناً ولا يمكن أن يصدر عنه هذا الكلام فى مخاطبة ناس كان عليه الآن أولاً أن يستدرجهم وأن يهدئ خواطرهم ، فهؤلاء ليسوا كفرة ولا أعداء الإسلام ، إنما هم ناس لا نرضيهم سياسة بنى أمية ، فالمطلوب - إذن - هو إفهامهم سياسة بنى أمية أولاً والتقرب إليهم ، أما القول بأن الحجاج قتل منهم فوق السبعين ألفاً فكلام غير مقبول ، وأين هو المسجد الذى يسع سبعين ألفاً ؟

لقد كان الحجاج رجل دولة ، أى رجلاً يخدم الدولة ، وكان المطلوب منه أن يسترضى أهل الكوفة لا أن ينزل بهم مذبحة ،

ثم إن الحجاج كان - رغم ما يقال لك - رجلاً تقيّاً له دور في تدوين المصاحف ، وكان رجلاً معمراً هو الذي بنى مدينة واسط ، وهناك أخبار تدل على أنه كان رجلاً لطيفاً إذا لم يكن هناك ما يدعو إلى الغضب ، وهو لم يكن مجرد رجل قاس يريق الدماء كالمجنون ، بل كان رجل سياسة ، وله أثر كبير ودور عظيم في حرب الترك ونشر الإسلام ، وكان رجلاً مصلياً صائماً مزكياً ، ولكنه - كما قلت لك - رجل دولة لا يتساهل مع الخارجين على الدولة ، ولم يكن كل الذين حضروا في المسجد خارجين على بني أمية ، بل كان فيهم ناس كثيرون بعيدون عن السياسة مثلي ومثلك وقد أتوا للصلاة ، فما معنى قتلهم ؟

أساس الخبر إذن سليم ، أما التفاصيل فهي في كل كتاب على صورة ، وكل ما يرمي إليه المؤرخون هو تشويه سمعة بني أمية ، ونحن اليوم لا نريد تشويه سمعة بني أمية ، بل نحن نريد الحقائق ؛ فإن بني أمية لم يكونوا بالسوء الذى نتصوره ، وهل يمكن أن يكون عبد الملك بن مروان بن الحكم رجلاً شريراً ثم يفتح تلك الفتوح كلها ؟ لقد كان يحارب الخارجين عليه الذين كانوا يريدون قتله والحلول في الخلافة محله مثل عبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير والمختار بن عبيد الثقفي ، ولم يكن فيهم في الحق من يساويه ، وإذا كان قد أقام الحجاج على العراق ، فهو لم يقمه ليسفك الدماء بل ليهدئ الأحوال ، ويرد الناس إلى العقل ، وهو - من غير شك - كان

أصلح للخلافة من عبد الله بن الزبير الذى كان بخيلاً قصير النظر ، وفى يوم من الأيام دخلت فى طاعته مصر والعراق واليمن إلى جانب الحجاز ، ولم يبق مع عبد الملك إلا الشام ثم مصر ، وإذا كان قد انتصر في النهاية فلأنه كان أفضل وأقدر وأحكم من غيره ؛ ولذلك كان ابنه الوليد بن عبد الملك قد أتم فتح المغرب وفتح الأندلس ، وأقام قتيبة بن مسلم على خراسان ، ففتح بلاد ما وراء النهر ، وقام بأربع حملات تعد من مفاخر تاريخنا الإسلامي . وأقام محمد بن القاسم على الهند ، فما معنى الحملة عليه وإنكار فضله للعداء الذي كان بينه وبين منافسيه السياسيين من العلويين . وماذا كنا نطلب منه ؟ أن يتنازل عن الخلافة لخصومه ؟ وهل كان هؤلاء الخصوم أحسن منه ؟

وتحت عنوان « مثالب بني أمية » يقول المقريزى فى كتاب « النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم » (تحقيق كاتب هذا المقال ونشر دار المعارف ١٩٨٩ فى ص ٣٧ وما بعدها) : فقد عرفنا كيف كان أبو سفيان في عداوته للنبى ﷺ وفى محاربته وفى إجلابه عليه وفى غزوه إياه ، وعرفنا إسلامه كيف أسلم وخلاصته كيف خلص ، على أنه أسلم على يد العباس (وقد أثبتنا أن ذلك غير صحيح) والعباس هو الذى منع الناس من قتله وجاء به رديفا (أى خلفه على الدابة) إلى النبي ﷺ وسأله أن يشرفه ويكرمه وينوه به ، وتلك يد بيضاء ، ونعمة غراء ، ومقام مشهور ، وخير غير منكور ، فكان

جزاء ذلك من بنيه أن حاربوا عليا ، وسموا الحسن ، وقتلوا الحسين ، وحملوا النساء على الأقتاب (أى نساء بيت الرسول ﷺ والأقتاب جمع قتب ، والقتب الرحل الصغير على قدر سنام البعير ، حواسر ، والحاسرة من النساء هي من ألقت عنها ثيابها ، وهي المكشوفة الرأس والذراعين) وكشفوا عورة على ابن الحسين حين أشكل عليهم بلوغه ، كما يصنع بذرارى المشركين إذا دخلت ديارهم عنوة ، وبعث معاوية بن أبى سفيان إلى اليمن بُسر بن أبى أرطاة (وكان من كبار أعداء بنى هاشم وأنصار بنى أمية) فقتل ابنى عبيد الله بن العباس ، وهما غلامان لم يبلغا الحلم ، فقالت أمهما عائشة بنت عبد الله بن عبد المدان ترثيهما :

يا من أحس بُنَيَّيَّ اللذين هما	كالدرتين تشظى عنهما الصدف
أنحى على ودجى طِفْلَىَّ مرهفة	مطرورة وعظيم الإثم يقترف

وقتلوا لصلب على بن أبى طالب ولصلب عقيل بن أبى طالب تسعة ؛ ولذلك قالت نائحتهم :

يا عين جودى بعبرة وعويل	واندبى - إن ندبت - آل الرسول
تسعة منهم لِصُلْبِ على	قد اصيبوا وتسعة لعقيل

هذا وهم يزعمون أن عقيلا أعان معاوية على علىّ ، فكانوا كاذبين ، فما أولاهم بالكذب ، وإن كانوا صادقين فما أجازوه خيراً إذ ضربوا عنق مسلم بن عقيل صبراً ، وقتلوا معه هانئ بن عروة ؛ لأنه آواه ونصره .

وأكلت هند كبد حمزة ، فمنهم آكلة الأكباد ، ومنهم كهف النفاق ، ونقروا بالقضيب بين ثنيتي الحسين ، ونبشوا قبر زيد ابن الحسين بن علي بن أبي طالب (الإمام الرابع من أئمة الزيدية ، وهو الذى تنسب إليه فرقة الزيدية) وصلبوه وألقوا رأسه في عرصة الدار تطؤه الأقدام وتنقر دماغه الدجاج ، وقال شاعر بني أمية :

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم نر مهديّاً على الجذع يصلب

وقتلوا يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وأسموا قاتله ثائر مروان (أى الآخذ بثأر مروان ، الثائر: الذى لا يبقي على شيء حتى يدرك ثأره ، وناصر (الدين) ، وضربوا علي بن عبد الله بن العباس بالسياط مرتين على أن تزوج بنت عمه الجعفرية التي كانت عند عبد الملك بن مروان (الملقب بالسجاد لتقاه) وعلى أن حملوه قتل سليط ، وسموا أبا هاشم بن محمد بن علي (وهو عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب) ويكني أبا هاشم ، ويقال : إن سليمان بن عبد الملك دس له شيئاً فمات منه ؛ لأنه كان يخشي منه كمنافس سياسي، ويقال : إنه عندما أحس باقتراب أجله اجتهد في الوصول إلي الحميمة حتي يتنازل عن حقه في الخلافة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (وقد درج المؤرخون علي اعتبار هذا التنازل أو هذه الوصية أساساً شرعيّاً لادعاء العباسيين الحق في الخلافة) وضرب سليمان بن حبيب بن المهلب ابا جعفر

المنصور بالسياط قبل الخلافة ، وقتل مروان الحمار (وهو آخر خلفاء بني أمية) الإمام إبراهيـم بن محمد بن علي ، أدخل رأسه في جراب نـورة (والنورة هي الحجـر الجيرى ، أو أخـلاط من أملاح الكالسيـوم والباريوم تستخدم لإزالة الشعـر ، والمقصود أنهم أدخلوا رأســه في جـراب مملوء بالجـير وتركـوه حـتى اختـنق) حتى مات .

وقتلوا يوم الحرة عـون بن عبد الله بن جعـفر ، وقتلوا يوم لف (وهو يوم كـربلاء) مع الحسين أبا بكر بن الحسين بن عفر (بن أبي طالب) .

إلى آخر هذه الجرائم (ص٣٤ من النزاع والتخاصم) وهذه كلهـا إن صدقـت فهي جـرائم سـياسـيـة ، أى أن جمـيع هؤلاء المقتـولين كانوا مـنافسين سيـاسيين لبنـى أمية يريـدون انتزاع الخلافة منهم ، والسياســة تعمى البصر ، وتضلل الذهن ، وتملأ القلب قسـوة ، وتجعل الإنسان يرتـكب جرائم لا توصف ، وفي العادة لا يكون صاحب الخلافة أو صاحب السلطان رجلاً واحداً، بل يكون وراءه ومـعـه ناس أصـحـاب مـصلحـة في أن يظل السلطان في يده ، وحـتى لو مال هو إلى الصلـح والتفاهـم فإن الذين حوله لا يرضون ولا يتأخرون عن قتله ، وما دام الإنسان قد دخل السياسة وطلب السلطان فهو المسئول عما يصيبه ، وقد سبق أن ذكـرنا أن بني أمـيـة إذا لم يكونوا أصـحـاب حق في الخلافـة فما هو الأسـاس الشرعي لمطالبة العلويين بالخـلافة ؟

وهل إذا مات علي بن أبي طالب ورث الحق في الخلافة أولاده : الحسن ثم الحسين ثم زيد ، وهكذا ؟ كل ذلك نشأ - كما قلنا - من أن أحداً لم يضع للخلافة تشريعاً ، بل الكل هنا يجمعون على حق أبناء علي بن أبي طالب في الخلافة .

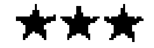
ثم : هل نحن واثقون من أن كل العلويين كانوا أفاضل وأنهم لو كانوا قد تولوا الخلافة لما اقترفوا مثل هذه الجرائم إليك فاقرأ أخبار واحد من أولئك العلويين « إبراهيم بن الحسن ابن زيد فولد إبراهيم وله عقب ومحمد بن إبراهيم فمن ولد محمد هذا ؟ محمد بن الحسن بن محمد بن إبراهيم بن الحسن ابن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب قام بالمدينة ، وكان من أفسق الناس : شرب الخمر علانية في مسجد النبي ﷺ نهاراً ، وفسق فيه بقينة لبعض أهل المدينة ، وقتل أهل المدينة بالسيف والجوع ، وكان قيامه أيام المعتمد ، وقتل أهل المدينة ، ولم يصل طوال مدته فيها جمعة ولا جماعة » .

(ابن حزم - جمهرة أنساب العرب ص٣٩)

فهذا يا سيدي علوي ، وهذا ما فعل !

أقول : إن المشكلة هنا مشكلة عدم وجود دستور للخلافة وحق الأمة في انتخاب الخلافة ضاع بعد أيام عمر ؛ لأن الخلافة أيام أبي بكر كانت أبا بكر ، وأيام عمر كانت عمر ، أما أيام

عثمان فقد اصبحت عثمان وآل عثمان ، وهذا هو ما أنكرته الأمة، ولكن أحـداً لم يصحح ذلك الخطا تصحـيـحاً شـرعيـا بوضع دستـور ، فاصبحت المســالة مسالة عنف وقسـوة وغدر وغش ، وهذا هو ما ينبغي ان نذكره دائماً ؛ حتى لا نصيب الإسلام بأذى ونلحق به شرور الناس .



الفصل التاسع

الجاحظ والفكر السياسى

لاشك في أن الجاحظ - أبا عثمان عمرو بن بحر - هو أستاذ العرب الأول ، فقد كان ناثراً مبدعاً في تاريخ أدبي يكثر فيه النثر الجيد ، وكان يكتب في أسلوب عربي بديع واضح وجميل، لا سجع فيه ، ولا تضييع لوقت القارئ أو إفسادًا لعقله ، وكان واسع الاطلاع جدًا ، فهو لا يكاد يترك موضوعاً مما يهم الناس إلا كتب فيه كتابة ممتازة ، فهو أستاذ عصره ، وأستاذ الناثرين من بعده ، ونحن عندما نصفه بأنه المعلم الأول (للعرب) فنحن لا نقلد ما قيل في أرسطو أو غيره ، وإنما نحن نقول الحق ؛ فإن الرجل كان أستاذاً ، وكان يكتب بقلم أستاذ ، ويصدر عن فكر أستاذ ، ويشعر بمسئوليته كمفكر مسئول عن تثقيف شعبه ..

وقد عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، أى في ظل العباسيين (٧٧٥ - ٨٦٨) وكان لابد - لكى يعيش - من أن يؤيدهم سياسيّاً ، ومن هنا فإننا

نجده يحمل على بني أمية حملة عنيفة . بل هو يصفهم بالنابتة ، ويريد بذلك أنهم جماعة نبتت دون أصل ، ووصلت إلى الخلافة دون حق ، وهنا نجد الجاحظ لا يتعرض لمسألة تشريع الخلافة ، وحتى لو خطر بباله الكلام في هذا الموضوع فما كان ليتكلم ؛ فإن الأمويين إذا كانوا قد وصلوا إلى الخلافة بالغدر واللؤم والخبث فإن السلامة - إذن - في البعد عن هذا الموضوع .

وقد كتب الجاحظ رسالة عن بني أمية حمل عليهم فيها بكل عنف ، وهذا لا يدهشنا ، ولكن الذى يدهشنا ويجعلنا نعجب بذكائه وقدرته على الخروج من المأزق مدخله إلى الموضوع ببراعة نادرة - فإن عثمان كان من بني أمية وهو الذى مكن لبني أمية من الخلافة ، فإذا كنت حاملاً على بني أمية ، فكان لابد من أن تشير - ولو مجرد إشارة - إلى تمسك عثمان بالخلافة تمسكاً لا يؤيده فيه شيء أو أحد ، وكان لابد من أن نقول : إن هذا التمسك كان سبب مقتله ، ولو أنه تنازل عن الخلافة لما أصابه ضرر ، ولكنه تمسك وألح في ذلك ، وكان الذين يناقشونه ناساً من عامة الناس ، أى ناساً بدون ثقافة أو فكر منظم ، إنما هم كانوا - كما رأينا - جنداً غاضبين بسبب قلة المال ، وكانوا يعتقدون أن بني أمية - خلف عثمان - يسرقون أموال الدولة ويحرمونهم منها ، أو كانوا كذلك لا يرضون عن مذهب عمر في التفريق بين المسلمين في الأعطية .

ومن هؤلاء الناس يمكن أن يصدر أى شيء ، وقد قتلوا عثمان ؛ لأنهم جهلة ، ولأنهم لم يعرفوا قدر الصحابة . ومهما كان الأمر فإن عثمان يتحمل بعض المسئولية .

ولكن الجاحظ أذكى من أن يضع على عثمان بعض المسئولية ، فعثمان صحابى جليل وحبيب إلى رسول الله ﷺ ، ولا يرضى مسلم على أن يوجه إليه نقد ، وقد يكون الجاحظ قد رأى أننا - مهما أنكرنا من مسئوليته عن مقتله - فلابد أيضاً من أن نرى أنه أخطأ - ولو خطأ يسيراً - عندما رفض أن يستقيل عندما ضاق بالناس وضاقوا به ، وهو - لاشك - مسئول عن ولاته من بنى أمية وما كانوا يفعلون بالناس . وقد تكون هناك مبالغات ، ولكن لابد أن نقول : إن الكثير من بنى أمية - وخاصة المروانيين منهم - كانوا بعيدين عن الرسول ﷺ ؛ فقد دخلوا الإسلام فى العام الثامن للهجرة وما بعده ، ثم إن رسول الله ﷺ أبعد أباهم مروان بن محمد عن المدينة ، فنشأ أولاده على كراهة بنى هاشم ، ثم إن معاوية بن أبى سفيان كان لا يحب بنى هاشم ، وليس أدل على ذلك من أنه قتل حُجْر بن عدى لمجرد أن هذا الرجل كان شهماً ، وقد أنكر أن يسب علىّ بن أبى طالب - كرم الله وجهه - من على المنابر . لا شك فى أن الجاحظ كان يعرف ذلك كله ، ولكنه كان أذكى من أن يلقى على عثمان - رضى الله عنه - أى مسئولية ؛ ولهذا فهو يمر على ذلك كله مروراً سريعاً ، ويقف عند على بن أبى طالب وبنيه ، ويطلق

لنفسه العنان في إظهار العطف عليهم والحزن على ما أصابهم ، فهذا شيء يحمده الناس له . وكلنا ـ إذا جئت إلى العاطفة ـ علويون وحسنيون وحسينيون ، والجاحظ هنا يستعمل كل بلاغته وذكائه ، ويقول مثلاً : « ولكن الناس كانوا على طبقات مختلفة ومراتب متباينة، من قبائل (أى بدو) ومن شادّ على عَضُده (أى ناصر لعثمان) ومن خاذل عن نصرته ، والعاجز ناصرٍ بإرادته ومطيع بحسن نيته ، وإنما الشك منا فيه وفي خاذله ، ومن أراد عزله والاستبدال به ، فأما قاتله والمعين على دمه والمريد لذلك منه فَضُلَّالٌ لا يشك فيهم ، ومُـرَّاءٌ لا امتراء في حكمهم ، على أن هذا لم يعد منهم الفجور ، إما على سوء تأويل ، وإما على تعمد للشقاء . ثم ما زالت الفتن متصلة ، والحروب مترادفة ، كحرب الجمل ، ووقائع صفين ، وكيوم النهروان ، وقبل ذلك يوم الزابوقة (ويوم الزابوقة هو يوم الجمل) وهو الموقع القريب من البصرة الذى وقعت فيه الواقعة وفيه أسر ابن حنيف (هو عثمان بن حنيف بن واهب الأنصارى ، وكان من أكابر العلويين وقد قتله بنو أمية) وقتل حكم بن جبلة (بن حسين العبرى من بني عبد القيس ، صحابي من عمال عثمان على السند ، وكان ممن عاجوا على عثمان من أجل عبد الله بن عامر وغيره من عماله ، وانضم إلى عليّ فيما بعد) إلى أن قتل أشقاها (يريد عبد الرحمن بن ملجم) على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ فأسعفه الله بالشهادة وأوجب لقاتله النار واللعنة .

إلى ما كان من اعتزال الحسن - عليه السلام - الحكم والحروب وتخليته الأمور عند انتشار أصحابه وما رأى من الخلل في عسكره ، وما عرف من اختلافهم على أبيه وكثرة تلونهم عليه . فعندما استوى معاوية على الملك واستبد على بقية الشورى وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين في العام الذى سموه عام الجماعة - وما كان عام جماعة - بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة ، والعام الذى تحولت فيه الإمامة ملكاً كسروياً ، والخلافة غصباً قيصرياً ولم يعد ذلك أجمع الضلال والفسق .

ثم ما زالت معاصيه من جنس ما حكينا . وعلى منازل ما رتبنا حتى رد قضية رسول الله ﷺ ردًا مكشوفاً ، وجحد حكمه جحداً ظاهراً في ولد الفراش وما يجب للعاهر مع اجتماع الأمة على أن سمية ما كانت لأبى سفيان فراشاً (أى زوجة) وأنه إنما كان بها عاهراً ، فخرج بذلك عن حكم الفجار إلى حكم الكفار، وليس قتل حُجر بن عدى (ابن الأدبر الكندى ، قتله معاوية سنة ٥١ هجرية ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك) وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر ، وبيعة يزيد الخليع (يريد يزيد ابن معاوية بن أبى سفيان) والاستئثار بالفيء ، واختيار الولاة على الهوى ، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة من جنس جحد الأحكام المنصوصة والشرائع المشهورة والسنن المنصوبة .

وهذا كله كلام جميل جدًا من ذلك الرجل الأديب البليغ ،

ولكنه لا يقول الحق دائماً ؛ لأن الحق هو أن مسئولية الكثير من هذه الأعمال تقع على كتف عثمان نفسه ، فإن بنى أمية فعلوا أمثال ذلك كله في أيامه . فتصور أن رجلاً مثل أبى بكر بن العربى يقول فى كتابه «العواصم من القواصم» : إننا لا ينبغى قط أن نقول كلمة فى حق معاوية ؛ لأنه كان من الصحابة ، ولا يجوز لمسلم أن ينتقد صحابياً . ولنا فى ذلك رأى آخر . فنحن نرى أن نحترم كل صحابي بقدر ما أفاد أو قبس من نور رسول الله ﷺ ، فبعض الصحابة مثل أبى بكر وعمر كان خلقهم كله اقتباساً من الرسول ﷺ ؛ ولهذا فإننا نحترم كل تصرف لهما وكل كلمة قالاها ، ولكن ما رأيك فى عبد الرحمن بن عوف الذى قصد بالفعل أن يخرج علياً من الخلافة عندما سأله : هل تتبع خط الرسول وأبى بكر وعمر ؟ فقال على : إننى أتبع خط الرسول ﷺ ، ولكن أبا بكر وعمر صحابيان مثلى ، والله ـ سبحانه ـ أرسل نبياً واحداً هو محمد ﷺ ، ولم يبعث ثلاثة أنبياء؛ فأنا أتبع الرسول وسنته . وأنظر فيما فعل أبو بكر وعمر ، فما رأيت من الصواب في عملهما فعلته ، وإلا فإننى أجتهد برأيي ، وعمر نفسه لم يعجبه الكثير من آراء أبى بكر فتركها واستشار الناس وأخذ بالشورى .

وأنا أقول ذلك ؛ لأن تحديد الفكر وتحريمه على الناس لا يأتي بخير أبداً . وهذا هو السبب في أن الفكر السياسى عندنا أصيب بشلل ؛ فقد كان الناس ـ ولا يزالون ـ يقدسون جميع

الصحابة حتى إنهم لم ينتقدوا منهم أحداً ، ولم يحاول أحد أن يضع تشريعاً للخلافة كما قلنا . والجاحظ ـ كما سنرى ـ لا يوافق على ذلك . ونحن ـ فيما يتعلق بالماضي ـ نميل إلى الكذب ؛ ظنّا منا أن ذلك يزيد من مجد العرب . فقد قرأت كاتباً يقول في كتاب : « إن البيروني قال : إن الأرض تدور حول الشمس وتدور حول نفسها . وهذا كلام لم يقله البيروني ، وإنما قاله مفكر إيطالي هو كوبير نقوس . والبيروني قال كلاماً آخر لا يقل عبقرية عن كلام هذا الإيطالي . فلماذا نصغر من قدره ونسرق من الإيطالي ونضيف إليه ؟ وإن ماضينا ـ كما هو ـ مليء بالمفاخر ، فلماذا نصغر أنفسنا ونكذب ؟

وأنا أكتب هذه الفصول لكي أقول ذلك للناس ، فليس هناك أحسن ولا أحلى من الصدق . وإذا كنا لم نأخذ افكارالتشريع السياسي إلا من أهل الغرب ولم نعرف الدستور إلا عن طريقهم فكيف يسألني صديق قائلاً : ألم يأخذ أهل الغرب الدستور عنا ؟ وأنا أقول له : يا سيدى ، إنهم لم يأخذوا الدستور عنا ، بل نحن الذين أخذناه عنهم ، وهم أنفسهم قضوا فوق المائتى عام يفكرون ويعملون حتى انتهوا إلى ضرورة وضع دستور ، أى قانون أساسي يحدد مدة الحاكم الأعلى ، ويضع حدود سلطاته وحقوق المواطنين ، ويحدد مصارف المال العام . ولفظ الدستور نفسه ليس لفظاً عربيّاً بل فارسى ، ومعناه في الأصل : قالب الطوب الذى يصنع بمقاييس محددة ، فاخذه المشرعون العرب

فى القرن الماضى واستعملوه بمعنى القاعدة التى يعمل القانون الأساسى بمقتضاها . والدفتر الذى تكتب فيه ، وفى الاصطلاح المعاصر مجموعة القواعد الأساسية التى تبين شكل الدولة ونظام الحكم فيها ومدى سلطتها إزاء الأفراد (المعجم الوسيط ١/ ٢٩٢) والجمع : دساتير . وإذا كنا قد أخذنا منهم الدستور فقد أخذوا هم منا أشياء كثيرة جداً ، وإذن فلا معنى للكذب ، ونحن ـ والحمد لله ـ بخير ، وفضلنا عظيم .

ثم يقول الجاحظ فى أسلوبه البليغ المنعدم النظير : وفى باب ما يستحق من الإكفار جحد الكتاب ورد السنة إذا كانت السنة فى شهرة الكتاب وظهوره ، إلا أن أحدهما (وهو القرآن طبعاً) أعظم وعقاب الآخرة عليه أشد . فهذه أول كفرة كانت من الأمة . ثم لم تكن إلا فيمن يدعى إمامتها والخلافة عليها (يريد أن هذا أول كفر وقع من الأمة ، ولكنه وقع من معاوية الذى ادعى الإمامة والخلافة) على أن كثيراً من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره (أى بتركهم تكفير معاوية) وقد رأيت عليهم نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا فقالت : لا تسبوه ؛ فإن له صحبة، وسب معاوية بدعة ، ومن يبغضه فقد خالف السنة، فزعمت أنه من السنة ترك البراءة ممن جحد السنة .

وهذا كلام عظيم جداً من الجاحظ ، فهو يقول أولاً : إن معاوية جحد السنة ، ومن جحد السنة فلابد من تكفيره . وهذا رأى جرىء جداً منه فى أيامه . ثم إنه يسمى بنى أمية

وخلفاءهم والمتعصبين لهم بالنابتة ، وهي كلمة تجيء هنا في معنى الطارئة ، أي الذين طرأوا على المجتمع الإسلامي ، وفرضوا أنفسهم عليه دون حق . وإذا كان الجاحظ لم ينتقد تصرف عثمان بن عفان في بعض تصرفاته بسبب خوفه من أهل عصره فإنه قال كلاماً عظيماً آخر ، وهو هنا أجرأ وأحكم من أبي بكر بن العربي الذى دعا في كتاب « العواصم من القواصم » إلى تكميم الأفواه وتجميد العقول تماماً . والجاحظ هنا يؤيد ما قلناه فيه من أنه المعلم الأول ، وهو بالفعل معلم العرب الأول فكراً وأسلوباً وأصالة وعقلاً . واقرأ الفقرة التالية من كلامه عن بني أمية لتتأكد من ذلك : « ثم الذى كان من يزيد ابنه ومن عماله وأهل نصرته ، ثم غزو مكة ورمي الكعبة واستباحة المدينة ، وقتل الحسين ـ عليه السلام ـ في أكثر أهل بيته مصابيح السلام وأوتاد الإسلام بعد الذى أعطى من نفسه من تفريق أتباعه والرجوع إلى داره وحرمه أو الذهاب في الأرض حتى لا يحس به ، أو المقام حيث أمر به ، فأبوا إلا قتله والنزول على حكمهم ، وسواء قتل نفسه بيده أو أسلمها إلى عدوه وخيِّر فيها من لا يبرد غليله إلا بشرب دمه ، أفحسبوا قتله ليس بكفر !! وإباحة المدينة وهتك الحرمة ليس بحجة ؟! كيف تقولون في رمي الكعبة وهدم البيت الحرام قبلة المسلمين؟ فإن قلتم : ليس ذلك أرادوا ، بل إنما أرادوا المتحرز به والمتحصن بحيطانه أفما كان من حق البيت وحريمه أن

يحصروه فيه إلى أن يلقى بيده ؟ وأى شيء بقى من رجل أخذت عليه الأرض إلا موقع قدمه ؟! » .

وأنا أقدر أنك لم تقرأ أبلغ من هذا فى الكتابة عن بنى أمية وما فعلوه بالحسين وآل النبى ﷺ والكعبة المشرفة والمدينة المنورة ، ولكن الجاحظ لا يقف عند هذا الحد فى تكفير بنى أمية، بل هو يرى أن خلفاءهم أشد كفراً منهم . واقرأ الفقرة التالية لترى بلاغة ذلك المعلم الأول ، بل لكى ترى كيف تكون البلاغة العربية على الإطلاق . قال فى نفس الرسالة : « على أنه ليس من استحق اسم الكفر بالقتل كمن استحقه برد السنة وهدم الكعبة . وليس من استحق اسم الكفر بذلك كمن شبه الله بخلقه ، وليس من استحق الكفر بالتشبيه كمن استحقه بالتجويز (أى بتجويز أن يكون الله سبحانه شبيهاً بمخلوقاته والعياذ بالله) والنابتة فى هذا الوجه أكفر من يزيد وأبيه ، ولو ثبت أيضاً على يزيد انه تمثل بقول ابن الزبعرى (هو عبد الله ابن الزبعرى بن قيس بن عدى ، وكان من أعداء الإسلام يهجو المسلمين والإسلام قبل إسلامه) :

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
لاستطالوا واستهلوا فرحاً ... ثم قالوا : يا يزيد لا تسل
قد قتلنا الغر من ساداتهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل

كـان تجويز النابتي لـربه وتشبـيهـه بخلقـه أعظم من ذلك وأقطع . على أنهم مجمعون على أنه ملعون من قتل مؤمناً متعمداً أو متاولاً . فإذا كان القاتل سلطاناً جائراً أو أميراً عاصياً لم يستحلوا سبه ولا خلعه ولا نفيه ولا عيبه ، وإن أخاف الصلحاء ، وقتل الفقهاء ، وأجاع الفقراء ، وظلم الضعفاء ، وعطل الحدود والثغور ، وأشرب الخمور ، وأظهر الفجور .. » .

ثم يقول بعد فقرة من ذلك ، وهذا أبلغ ما تقرأ في العربية :

« فأحسب تحويل القبلة كان غلطاً وهدم البيت كان تأويلاً ، واحسب ما رووا من كل وجه أنهم كانوا يزعمون أن خليفة المرء في أهله أرفع عنده من رسوله إليهم باطلاً ومصنوعاً مولداً واحسب وشم أيدى المسلمين (ووشم الشيء : كواه فأثر فيها بعلامة ، وكذلك كان بنو أمة يفعلون مع المسلمين ؛ ليتاكدوا من أداء الضريبة حتى أبطل ذلك عمر بن عبد العزيز) ونقش أيدى المسلمات وردهن بعد الهجرة إلى قراهن (وهذا محرم في الإسلام ؛ لأن الهجرة كانت مرتبة من مراتب التحضر في الإسلام ، وكان رسول الله ﷺ يدعو إلى الهجرة ، أى الاستقرار وترك البداوة) وقتل الفقهاء وائمة الهدى والنصب لعترة النبى ﷺ لا يكون كفراً ، فكيف تقول في جمع ثلاث صلوات فيهن الجمعة ؟ ولا يصلون أولاهن حتى تصير الشمس على أعالي الجدران كالملا المعصفر، فإن نطق مسلم خبط بالسيف وشك

بالرماح ، وإن قال قائل : اتق الله ، أخذته العزة بالإثم ، ثم لم يرض إلا بنثر دماغه على صدره ويصلب حيث تراه عياله » .

ومن غريب الأمر أن الجاحظ ـ رغم هذا الذكاء وبعد النظر ـ لم يكتب حرفاً في ضرورة تشريع الخلافة ، وعذره هنا معروف وإن لم يكن مقبولاً ، فقد كان الرجل يكتب في العصر العباسي ، وكان هو نفسه عباسيّاً ، والعباسيون قد غصبوا الخلافة كما فعل بنو أمية . فكيف يستطيع الرجل أن يقول كلمة في هذا المعنى ، ولو أنه قالها لخبط بالسيف وشك بالرماح ، ولم يكن بنو العباس أحسن من بني أمية لا في السياسة العامة ولا في معاملة العلويين ، وتلك هي المصيبة الكبرى ، فنحن ـ مع الأسف الشديد ـ عشنا دائماً في ظل الاستبداد السياسي ، ولم يؤذن لنا قط أن نقول كلمة حق ، وكان أهل الغرب في مثل حالنا حتى قامت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ، فالحق أن هذه الثورة أطلقت عقال الألسنة ، وفتحت الأبواب على مصاريعها للحرية . وقد قضى الفرنسيون أكثر من قرن حتى وصلوا إلى الحرية السياسية الحقيقية عندما قامت الجمهورية الثالثة بعد حرب ١٨٧١ مع ألمانيا ، والجمهورية الثالثة هي التي قررت حق الشعوب الكامل في وضع النظام السياسي الذي يرون أنه يحقق للوطن أكبر جانب من الخير ، ومن هنا فإنني أرجو القارئ ألا يستهين بالثورة الفرنسية ، حقًا إن الإسلام قرر قواعد

الحرية السياسية في أيام الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - ولكن المسلمين ابتداء من العصر الأموى حرموا الناس من حقوقهم السياسية ، وكذلك العباسيون وكل دول الإسلام إلى العصر الحديث ، والعبرة في التاريخ بالحقائق الواقعة إلى جانب المبادئ المعلنة .

ويكفي هذا عن بني أمية وننتقل إلى بني العباس .

قال الطبري برواية سنده في الكلام على أبي جعفر المنصور:

« وذكر العباس بن الفضل بن سلام الأبرشي قال : كنت وأنا وصيف (يريد خادماً صغيراً) وغلام آخر نخدم المنصور داخلاً في منزله ، وكانت له حجرة فيها بيت وفسطاط وفراش ولحاف يخلو فيه . وكان من أحسن الناس خلقاً ما لم يخرج إلى الناس ، وأشد احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان ، فإذا لبس ثيابه تغير لونه وتربد وجهه واحمرت عيناه ، فيخرج فيكون منه ما يكون ، فإذا قام من مجلسه رجع بمثل ذلك ، فنستقبله في ممشاه فربما عاتبناه . وقال لي يوماً : « يا بني إذا رأيتني لبست ثيابي أو رجعت من مجلسي فلا يدنون مني أحد منكم ؛ مخافة أن أعره (أصيبه) بشيء » (الطبري ٨ / ٦١ - ٦٢) ومعنى ذلك أن هذا الرجل - أبو جعفر المنصور - كان إذا خرج

ليمارس شئون الحكم تحول إلى إنسان دموى غاضب لا يؤمن على شيء إذا غضب ، أما فيما عدا ذلك فقد كان في الحقيقة رجلاً لطيفاً حسن الخلق ، وهذه حقيقة ينبغي أن نعرفها حتى يصدق حكمنا على رجال السياسة والسلطان في تاريخنا ؛ فهؤلاء الناس ـ نتيجة للسلطان المطلق الذى كان في أيديهم ـ كان لكل منهم خلقان : خلقه العادى ، وخلق الحاكم ، فأما خلقه العادى فكما رأينا خادم المنصوريصفه فيقول : إنه كان لطيفاً محبباً حتى أنه كان من أكثر الناس احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان ، فإذا خرج للحكم لم يؤمن حتى على خدمه ، وهو نفسه كان يأمر غلمانه بأنه إذا لبس ثيابه وخرج للعمل فلا يقترب منه أحد منهم فربما أصابه بشيء ، والحقيقة هي أن الحكم المطلق هو الذى كان يغير أخلاق أولئك الناس ، فإن الواحد منهم كان مستعدًا لأن يأمر بقتل عشرة آلاف إنسان إذا غضب أو إذا خاف على ملكه ، فإذا لم يكن هناك خوف على الملك فإن الواحد منهم يكون لطيفاً طيب الخلق كثير الاحتمال ، والمنصور هذا قتل المئات بل الآلاف ، وقتل أبا مسلم الخراساني بصورة بشعة ؛ لأنه خاف منه على سلطانه ، أما فيما عدا ذلك فقد كان صبوراً مأموناً ، ونحن نقرأ مثلاً أن أحمد بن طولون والى مصر قتل الآلاف ، وكان في سجنه المطبق ـ وهو قبو تحت الأرض ـ أربعون ألف محبوس .

ومع ذلك فقد كان رجلاً تقيّاً مؤمناً ، يقيم الصلوات في أوقاتها ، ويتصدق بسخاء ، وقد أنفق الآلاف في إنشاء مسجد ابن طولون المشهور . وفي وصف أبي العباس السفاح أخي المنصور يقول الفخري في كتاب الآداب السلطانية (ص١١٢) : « إنه كان كريماً حليماً ، وقوراً عاقلاً ، كاملاً ، كثير الحياء ، حسن الأخلاق » ويقول عنه السيوطي في تاريخ الخلفاء (ص ١٧١) : « وكان السفاح أسخى الناس ، ما وعد عدة فأخرها عن وقتها ، ولا قام من مجلسه حتى يقضيها » .

وهذا الرجل هو الذى قال عن نفسه في أول خطبة له خطبها على منبر الكوفة : « أنا السفاح المبيح ، والثائر المبيد » وقد كان بالفعل هذا وذاك .



الفصل العاشر

أكذوبة العباسة أخت الرشيد مع جعفر البرمكى

وهذا عبد الله الملقب بالسفاح له أمر غريب ، فقد كان سفاحاً مخيفاً فعلاً ، وقد قتل المئات بل الألوف ، ومع ذلك فقد كانت فيه خصال كثيرة طيبة ، وإليك الخبر التالى العجيب الذى آتيك به من كتاب « مروج الذهب » للمسعودى (٢/ ٢١٥ ـ ٢١٨) عن علاقة السفاح بامرأته ، وكانت تسمى أم سلمة : « وكانت قد تزوجت من عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومى فمات وتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموى فمات .

فبينا هى ذات يوم إذ مر بها أبو العباس ، وكان جميلاً وسيماً ، فسألت عنه ، وأرسلت إليه مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها ، وقالت لمولاتها : قولى له : هذه سبعمائة دينار أوجه بها إليك . وكانت تمتلك كثيراً من المال والحشم والجواهر ، فأتته المولاة فعرضت عليه ذلك . فقال السفاح : أنا مملق لا مال عندى ، فدفعت إليه المال ، وأقبل إلى أخيها وطلب منه أن

يزوجها منه ، فزوجه إياها ، فأصدقها خمسمائة دينار ، وأهدى من يلوذ بهـا مائتى دينار . وزُفَّتْ إليه فى ثياب موشاة بالجواهر ، وحظيت عنده حتى صار لا يقطع أمراً إلا بمشورتها حتى أفضت الخلافة إليه .

فلما كان ذات يوم في خلافته خلا به خالد بن صفوان ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إني فكرت في أمرك وسعة ملكك ، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة ، فإن مرِضَت ، مرضْت ، وإن غابت غبت ، وحرمت نفسك التلذذ باستظراف الجوارى ومعرفة أخبار حالتهن والتمتع بما تشتهى منهن ، فإن منهن ـ يا أمير المؤمنين ـ من مولدات المدينة من تفتن بمحادثتها . وجعل خالد يجيد فى الوصف ويجد في الإطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه ، فلما فرغ من كلامه قال أبو العباس : ويحك يا خالد ! ما صك مسامعي والله كلام أحسن مما سمعته منك ، فأعد على كلامك فقد وقع مني موقعاً ، فأعاد عليه خالد أحسن مما ابتداه ، ثم انصرف . وبقى السفاح مفكراً فيما سمع منه ، فدخلت عليه زوجته أم سلمة ، فلما رأته مفكراً مغموماً قالت له : إنى لأنكرك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر تكرهه أو أتاك خبر فارتعت له ؟ قال : لم يكن من ذاك شيء ، قالت : فما قصتك ؟ فجعل ينزوى عنها ، فلم تزل به حتى أخبرها بحديث خالد ، فقالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ قال : سبحان الله ! ينصحني فتشتمينه ! خرجت من عنده فأرسلت إلى خالد جماعة من المغاربة وأمرتهم الا

يتركوا منه عضواً صحيحاً . قال خالد : فانصرفت إلى منزلى وأنا على السرور بما رأيت من أمير المؤمنين وإعجابه بما ألقيت إليه ، ولم أشك أن صلته ستأتينى . فلم ألبث حتى صار إلى أولئك البخارية وأنا قاعد على باب دارى ، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوى أيقنت بالجائزة واصلة حتى وقفوا عَلَيَّ فسألوا عني . فقلت : هاأنذا خالد ، فسبق إلى واحد منهم بهراوة كانت معه ، فلما أهوى بها علَيّ وَثَبْتُ فدخلت منزلي وأغلقت على الباب واستترت ، ومكثت أياماً على تلك الحال لا أخرج من منزلى ، ووقع فى خلدى انى أُتيتُ من قِبَلِ أم سلمة ، وطلبنى السفاح طلباً شديداً ، فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم هجموا عليّ وقالوا : أجب أمير المؤمنين ، فأيقنت بالموت . فركبت وليس عليّ لحم ولا دم . فلما وصلت إلى الدار أومأ إليّ بالجلوس ، ونظرت فإذا خلف ظهرى باب عليه ستور قد أرخيت وحركة خلفها ، فقا يا خالد ، لم أرك منذ ثلاث ، فقلت : كنت عليلاً يا أمير المؤمنين قال : ويحك ! إنك وصفت لى فى آخر دخلة من أمر النسا والجوارى ما لم يخرق مسامعى كلام أحسن منه فأعِدْهُ عليّ ! قلت : نعم يا أمير المؤمنين : أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضر ، وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا كان فى جهد ، فقال لى : ويحك لم يكن هذا فى الحديث، فقلت : بلي والله يا أمير المؤمنين ، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأنهن القِدْرُ يَغْلِي عليهن ! قال أبو العباس : برئت

من قرابتي من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت هذا الكلام منك في حديثك ! قال : وأخبرتك أن الأربع من النساء شر صحيح لصاحبهن يُشَيِّبْنَه ويُهَرِّمْنَهُ ويُسْقِمْنَه ! قال : ويلك ! ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبلَ هذا الوقت ! » إلى آخر هذه الحكاية ، وهي في الحقيقة طرفة لطيفة فكهة ، وهي تدل على أن العباس كان له ـ كما قلنا ـ خلقان : خلق عادى إذا كان بعيداً عن السياسة ، فإذا دخل في السياسة فالويل لعدوه !

ومما يدلك على استهانة ملوك العرب بالدماء هذا الخبر الذى يرويه الطبرى في كلامه عن أبي جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس (١٣٦ ـ ١٥٨هـ / ٧٥٤ ـ ٧٧٥ م) وذكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن داود بن معاوية بن بكر ـ وكان من الصحابة ـ أن المنصور ضم رجلاً من أهل الكوفة يقال له الفضيل بن عمران ، إلى ابنه جعفر ، وجعله كاتبه ، وولاه أمره ، فكان منه بمنزلة أبي عبيد الله من المهدى . وقد كان أبو جعفر أراد أن يبايع لجعفر بعد المهدى ، فغضبت أم عبيد الله حاضنة جعفر للفضيل بن عمران ، فسعت به إلى المنصور ، وأومأت إلى أنه يعبث بجعفر ، قال : فبعث المنصور الريان مولاه وهارون بن غزوان مولى عثمان بن نهيك إلى الفضيل ليقتلاه وهو مع جعفر بمدينة الموصل ، وقال : إذا رأيتما فضيلاً فاقتلاه حيث لقيتماه ، وكتب لهما كتاباً منشوراً ، وكتب إلى جعفر يعلمه ما أمرهما به ، وقال : لا تدفعا الكتاب إلى جعفر

حتى تفرغا من قـتله ، قال : فخرجا حتى قدما إلى جـعفر وقعدا على بابه ينتظران الإذن ، فخرج عليهما فـضيل فأخذاه وأخرجا كتـاب المنصور فلم يعرض لهمـا أحد فضـربا عنقه مكانه ، ولم يعلم جعـفر حتى فرغـا منه ، وكان الفضـيل رجلاً عفيـفاً دَيِّناً ، فقـيل للمنصـور : إن الفضـيل كان أبرأ الناس مما رُمي بـه وقد عجلت عليه ، فوجه رسولاً وجعل له عشرة آلاف درهم إن أدركه قبل أن يقتل ، فقدم الرسول قبل أن يجف دمه ، فذكر معاوية بن سويد مولى جعـفر أن جعفراً أرسل إليه فـقال : ويلك ! ما يقول أمـيـر المؤمنين في قـتل رجـل عـفيف دَيِّن مسلم بلا جـرم ولا جناية؟! قـال سويد : فقـلت : هو أميرالمؤمـنين يفعل مـا يشاء ، وهو أعلم بما يصنـع ، فقـال : يا مـاص بظر أمـه ، أكلمك بكلام الخاصة وتكلمني بكلام العامة ! خذوا برجله فالقوه في دجلة ، قـال : فأخـذت ، فقلت : أكلمـك فقـال : دعوه ، فـقلت : أبوك إنما يسأل عن فضيل ، ومتى يسأل عنه وقد قتل عمه عبد الله بن عبد الله بن علي ، وقد قتل عبد الله بن الحسن وغيره من أولاد رسول الله ﷺ ظلماً ، وقتل أهل الدنيا ممن لا يحصى ولا يعد ، وهو قبل أن يسأل عن فضـيل جزازاته تجب خصي فرعـون أي قاتل يقتل الألوف ، قال : فضحك وقال : دعوه إلى لعنة الله » (الطبرى ٨ / ٩٩ ـ ١٠٠) .

فها نحن أولاء أمام خليفة هو أبو جـعفر المنصور يقتل رجلاً بريئاً فاضلاً دون جريرة . ويعلق عـلى ذلك رجل مسلم فيقول :

هو أميـر المؤمنين يفعل ما يشاء، وهـو اعلم بما يصنع ، فهل هذا إسلام ؟ وهل حـقًا أن لأمـير المؤمنين أن يفـعل ما يشـاء بأرواح المسلمين ؟ بل إن نفس الخبر يقرر أن المنصور قتل العشرات من أبناء رسـول الله ﷺ دون ذنب أو جـريرة ، فـهـل هذا حق ؟ والطبرى الذى يروى هذه الأخـبار فقـيه ، فتصـور أنه لا يعقب على ذلك بكلمة دفاع عن الإسلام !! .

ومن الأخبار التى ينكـرها الضمير العربى ولا يصـدقها قط قـول الطبرى (ج ٨ ص٢٩٤) : وقـد حدثنى أحـمد بن زهيـر ـ أحسبه عن عمه باهر بن حرب ـ أن سبب هلاك جعفر والبرامكة أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسة بنت المهدى وكان يحـضرهما إذا جلس للشـرب ، وذلك بعد أن أعلم جعـفراً قلة صبره عنه وعنهـا ، وقال لجعفر : أزوجكهـا ليحل لك النظر إليهـا إذا أحضرتها مـجلسى ، وتقدم إليه ألا يمسـها ، ولا يكون منه شىء مما يكون للرجل إلى زوجته ، فزَوَّجها منه على ذلك ، فكان يحضرهما مجلسـه إذا جلس للشرب ، ثم يقوم من مجلسه ويخليهما فيثملان من الشراب وهمـا شابان ، فيقوم إليها جعفر فيجـامعها فـحملت منه وولدت غلامـاً ، فخافت على نفسـها من الرشـيـد إن علم بذلك ، فـوجـهت بالمـولود مع حـواضن له من مماليكها إلى مكة ، فلـم يزل الأمر مستـوراً عن هارون حتى وقع بين عباسة وإحدى جواريها شر ، فانهت أمرها وأمر الصبى إلى الرشيد ، وأخبرته بمكانه ومع من هو من جـواريها وما معه من

الحلى التى كانت زينتــه بها أمه ، فلما حج الرشيـد هذه الحجة (سنة ١٨٧هـ) أرسل إلى الموضع الذى قالت الجارية إن الصبى به من يأتيه بالـصبى وبمن معـه من حواضنه ، فلما أُحْـضِرُوا سأل الـلواتى معـهن عن الصبى ، فـأخبـرنه بمثل القصـة التى أخبرته بها الرافعة على عباسة ، فأراد ـ فيما زعم ـ قتل الصبى، فتحوب من ذلك (أى وجد ذلك حراماً فتوقف) .

وكان جعفر يتـخذ للرشيد طعاماً كلما حج بعسـفان فيقريه إذا انصرف شاخصاً من مكة إلى العراق ، فلما كان فى هذا العام اتخذ الطعـام جعفر كـما كان يتخـذه ثم استزاره ، فاعـتل عليه الرشيـد ولم يـحضـر طعامه ، ولـم يزل جعفـر معـه حتى نزل منزله من الأنبار ، فكان من أمـره وأمر أبيه ما أنا ذاكـره إن شاء الله تعالى (الطبرى ٨ / ٢٩٤) .

فأنت تقرأ هنا خـبراً مهيناً حقاً لـلمسلمين ، وأنت إذا تأملته وجدته لا يستقـيم ، فما الذى يجعل الرشيد يتـمسك بأن يـحضر جعـفر مجلســه مع أخته الـعباسة ؟ وإذا كان لا يريد أن تكون هناك علاقة بين الاثنين فلماذا عقد بينهما الزواج أصلاً ؟ ثم كيف يتركهما مـعاً وينصرف فيعرضهمـا إلى مظنة الجماع ، وهو أمر معـقول بين رجل وامرأة عقـد له عليها فـعلاً ؟ الحقيـقة هى أن الخبر غير أصيل بل غير ممكن ، وإذا كان الرشيد قد غضب على جـعفـر وآله فـلابد أن تكون هناك أسـباب أخـرى أهم من تلك العلاقة غير المعقولة بين جعفر والعباسة .

وقد أنكر ابن خلدون هذا الخبر في مقدمته (طبعة د . عبد الواحد وافي جـ ١ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١) فقال : وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها ! وإنها ابنة عبد الله ابن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الملة من بعده ، والعباسة بنت محمد المهدى بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي ﷺ ، فهي ابنة خليفة ، وأخت خليفة ، ومحفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإمامة الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاته ، وهي قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش ، فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها ؟ وأين توجد الطهارة والزكاء ـ بالزاى بمعنى الصلاة والاستقامة ـ إذا فقد من بيتها ؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيي وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم بملكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشراف قريش وغايتهم إن أرادت أن ترتفع بمكانهم مكافأة على ما كان منه ومن أبيه أن ترقيهم إلى منازل الأشراف ؟ وكيف يجوز للرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على همته وعظم إبائه ، ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها من مثله مع مولى من موالي دولها وفي سلطان قومها

واستنكره ولجَّ في تكذيبه ، وأين قدر العباسة والرشيد من الناس؟ وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره ، وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وسيف وقلم ، ويقال : إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ، ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هرون ولى عهد وخليفة ، حتى شب في حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعوه يا أبت ، فتوجه الإيثار من السلطان إليهم ، وعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال ، وتخطت إليهم من أقصى التخوم ، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة بالعطاء ، وطوقوهم المنن ، وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم ، وفكوا العاني ، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسدوا لعفاتهم (طلاب المعروف) الجوائز والصلات ، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة ، وأغصوا أهل الولاية ، فكشفت لهم

وجوه المنافسة والحسد ، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية ، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم ، لم يعطفهم ـ لما وقر في نفوسهم من الحسد ـ عواطف الرحم ولا وزعتهم عواطف الرحم .

وقارن ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف من المجد والأنفة ، وكامن الحقود التي بثتها منهم صغائر الدالة .

وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة .. كقصتهم في يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي محمد المهدى الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور . ويحيى هذا هو الذى استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخطه . وبذل لهم فيه ألف ألف درهم ـ على ما ذكره الطبرى ـ ودفعه الرشيد إلى جعفر وجعل اعتقاله بداره وإلى نظره ، فحبسه مدة ، ثم حملته الدالة على تخلية سبيله والاستبداد بحل عقاله حرمة لدماء أهل البيت بزعمه ، ودالة على السلطان في حكمه . وسأله الرشيد عنه لما وشي به إليه ، ففطن وقال : أطلقته ، فأبدى له وجه الاستحسان وأسرها في نفسه . فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثل عرشهم ، وأكفيت عليهم سماؤهم ، وخسفت الأرض بهم وبدارهم ، وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين أيامهم . ومن تأمل أخبارهم ، واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الأثر ممهد الأسباب .

وابن خلدون على حق في كل ما قال ، فإنه يستبعد قطعاً أن يكون الرشيد قد أطلق العنان لأخته لتجلس إليه مع جعفر، وحلل ذلك بعقد الزواج بين الاثنين ، واشترط عدم الخلوة ، فهذا كله كلام شعبي يقال في الأسواق ، وما كان ينبغي قط للطبري أن يرويه على هذه الصورة ؛ ففيه ـ كما ترى ـ مهانة بليغة لامرأة جليلة من آل البيت .

ولكننا نسأل : وكيف كان الرشيد يبيح لنفسه الحرية في أن يعطي وزراءه من البرامكة هذا السلطان كله لو كان هناك قانون أساسي أو دستور يحدد حقوقه وحرياته ؟ وهل يجوز اليوم أن يرتكب رئيس دولة هذه الأخطاء وهناك دستور يحدد كل شيء ؟ والغريب مع ذلك أن الرشيد بعد أن ارتكب هذه الجناية الفظيعة ـ جناية قتل جعفر والقضاء على البرامكة وأولادهم ومصادرة أموالهم دون تحقيق ـ الغريب أنه بعد أن فعل ذلك لم تتحسن الأحوال المالية في الدولة ، وإذا كان الرشيد قبل نكبة البرامكة يطلب المال القليل فلا يصل إليه فإنه بعد ذلك كان يطلب أقل من القليل فلا يجده . والسبب في ذلك هو أن البرامكة ـ برغم كل ما كان يقال عنهم ـ كانوا رجال مال ممتازين ، وإذا كانوا قد تصرفوا بتدلل مع الرشيد فإنهم كانوا ـ من الناحية المالية ـ في غاية المهارة ، والدولة العباسية كانت تعاني منذ قيامها أزمة مالية لم ينقذها منها إلا البرامكة ، فلما ذهب البرامكة ظهر الإفلاس المطلق .

ومما يؤكد ما قلناه من أن هذه حكايات أسواق اندست في كتب التاريخ هذا الخبر الذي يرويه أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة في كتاب « الإمامة والسياسة » ونحن نعرف أن هذا الكتاب مشكوك في مادته ؛ فقد أدخل الرواة فيه أخباراً غريبة وأجزاء من كتب أخرى ، ولكن الخبر التالي في ظاهره الأصالة ، أي أننا نرى أن ابن قتيبة رواه فعلاً في كتابه قال : قال سهل (بن هارون) : قلت لبعض من أثق بوفائه ، وأعتقد صدق إخائه من خصيان القصر المتقدمين عند أمير المؤمنين (الرشيد) المتمكنين من كل ما يكون لديه : ما الذي نعى جعفر البرمكي وذويه عند أمير المؤمنين ؟ وما كان من ذنبه الذي لم يسعه عفوه ولم يأت عليه رضاه ؟ فقال : لم يكن له جرم ولا لديه ذنب ، كان والله جعفر على ما عرفته عليه وفهمته عنه من اكتمال خصال الخير ونزاهة النفس من كل مكروه ومحذور ، إلا أن القضاء السابق والقدر النافذ لابد منه ، كان من أكرم الخلق على أمير المؤمنين ، وأقربهم منه . وكان أعظمهم قدراً وأوجبهم حقاً . فلما علم ذلك من حسن رأى أمير المؤمنين فيه وشديد محبته له استأذنته أخته ، وهي بنت المهدي ، وشقيقته في إتحاف جعفر ومهاداته ، فأذن لها ، وكانت قد استعدت له بالجواري الرائعات والقينات الفاتنات ، فتبعث له كل جمعة بكراً يفضها ، إلى ما يصنع له من ألوان الطعام والشراب والفاكهة وأنواع الكسوة والطيب . كل ذلك بمعرفة أمير المؤمنين

ورايه ، فاستمرت بذلك زماناً ومضت به أعواماً ، فلما كانت جمعة من الجمع دخلها جعفر القصر الذى استعدت به ، ولم يرع جعفر إلا بقاخته ابنة المهدى فى القصر كأنها جارية من الجوارى اللاتى كن يهدين إليه ، فأصاب منها لذته وقضى حاجته .



الفصل الحادى عشر

لقد ظلمنا الأمين وأسأنا إليه لأنه عربى !

أتابع رواية نص كتاب « الإمامة والسياسة » الذى بدأته فى مقالى الماضى ، قال ابن قتيبة : فأصاب منها لذته وقضى حاجته ، ولا علم له بذلك ، فلما كان المساء ، وهم بالانصراف أعلمته بنفسها وعرفته بأمرها ، وأطلعته على شديد هواها ، وإفراط محبتها له ، فازداد بها كلفاً ، وبها حباً ، ثم استعفاها من المعاودة إلى ذلك ، وانقبض عما كان يناله من جواريها ، واعتذر بالعلة والمرض . فأعلم جعفر أباه يحيى ، فقال له : يا بنى ، أعلم أمير المؤمنين بما كان معجلاً ، وإلا فاذن لى فأعلمه ، فإنى أخاف علينا يوم سوء إن تأخر هذا ، ويبلغه من غيرنا . وإعلامك له فى هذا الوقت يسقط عنا ذلك الذنب ، فهى أحق بالعقوبة منك .

قال جعفر : لا والله لا أعلمته بذلك أبداً ، فالموت علىَّ أيسر منه ، وأرجو الله ألا يطلعه أحد ، فقال له يحيى : لا تظن هذا يخفى عليه ، فأطعنى اليوم وأعلمه ، فقال جعفر : والله لا أفعل

هذا أبداً ، ولا أتكلم بـه والله أسـتـعين . فلم يرع الرشـيـد إلا أن رفـعت إليه جـارية من جـواريهـا رقعـة ، وأعلمت ذلك فـيهـا ، فاستحق ذلك عند الرشيد باستعفاء جعفر عما كان من إتحافها ، واعتذاره بالعلة من غير مـرض ينهكه ، فغفل عنه الرشيد ، ولم ير لذلك جفوة ، ولا زاد له إلا كرامة ، ولا لديه إلا حرمة ورفعة ، حتى قـرب وقت الهلاك ، ودنا منقلب الحتف والله أعلم (الإمامة والسياسة ١٧٢ ـ ١٧٣) .

وهذه المرة نحن لسنا أمام العـباسـة ، بل أمام أخت أخـرى لهارون الـرشيد هي فـاختـة ، وكانت شـقيـقة الرشـيد ، وهذه الأخرى ـ كمـا تزعم هذه القصة ـ وقعت في جعـفر هذا ورغبت فيه حتى احتالت بهذه الحيلة الـعـجيبة التي رأيتها في القصة . وصاحب القصة معجب به يثني على فضائله وإخلاصه للرشيد حتى إن فاختة هذه رأت أنها إذا كان ولابد أن تجتمع بهذا الرجل فليس أمامها إلا أن تحتال لذلك ، فـاستأذنت أخاها في أن تتحف جعفراً بالـهدايا ، ثم مضت ترسل إليه الجواري الرائعات أسبوعاً بعد أسبوع ، وهو كلما وصلته واحدة وقع بها ، ثم دست نفسها ذات جمعة مكان جارية ؛ ليقع بها دون أن يعلم ، ولابد أنها هي الأخرى كانت رائعة الجمال حتى ظـن جعفر أنها إحدى بديعات الجـواري اللاتي كن يُرْسَلْنَ إليـه ، والإنسان مـنا يتعـجب : إذا كانت أخوات الرشيد بهذا الجمال فما الذي وقف بهن عن الزواج وجعلهن يتـهافتن على جعـفر هذا كأنه الفـتـى الذي ليس بعده

فتى ، ولا تراه امرأة إلا وقعت فيه ؟ وهذا أمر مستبعد ، فما ذكر أحد من المؤرخين أنه كان بهذا الجمال ، ولكن راوية هذا الخبر يعجب بجعفر ، ويرى أنه أتى من باب سوء الحظ ، فما كان لينال شيئاً من أخت الرشيد لولا احتيالها عليه ، بل إن هارون الرشيد نفسه لم يغضب عليه بسبب ما وقع لفاختة ؛ لأنه رأى أن الرجل برىء من الذنب ، فما كان يعرف أن هذه أخت الرشيد إلا بعد أن وقع ما وقع .

هذه - إذن - حكايات أشبه بحكايات ألف ليلة تناقلها الناس فى الأسواق ، ثم اندست فى كتب المؤرخين فرواها الطبرى وابن قتيبة وغيرهما ، وقد اجتهد ابن خلدون فى الدفاع عن العباسة ، ولكنه تمسك بمسألة الأصل ، وقال إن العباسة ما كانت لتخطئ هذا الخطأ لأصلها الرفيع ، فهى حفيدة ابن عباس ، وأخت هارون أمير المؤمنين ، وهذا دفاع غير قاطع ؛ لأن المرأة قد تكون من أشرف الأصول ، ولكنها تزل مع ذلك ، وإنما يكون الدفاع من جهة المعقولية ، فما الذى يجعل هارون يزوج أخته العباسة من ذلك الرجل ، ثم يشترط عليهما عدم الخلوة ؟ ومادامت قد أصبحت امرأته شرعاً فكيف يمنع منها ؟ ثم ما الذى جعل فاختة تدبر هذا التدبير كله إذا كانت امرأة بارعة الجمال تستطيع أن تتزوج ممن تريد من علية القوم دون أن تترامى بهذه الصورة المهينة على مولى من موالى أخيها ؟ الحق أن هذه كلها حكايات مكذوبة تسىء إلينا وإلى خلفائنا دون أى مبرر لذلك ، وكان

أولى بالمؤرخين أن يتحاشوا مثل هذه الإساءة إلينا إذا كانوا على شيء من بعد النظر وصدق الإحساس بالعروبة والإسلام ، وإذا كان ولابد أن يرووها فلينبهوا إلى أنها حكايات مما يجرى على ألسن العوام في الأسواق ويستبعدون صحتها .

وننتقل الآن إلى موضوع آخر من موضوعات التاريخ الإسلامي التي أفسدها المؤرخون بسوء الرواية ، أو برواية الأخبار دون تحقق ودون نظر إلى ما فيه خير المسلمين .فننتقل إلى خبر الأمين والمأمون وما كان بينهما من حروب .

والقصة الشائعة تقول : إن محمداً الأمين - الذى خلف أباه هارون الرشيد بعهد منه - كان رجلاً فاسداً قليل العقل سيء التصرف ، وإن العداوة والحرب والتنافس إذا كان قد وقع بينه وبين أخيه المأمون فإن المسئولية تقع عليه وحده ، فهو الغادر الذى خالف عهد أبيه بأن تكون الخلافة أولاً لمحمد الأمين ، فإذا مات انتقلت إلى أخيه عبد الله المأمون ، ومن بعده إلى أخيهما الثالث أبو القاسم المعتصم ، أما المأمون فقد كان بحسب ما تقوله كتب تاريخنا عاقلاً أميناً محافظاً على عهد أبيه حتى جاءت الخيانة من ناحية أخيه ، وعندما نقرأ ما بين أيدينا من نصوص فإننا نجد أن الحقيقة كانت بخلاف ذلك ، وأننا في الحقيقة نقرأ كلاماً موجهاً توجيهاً خاصاً ، هدفه تشويه صورة الأمين خدمة لأخيه المأمون ، ولابد أن نذكر أولاً - وهذا مهم جداً - أن الأمين عربي ، فهو ابن السيدة زبيدة العربية الهاشمية ، في

حين أن أخاه المأمون كان نصف عربي ، فإذا كان أبوه هو هارون الرشيد فإن أمه « مراجل » مولاة إيرانية ، والإيرانيون يعتبرونها أميرة فارسية ويتحمسون لها ، بالضبط كما فعلوا مع الحسين بن على - رضى الله تعالى عنه - عندما زعموا أنه خليفة الأكاسرة الفرس ؛ لأن أمه أميرة فارسية تزوجها على بن أبي طالب رضى الله عنه .

وأمثال هذه التشويهات كثيرة في كتب التاريخ الإسلامي، ومصدرها دائماً هم الفرس ؛ لأن هؤلاء الفرس عز عليهم أن ينتصر العرب البدو الصحراويون على الأكاسرة ويزيلوا دولتهم ويجعلوا دولة العرب والمسلمين مكانها ، وهؤلاء الفرس لم يكونوا مخلصين للأكاسرة الساسانيين ، ولم يكونوا من المعجبين بهم بصورة مطلقة ؛ فإن الأكاسرة لم يكونوا في جموعهم ملوكاً منصفين أو عادلين أو محسنين ، ولكنها العصبية الفارسية على العرب . وهى ظاهرة تاريخية تنبه لها بعض الأذكياء من مفكرى الإسلام ، منهم أبو محمد على بن أحمد بن حزم الأندلسى ، فقد قال ذلك صراحة في كتابه «الفصل في الأخبار والملل والنحل »

ونرجع الآن إلى كتبنا التاريخية لنرى كيف تصور لنا محمداً الأمين ومسئوليته عن الخلاف الذى وقع بينه وبين أخيه، فنقرأ في تاريخ الطبرى (٨ / ٥٠٨) : ذكر عن حميد بن سعيد قال : لما ملك كاتبه المأمون وأعطاه بيعته وطلب الخصيان

وأتباعهم ، وغالى بهم ، وصيرهم لخلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه ، وأمره ونهيه ، وفرض لهم فرضاً سماهم الجرادية ، وفرضاً من الحبشان سماهم الغرابية ، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رمى بهن ... قال حميد : ولما ملك محمد وجه إلى جميع البلدان فى طلب الملهين ، وضمهم إليه وأجرى لهم الأرزاق ، ونافس فى ابتياع فره الدواب ، وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك ، واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم ، وقسم ما فى بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر فى خصيانه وجلسائه ومحدثيه ، وحمل إليه ما كان فى الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلى ورقة كلواذى وباب الأنبار وبتادرى والهوب ، وأمر بعمل خمس حراقات فى دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس ، وأنفق فى عملها مالاً عظيماً ، فقال أبو نواس يمدحه .. إلخ .

فهل كان محمد الأمين فعلاً كذلك ؟ وإذا كان على هذه الصورة من قلة العقل وانعدام الكفاية فهل كان ذلك كله خافياً على أبيه الرشيد فبايع لابنه بالخلافة دون أن يعلم حقيقة أمره فلم ينكشف هذا كله إلا بعد وفاة أبيه ؟

تعالوا ندرس محمداً الأمين بشىء من التروى ، لنرى إن كان

من الممكن أن يكون فعلاً على هذه الصورة أو أنها كانت صورة زائفة أذاعتها عنه دعاية خاصة لتشويه صورته والإساءة إليه؟
وقبل أن نمضي في هذا التحقيق نسأل : ما هي حكاية هذه الحراقات التي أمر الأمين بصنعها وإطلاقها في نهر دجلة . إن لفظ الحراقة يطلق على نوعين من السفن كما نقرأ في المعجم الوسيط (١ /١٦٨) فهي (ضرب من السفن فيها مرامي نيران ترمي بها العدو في البحر - وسفينة خفيفة) وحيث إن الأمين عمل هذه المراكب للتنزه في نهر دجلة فلابد أن المراد هنا هي السفن الخفيفة أي مراكب النهر التي تزين مقدماتها أو مؤخراتها بصورة أسد من الخشب أو الفيل أو العقاب أو الحية أو الفرس ، وهي - على هذا - ليست ضخمة أو كثيرة التكاليف كما يفهم م النص ، وإنما أشياء عادية وقليلة التكاليف مما يستمتع ب بعض الأغنياء . وهو على هذا لم ينفق في عملها مالاً عظيماً كما يقول نص الطبري ، أو كما يفهم من شعر أبي نواس فيها ، وأبو نواس على أي حال شاعر تعجبه هذه المناسبات يقول فيها ما يشاء من الشعر ، ولكن المؤرخ لا يعتمد هنا على كلامه أو يعول عليه .

والآن ، فلنلق نظرة على محمد الأمين من أول ولايته وينبغي أن نلاحظ أن الأمين والمأمون كانا في سن واحدة تقريباً، فإنهما ولدا سنة ١٧٠هـ / ٧٨٦ م ، وهي السنة التي تولى فيها هارون الرشيد الخلافة ، وعبد الله المأمون ولد قبل

أخيه محمد الأمين بستة أشهر ، فليس هنا ـ كما ترى ـ كبير أو صغير ، ولا يمكن أن يقال : إن هارون الرشيد تخطى الكبير وبايع للأصغر ، فإن ستة أشهر هجرية ليست بفارق سن يذكر، وإنما الرشيد رأى أن ابنه العربي الصريح ، أى المولود من أب عربي هاشمي وأم عربية هاشمية أولى بالتقديم ففعل . ولكن الخطأ الحقيقي وسبب البلاء الأكبر كان ذلك العهد والميثاق الغريب الذى كتبه الرشيد بين الأخوين وأشهد عليه الناس ، فهذا في الحقيقة ليس بنص ولاية عهد أو وثيقة تنظيم داخلى للدولة . وإنما هو كان في الحقيقة تقسيماً للدولة قسمين بين رجلين ، ولا يجوز لأحد منهما أن يمس الآخر ، وإذا نحن قرأنا مليّاً وجدنا أنفسنا أمام أسوأ عهد من نوعه كتبه خليفة ، وهارون الرشيد يلام على صياغته على هذا النحو لوماً شديداً ، ويمكن أن يقال : إنه كان هو نفسه أكبر أسباب الخلاف بين ابنيه ، فإن نص ولاية العهد لابنيه محمد الأمين ثم عبد الله المأمون لم يكن في الحقيقة نص ولاية عهد ، بل كان فى الحقيقة تقسيماً للدولة بين الأخوين تقسيماً تاماً . فللمأمون كل أرض الدولة من الرى (وهى مكان طهران تقريباً ، وهى أول خراسان غرباً) إلى آخر حدود خراسان شرقاً ، وللأمين الباقى ، فإذا توفي الأمين ورثه المأمون فى كل ما بيده إرثاً شرعياً مقرراً .

وما دمت قد ذكرت لك أن الأخوين كانا في سن واحدة تقريباً فإنه ـ والاعمار دائماً بيد الله ـ كان يستبعد أن يرث

أحدهما الآخر ، خاصة أنهما ولدا سنة ١٧٠هـ / ٧٨٦م وتوفى أبوهما الرشيد سنة ١٩٣هـ / ٨٠٨م فكانت سنهما عندما توفى الأب ثلاثاً وعشرين سنة هجرية ، واثنتين وعشرين سنة ميلادية ، وهذه سن صغيرة جداً بالنسبة للمسئوليات الجسيمة التى حملها كل من الاثنين ، فإذا فكرنا أن كلا منهما كان محوطاً برجال من صنائعه ممن يحسنون له كل ما يرون أنه من صالحهم - وليس من الضرورى أن يكون من صالحه - تبينًا أن بذور الخلاف قد وضعت بالفعل بين الأميرين من يوم هذه البيعة المشئومة ، خاصة أن كلا من الشابين كان له وزير أنانى شرير لم يدخر وسعا فى تزيين الشر له ودفعه إلى الخلاف مع أخيه .

ولا يتسع المجال هنا لكى آتيك بنص ولاية العهد وتقسيمها بين ابنى الرشيد محمد (الأمين) وعبد الله (المأمون) ثم أضيف إليهما بعد ست سنوات (أبو القاسم المعتصم) فهو نص طويل جداً . وهو عندك فى تاريخ الطبرى تستطيع أن تقراه (٨ / ٢٧٨ - ٢٨١) ولكن إليك فقرة واحدة منه فحسب ، وهى وحدها تدلك على خطورة هذا العهد الذى أخطأ الرشيد وكتبه بين ابنيه، تقول الوثيقة : .. فإن حدث بأمير المؤمنين (الرشيد) حدث الموت وأفضت الخلافة إلى محمد ابن أمير المؤمنين فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين فى تولية عبد الله أخيه أمير المؤمنين خراسان وثغورها ومن ضم إليه أمير المؤمنين

بعرماسين (اسم موضع) وأن يمضى عبد الله ابن أمير المؤمنين إلى خراسان والرى والكور التى سماها أمير المؤمنين .

حيث كان عبد الله أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره من سلطان أمير المؤمنين وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحب من لدن الرىّ إلىٰ اقصى عمل خراسان . فليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عنه قائداً ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً ممن ضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين ، ولا يحول عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التى ولاه إياها هارون من ثغور خراسان وأعمالها كلها ما بين عمل الرى مما يلى همذان إلى أقصى خراسان وثغورها وبلادها وما هو منسوب إليها ، ولا يشخصه (أى يستدعيه إلى بلاطه) ولا يفرق أحداً من أصحابه وقواده عنه ، ولايولى عليه أحداً ، ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله ولا على أحد من ولاة أموره بحذاراً (مراقباً) ولا محاسباً ولا عاملاً ، ولا يدخل عليه فى صغير من أمره ولا كبير ضرراً ، ولا يحول بينه وبين العمل فى ذلك كله برأيه وتدبيره ، ولا يعرض ممن ضم إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابته وقضاته وعماله وكتابه وقواده وخدمه ومواليه وجنده بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم فى أنفسهم ولا قرابتهم ولا أحد بسبيل منهم ، ولا فى دمائهم ولا فى أموالهم ولا فى ضياعهم ودورهم ورباعهم وأمتعتهم ورقيقهم ودوابهم شيئاً من ذلك صغيراً ولا كبيراً . إلى آخر هذا الميثاق الذى يبدو لمن يقرؤه وكأنه تحد أو دفع إلى المعصية والخلاف .

فمـا معنى هذا التحـفظ والاحتيـاط كله إلا إذا كانت القلوب حـافلة بالشر ودوافع الغـدر ؟ وإذا نحـن علمنا أن هذا العـهـد يتضمن فقرة كاملة على المأمون تشترط عليه وتتحفظ منه بقدر مـا اشـتـرطت على الأمين رأينـا أن المسـألة فى ذاتهـا كـانت مستحيلـة .

ولماذا هى مستحيلة ؟

لأن أهم شيء فى مثل هذه العـهود هو حسن النية وسـلامة السـريرة ، وسـتـرى بعـد قليل أن القلوب كـانت عـامرة بالشر وسوء النيـة ، وسيبدو لنا بعـد قليل أن الرشيد كـان على علم ببواطن الأمور وإلا ما تحفظ هذا التحفظ كله .

وأسوأ ما فى الموضوع هو أن الرشيـد كتب هذا العـهد الدقيق بين شـابين أو غـلامين دون أى تجـربة ، وسنـرى بعـد قليل أن وزراءهما ورجالـهما كانوا من عـقارب أهل السياسـة والخدمة ، وأنهم سيلعبون بهما لعباً .

إذن فما الذى كان ينبغى عمله فى مثل هذه الظروف ؟

إذا كان لأميرالمؤمنين ابنان متقاربان على هذه الصورة فماذا كـان ينبغى أن يفـعله بدلاً من ذلك العـهد الذى كـتب وترك فى أيدى غـلامين ؛ ليكون كل منهمـا حرّا كل الحـرية فى تصرفـاته ورقيباً على نفسه فى نفس الوقت ؟

الذى كـان على الرشيـد أن يعمله مكان هذا التـعهد الذى لا معنى له هو أن يكون للدولة مجلس أعلى من ذوى الحل والعقد

والرأي والعلم من القواد والوزراء والعلماء والفقهاء هو الذي يتولى التوسط والفصل بين هذين الأخوين والتوسط بينهما إذا وقع شيء ولم يكن هناك معنى لكتابة مثل هذا العهد ، وإنما هو قانون للخلافة يكون بين أيدى رجال هذا المجلس ، وتكون بأيديهم أيضاً القوة العسكرية ، ويكون الخليفة المعين تحت إشراف هذا المجلس الذى يوجهه في كل أعماله ، ويرأس الخليفة وأهل بيته جميعاً فلا يكون عبد الله المأمون مستقلاً بنفسه في خراسان وكل ما يليها شرقاً مستقلاً بنفسه وكأنه سلطان ، ولا يكون هناك أى معنى لهذا التحفظ كله .

ومعنى هذا هو أننى أعود فأقول : إن الشيء الأساسي الذى نقص نظام الدولة عندنا هو القانون الأساسي أو الدستور الذى يحدد الحقوق والواجبات ، ويحفظ حقوق الحاكمين والمحكومين ، أما الحكم على هذه الصورة فهو استبداد مهما اشترطت على محمد الأمين للمحافظة على حق أخيه ، وسنرى أن المأمون ـ لظروف سنشرحها ـ كان يدبر لا نتزاع الخلافة من أيدى أخيه من أول الأمر ؛ لأن المسألة لم تكن مسألة الأمين والمأمون فحسب ، بل كانت مسألة الفرس والعرب ؛ فإن عبد الله ،المأمون كان ابن جارية فارسية تسمى مراجل ، والفرس قالوا إنهم أخواله ، وكانت البيعة له بولاية العهد لأخيه وسنه ثلاث عشرة سنة ، أى غلام ، ونشأ عبد الله بين أيديهم ، فقرر أصحاب الأمر منهم من حوله أن يستعملوه ؛ لينتزعوا الخلافة من أيدى العرب .

الفصل الثاني عشر

وتعصبنا للمأمون لأن الدعاية الفارسية أرادت ذلك!

الفكرة السائدة لدينا تقول : إن محمداً الأمين هو الذى بد بخيانة العهد الذى كتبه أبوه هارون الرشيد بينه وبين أخيه عبد الله المأمون ، وإنه هو الذى بدأ فعزل أخاه عبد الله المأمون عن خراسان وعن خلافته في العرش ، والمأمون في هذه الحالة رجل أمين معتدى عليه ، ولولا غدر أخيه به لما وقعت الحرب بينهما . فلننظر فى النصوص لنرى حقيقة هذا الموضوع .

يقول اليعقوبي (٢ / ٤٣٦) دون سند — أى أنه هو المسئول عن ذلك الخبر : فأفسد قوم قلب محمد (الأمين) على المأمون وأوقعوا بينهما الشر ، وكان الذى يحرضه على بن عيسى بن ماهان والفضل بن الربيع ، وزينا له أن يبايع لابنه بولاية العهد من بعده ، ويخلع المأمون ، ففعل ذلك وبايع لابنه موسى لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٩٤هـ ، وجمع العهود التى كان قد كتبها الرشيد بينهما فحرقها ، وجرت الوحشة بينهما ، وكتب محمد إلى المأمون يأمره بالقدوم عليه في جميع القواد ، فكتب إليه يعلمه أنه لا سمع عليه فى هذا ولا

طاعة ، فكتب إلي من بخراسان من القواد فأجابوه بمثل ذلك ، وقالوا : إنما يلزمنا لك الوفاء إذا وفيت لأخيك ، وأنت قد نقضت العهود ، وأحدثت الأحداث ، واستخففت بالأيمان والمواثيق (٢ / ٤٣٦) ..

والحقيقة أن هذين الشابين عندما خلا كل منهما إلى نفسه في ناحية لم يجد حوله إلا عملاء السوء الذين يزين كل منهم له الغدر بأخيه ، وهذا لا يفهم من الطبرى واليعقوبي بقدر ما يفهم من ابن الأثير ، ويستوقف النظر أن اليعقوبي يذكر هنا (٢ / ٤٣١) فوق الخمسة والعشرين من أجلاء الفقهاء ، فلا فكر الرشيد في أن يستشير فقيهاً ، ولا فكر فقيه منهم في الإشارة عليه برأى ، ويبدو هنا بوضوح أن القطيعة كانت كاملة في مسائل الحكم بين رجال الفقه والعلم من ناحية ، ورجال السياسة من ناحية أخرى ، وهذه ظاهرة يسأل عنها الأمويون ، فهم كانوا أول من ابتعد بالسياسة عن أهل الفقه والعلم والدين، وجعلوا أمور السياسة كلها في أيدى أنصارهم من رجال الحرب والسياسة ، بل كان للخدم والرقيق والجوارى أثر في السياسة أكثر مما كان للفقهاء . وقد كان ينتظر أن يهدم العباسيون هذا الحائل المنيع بين السياسة من ناحية ، ورجال الفقه والعلم والدين من ناحية أخرى ، ولكنهم عندما صارت إليهم الخلافة بتعدوا هم الآخرون عن رجال العلم والدين ، وكان عمادهم على رجال السياسة والحرب ، بل الخدم والرقيق من انصارهم طبعاً،

حتى هارون الرشيد ـ وهو أقرب رجال بني العباس الأوائل إلى الدين ـ نجده لا يدخل واحداً من أهل الفقه في هذا العهد الذى كتبه بين ابنيه ، ما عدا الشهادة ، ومن ناحية أخرى نلاحظ أن رجال الدين والفقه يحرصون على الابتعاد عن السياسة وأهلها محافظة على دينهم وسمعتهم ، بل إنهم كانوا يرون أن اقتراب رجل العلم من السلاطين ومداخلتهم أمر يمس سمعته وأخلاقه ودينه ، وقد حاول ابن المقفع أن يهدم هذا الحاجز بين الدين والسياسة في كتابه « الصحابة » وأشار إلى أن الحاكم ينبغي أن يجمع أهل العلم ويستشيرهم ويحفزهم على كتابة قانون أساسي للدولة ، وأن يجعل للسلطان نصيباً في التشريع بحيث لا يصح مثلاً قانون إلا بموافقة السلطان ، فكره الفقهاء منه هذا الرأى وأنكروه إنكاراً شديداً ، كان ما رأوه من أعمال الأمويين جعلهم يحرصون على المحافظة على الفقه والشريعة وعلى القضاة وأحكامهم ، لا القضاة أنفسهم ، بعيدة كل البعد عن السياسة ورجالها ، وبالفعل نجح الفقهاء في الاحتفاظ بالفقه والشريعة بعيدة عن سلطان الحكومات ، بل إن التعليم نفسه ظل بعيداً عن سلطان الدولة ، فمن يرد أن يتعلم كان له ذلك في الكتاتيب والمساجد ، ومن أراد مواصلة العلم استمر في الدراسة على أيدى كبار الفقهاء والعلماء حتى يحصل الواحد منهم على الإجازة التي تجعله أهلاً لتولى القضاء ، فإذا أراد السلطان اختيار قاض وإقامته في العاصمة أو في أى ناحية من نواحي

الدولة اختاره من أولئك الذين علمتهم الأمة وجعلتهم أهلاً للقضاء بعيداً عن أى سلطان من الدولة ، فإذا أصبح واحد منهم قاضياً لم يكن للسلطان دخل في أحكامه ، وإنما القاضي مستقل بنفسه في أحكامه ، لا رقيب عليه في ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

ويقال : إن هذه المحاولة من جانب ابن المقفع كانت بعض السبب في موته مقتولاً على الصورة الأسيفة التى مات بها ، فإنهم كرهوه وكانوا بين من سعى عليه ودبر موته .

ونلاحظ أن وزير المأمون وصاحب رأيه كان فارسي الأصل ، وهو الفضل بن سهل الملقب بذى الرئاستين ، وهذا الرجل كان منذ البداية كارهاً للعرب ، وراغباً في نزع الخلافة من الأمين العربي وجعلها في المأمون الذى كان يراه فارسيّاً أو نصف فارسي ، فإن أمه مراجل الفارسية ، وكان يصفه بأنه ابن أختهم، أما الأمين فكان عربياً هاشمياً صرْفاً ، فإن أباه هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر الأكبر بن أبي جعفر (المنصور) فهو هاشمي من الأب والأم ، ويقال : إنه لم يوجد في بني هاشم هاشمي من طرفيه إلا عليّ بن أبي طالب ومحمد الأمين هذا .

والمؤرخون جميعاً يقولون : إن الأمين هو الذى بدأ بخيانة أخيه ومخالفة العهد الذى كان أبوه قد كتبه بينهما ، ولكن لطبرى يروى الخبر التالى (٨ / ٣٧٠) : « وذكر الحسن

الحاجب أن الفضل بن سهل أخبره قال : استقبل الرشيد (وهو مريض مرض الموت قريباً من طوس) وجوه أهل خراسان ، وفيهم الحسين بن مصعب قال : ولقيني فقال (الفضل بن سهل) لي : الرشيد ميت أحد هذين اليومين ، وأمر محمد بن الرشيد ضعيف ، والأمر أمر صاحبك (يريد عبد الله المأمون) مد يدك ، فمد يده فبايع للمأمون بالخلافة ، قال : ثم أتاني بعد أيام ومعه الخليل بن هشام فقال : هذا ابن أخي وهو لك ثقة ، خذ بيعته ، ومعني ذلك أنه حتي قبل أن يموت الرشيد كان الفضل بن سه وهو وزير المأمون وصاحب رأيه وهو فارسي - يرى أن تكو الخلافة لصاحبه المأمون ؛ لأن أمر محمد (الأمين) ضعيف فيم رأى ، بل هو بايع للمأمون بالخلافة ، وأخذ يدعو الناس ليبايعوا للمأمون قبل أن يموت الرشيد .

إذن فالبداية بخيانة العهد ومخالفة الميثاق كانت من ناحية المأمون ورجاله أولاً ، لا من ناحية محمد الأمين كما يظن معظم الناس .

ويستوقف نظرنا أن الرشيد الذى حرص على أن يكون قضاته شهوداً على العهد الذى كتبه بين ابنيه وأخذ موافقتهما عليه في بطن الكعبة لم يشأ أن يجعل للقضاة وأهل الفقه والعلم ووجوه الناس أى دخل في تطبيق هذا العهد ، مما يدل أنه مثله في ذلك مثل كل أهل الدول الحاكمة في تاريخنا ، لم يكونوا يريدون أن يكون للناس من غير وزرائهم وجندهم

وخدمهم يد في شئون الحكم ، ولا يمكن القول هنا بأن هذه الفكرة لم تخطر على بال الرشيد ؛ فهي بديهية ويستبعد أن تكون قد غابت عن ذهن الرشيد ، ولكن رجال الدول عندنا كانوا حريصين جدًا على ألا يكون لأهل الرأى من أهل البلاد دخل في الحكم أو السلطان ، وهذا كان من أكبر أسباب ضعف هذه الدول جميعاً وسرعة تفككها وسقوطها ، وإليك الخبر كما يرويه الطبرى قال (٨ / ٢٨٥) : فلما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كله في داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة أمر قضاته الذين شهدوا عليهما وحضروا كتابهما أن يعلموا كل من حضر الموسم من الحجاج والعمار ووفود الأمصار ما شهدوا عليه من شرطهما وكتابهما وقراءة ذلك عليهم ؛ ليفهموه ويعوه ويعرفوه ويحفظوه ويؤدوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم ، ففعلوا ذلك وقرئ عليهم الشرطان جميعاً في المسجد الحرام ، فانصرفوا وقد اشتهر ذلك عندهم وأثبتوا الشهادة عليه ، وعرفوا نظر أمير المؤمنين وعنايته بصلاحهم وحقن دمائهم ولم شعثهم وإطفاء جمرة أعداء الله وأعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم ، وأظهروا الدعاء لأمير المؤمنين والشكر لما كان نه في ذلك . إذن فقد كان كل ما للقضاة ـ وهم رؤساء الناس أهل الرأى وبقية الناس في ذلك كله ـ هو مجرد الشهادة لعرفة به وإذاعته في الناس ، وهل يجدى من ذلك كله شيء ؟ ن السياسة أو السلطان السياسى لا يكون إلا إذا كانت تؤيده

قوة فعلية من أهل العلم والرأى ثم عامة الناس ، لا مجرد الشهادة والمعرفة ، وقد رأينا أن الفضل بن سهل وزير المأمون الفارسي كان قد قرر حتى قبل أن يموت الرشيد أن تكون الخلافة من بعده للمأمون الذى كان الفرس يلقبونه بابن أختهم ، وكذلك كان طاهر بن الحسين بن مصعب البوشنجي وهو فارسى الأصل ، وهو الذى سينشئ الدولة الطاهرية أيام المأمون ، وهو كان يلي الفضل بن سهل في بلاط المأمون من ناحية القوة السياسية ، وفي هذه الحال لا تنفع شهادة الفقهاء والقضاة وبقية الناس في شيء كما حدث بالفعل ؛ لأن أصحاب الدول عندنا كانوا غيورين جداً على سلطانهم ، لايرضون بأن يكون للناس فيه أى نصيب إلا إذا كان رجالهم من وزراء وكتاب وحجاب وجند وخدم .

بل كان كل رجال الدولة يعرفون ذلك ولا يؤمنون بشيء مما ورد في العهد الذى كتبه الرشيد بين ابنيه ، فقد كان مع عبد الله المأمون نفر من القواد والجند ، بمجرد أن علموا بوفاة الرشيد نراهم يتركون المأمون ويسرعون إلى بغداد مخالفين بذلك ما عهد إليهم فيه الرشيد من لزوم المأمون والبقاء إلى جانبه ، ويقول في ذلك الطبرى (٨ / ٣٧٠) : قال (يريد الطبرى) : ولما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد بطوس من القواد والجند وأولاد هارون تشاوروا في اللحاق بمحمد . (الأمين) فقال الفضل بن الربيع (الذى سيصبح وزير الأمين

ورجله الأول وهو عربى) : لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدرى ما يكون من أمره ، وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك محبة منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد ، وتركوا العهود التى كانت قد أخذت عليهم للمأمون ، فانتهى الخبر بذلك من أمرهم إلى المأمون (بمرو ..) .

وهذا الفضل بن الربيع - الذى كان ينبغى أن يكون من رجال المأمون سيكون كبير رؤساء الناس فى حربه قائداً ووزيراً للأمين .

وهذا هو طراز رجال السياسة فى ذلك العهد : لا ذمة ولا عهد ولا ضمير ، ومع ذلك فقد كانوا هم رجال الرشيد ورجال أولاده ! أما القضاة والفقهاء والعلماء وأعيان الناس فلم يكن لهم من ذلك كله إلا الشهادة ، وكان ينبغى على الرشيد أن يجعل القوة والسلطان فى أهل العلم والدين وأعيان الناس ، لا فى رجال السياسة ، وقد رأينا كبارهم : الفضل بن سهل الذى بايع للمأمون قبل أن يموت الرشيد ، والفضل بن الربيع الذى فضل أن يخالف عهد الرشيد وترك المأمون وأسرع إلى الأمين وهو تول : « لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدرى ما يكون من أمره » ، الناس بالرحيل .. فرحلوا ، فهم كما نرى أهل مصلحة ة ، وهم أنانيون لا يؤمنون على شىء . وهذا يدلنا على أن ـه الرشيد من كتابة العهد بين ابنيه وإشهاد الناس عليه لم ، له أية قيمة من الناحية الفعلية ؛ لأن رجال السياسة

والحرب في تلك الأيام كانوا من أسوأ الناس أخلاقاً وأفسدهم ضميراً ؛ لأن السياسة كلها كانت قد انفصلت بكل رجالها عن الأمة والناس ، وكذلك كان رجالها ، وهم عندما فعلوا ذلك فقدوا الأخلاق والضمير ، ولم يكن على أحد منهم سلطان إلا صالحه وصالح سادته من رجال السياسة والحكم ، وهؤلاء كانوا في الغالب من أبعد الناس عن الدين والأخلاق ؛ لأن الأخلاق تكون من عند الله ، ولكن الشعب هو الذى يؤيدها ، وهو المؤمن بها الشاهد عليها ، ولن تعود الأخلاق إلى رجال السياسة عندنا إلا في العصر الحديث عندما يذكرنا أهل الغرب أن الأمم هي أصل الحقوق ، ورجالها هم الرقباء على الخير والفضل ، وهذا هو ما يتجلى في الدساتير .

والآن فلننظر كيف بدأ الخلاف بين الأخوين ؛ لعل ذا يعرفنا المسئول من الأخوين عما كان بينهما من شر وحرب .

تعبت تعباً شديداً في البحث عن بداية الخصومة بين الأخوين ؛ لأن مراجعنا تكثر الكتابة وتخلط خلطاً لا يسهل معه معرفة الحقيقة في مثل هذا الموقف ، ولكننا رأينا أن الفضل بن سهل كبير رجال المأمون كان قد عزم - حتى قبل أن يموت الرشيد - على خيانة الأمين وجعل الخلافة للمأمون . ثم إنه بعد أن توفي الرشيد وتولى الأمين الخلافة نجده يرتب لأخيه المأمون خطاباً كله مودة وإقرار لما كان أبوهما الرشيد قد أراد لهما ، وفي هذا الخطاب يقول الأمين لأخيه المأمون : .. فقم في

أمرك قيام ذى الحزم والعـزم ، والناظر لأخيه ونفسه وسلطانه وعامة المسلمين ، وإياك أن يغلب عليك الجزع فإنه يحبط الأجر ، ويعقب الوزر ، وصلوات الله على أمير المؤمنين حياً وميتاً ، وإنا لله وإنا إليه راجعون . وخذ البيعة عمن قبلك من قوادك وجندك وخاصتك وعامتك لأخيك ثم لنفسك ، ثم لقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشريعة التى جعلها لك أمير المؤمنين من نسخها له وإثباتها ، فإنك مقلد من ذلك ما قلدك الله وخليفته ، وأعلِمْ مَنْ قِبَلَكَ رأيي في صلاحهم وسد خلتهم والتوسعة عليهم ، فمن أنكرته عند بيعته أو اتهمته على طاعته ، فابعث إليّ برأسه مع خبره ، وإياك وإقالته فإن النار أولى به ، واكتب إلى عمال ثغورك وأمراء جندك بما طرأك من المصيبة بأمير المؤمنين .. ومُرْهُمْ أن يأخذوا البيعة على أجنادهم وخواصهم وعوامهم على مثل ما أمرتك به من أخذها على من قبلك ، وأوعز إليهم فى ضبط ثغورهم ، والقوة على عدوهم ، وأعلمهم أننى متفقد حالاتهم ولامٌّ شعثهم وموسع عليهم .. واعمل لما تأمر به لمن حضرك أو نأى عنك من أجنادك على حسب ما ترى وتشاهد ، فإن أخاك يعرف حسن اختيارك وصحة رأيك وبعد نظرك ، وهو يستحفظ الله لك ويسأله أن يشد بك عضده ويجمع بك أمره ، إنه لطيف لما يشاء » .

وحتى إذا عرفنا أن هذا الخطاب وأمثاله من كتابة كاتب من كتاب الأمين هو بكر بن المعتمر ، فإن الأمين يقرر أنه من إملائه ،

وهو على أى حال يدل على نفس طيبة وفية سليمة ، خاصة أنه كتب فى نفس الوقت مثل هذا الكتاب إلى أخيه صالح ، وكان يتولى بلاد الشام . وإلى نفر آخر من رجال الدولة ، وهو فى خطاباته كلها يؤكد على ضرورة التزام ما شرط الرشيد عليه وعلى أخيه .

ومثل هذه الخطابات تدل على أننا لسنا أمام شاب بالتفاهة التى تصورها لنا المراجع ، فقد كان رجلاً عارفاً بمسئوليته ، محافظاً عليها ، راعياً لحقوقه وحقوق غيره . وهذا لا يمنع من أنه كان يحب المرح والمسرة واللهو واللعب ، فهذه كانت طبيعة الحكام فى تلك العصور ، ثم إنه كان ـ كما ذكرنا ـ صغير السن لا تجاوز سنه ثلاثاً وعشرين سنة هجرية .

مثل هذه الروح لا نجدها عند المأمون قط ، فليس لدينا كتاب مثل هذا إلى أخيه ، بل إننا نجد الفضل بن سهل ـ وزير المأمون وصاحب رأيه ـ سيء الرأى من أول الأمر لا يفكر إلا فى عزل الأمين وتولية المأمون . واقرأ ـ مثلاً ـ ما يرويه الطبرى (جـ ٨ ص ٣٧١ وما بعدها) من تفاصيل سوء النية وسوء فساد الطوية ، وأرجو ألا يشغلنا عن حسن النظر فى الأمور ما نقرأ من اهتمام الأمين بشئون التسلية وإنشاء الميادين للصوالجة (لعبة تشبه البولو) فهذا مزاج ، ولكنه شيء والصلاحية للحكم شيء آخر . حتى فى المسائل العائلية نجد الأمين أميناً كريماً حافظاً للواجب .

الفصل الثالث عشر

لماذا لم ندرس تفاصيل الصراع بين الأمين والمأمون ؟

الآن وقد عرفنا ظروف وفاة الرشيد والميثاق الذي عقده بين ولديه الأمين والمأمون ، وعرفنا أن الأمين لم يكن بالسوء الذى تصوره لنا المراجع ، وأن معظم ما قيل عن أنه كان البادئ بالغدر بأخيه المأمون غير صحيح . وقد نبهنا الأذهان إلى أن الفرق بين المأمون والأمين فى السن لم يزد على سبعة أشهر ، فقد ولدا في عام واحد هو ١٧٠ هـ / ٧٨٦م وكانت سنهما يوم توفي أبوهما سنة ١٩٣هـ / ٨٠٨م كانت ثلاثاً وعشرين سنة هجرية ، فلا أكبر هنا ولا أصغر فى السن ، وهارون الرشيد لم يتخطَ الأكبر ليبايع للأصغر ، وإنما هو فضل الابن الهاشمي أباً وأمّاً وهو الأمين على الابن الهاشمي أباً الفارسى أمّا وهو المأمون. فقد كانت أمه جارية فارسية تسمى مراجل ، وقلنا : إن الفرس كانوا يعتبرونه لهذا ابن أختهم ، أى فارسيّاً من ناحية الأم ، فتعصبوا له ، وخاصة وزيره الفارسي الفضل بن سهل الذى رأينا أنه بايع للمأمون بالخلافة عندما كان الرشيد في مرض الموت .

وقد رأينا كيف بدأ الأمين خلافتـه بداية طيبة ، فكتب لأخيه المأمون خطاباً جـميلاً أكـد فيه ما عـاهده أبوهما الرشيـد عليه ، ولكن نفـراً ممن كانوا يعمـلون مع المأمون في خـراسان ـ وعلى رأسـهم الفضل بن الـربيع ـ فضلوا تركـه والإسـراع إلى أخيـه الأمين ؟ لأنه كان خلـيفة فـعلاً ، وهو لهذا أفـضل ـ في نظرهم ـ من خليفة ربما يكون في المستقبل ، هو المأمون ، ولا يدرى إلا الله إن كان سيكون أو لا يكون . ولا يسأل الأمين عن تصرف هؤلاء . وإن كان الفضل بن الربيـع ـ وكان عربيّاً ـ لم يزل يجتـهد حتى صـار وزير الأمين ورجله الأول ، وهو أيضـاً ـ بسوء تدبيـره ـ كان من أكبر الأسباب فيما أصاب الأمين .

والآن فلنسأل : كيف وقعت الحرب بين الأخوين ؟

ولابد أن نذكر هنا ما سبق أن ذكرناه من أن الفضل بن سهل الفارسي ورجـل المأمون الأول كان لا يلقب إلا بذى الـرئاستين ، وكـان يرى أن الـخـلافـة يـنبـغي أن تكون للمـأمـون دون الأمين بحجة أن الأمين ليس بشيء ، والحقيقة هي أنه ـ وهو فارسي ـ كان يريد أن تكون الخلافة للمـأمون نصف الفارسي الذى كانوا يسمونه ابن أختهم . وعلى هذا كـان قد عزم على انتزاع الخلافة ن يـد الأمين ، ومع أنه لا يمـكن الحكـم على مـــواهب كـل من خوين . فقد كانا بَعْدُ صغيرين جدًا وبدون تجربة ، وكان لابد لا شك ـ من أن تتطور مواهبـهما مع السن والتجربة . وكان

المطلوب من الوزراء والنصحاء في هذه الحالة أن يعملوا على التوفيق وإصلاح الأحوال بين الأخوين حتى لا تقع البلاد في حرب أهلية ، ولكن هذا ـ على أى حال ـ لم يكن رأى الفضل بن سهل الفارسي وزير المأمون وصاحب خراسان وشرقي الدولة كله ، فقد كان رجلاً متعصباً شريراً . ولابد أن نقول : إن الفضل ابن الربيع ـ العربي وزير الأمين ـ لم يتميز بسياسة أو كياسة أو بعد نظر ، وكان هذا من سوء حظ الأمين .

ويحدثنا اليعقوبي في تاريخه (٢ / ٤٣٦) عن بداية الحرب بين الأخوين ، ومن الخبر الذى يرويه ـ وسنأتى بنصفه ـ نرى أن البداية كانت خطأ وقع فيه الأمين ، وهذا الخطأ كان يمكن إصلاحه وإعادة الصفاء بين الأخوين ، لولا أن النية في معسكر المأمون كانت معقودة منذ البداية على الغدر ، فلم يلبث الخطأ الصغير أن تطور إلى بداية حرب أهلية بين الأخوين ، وإليك الخبر الذى يرويه اليعقوبي : « ووجه محمد (الأمين) إلى أم عيسى بنت موسى الهادى امرأة المأمون يطلب منها جوهراً كان عندها للمأمون ، فمنعته وقالت : ما عندى شيء أملكه ، فوجه من هجم منزلها فانتهب كل ما فيه ، وأخذ ذلك الجوهر ، فلما انتهى ذلك إلى المأمون جمع القواد الذين قِبَلَهُ، فقال لهم : قد علمتم ما كان أبي شرط علي وعلى محمد ، وقد نكث ونقض العهود ، وأوجد السبيل إلى خلعه بنكثه ونقضه وتعرضه لأموالي وأسبابي وأعمالي ، وتحريقه

الشروط والعهود التى عليه ، واستخفافه بحق الله فيما نكث من ذلك ، واشتغاله بالخصيان ، فاتفق رأيهم على مراسلته ، فإن رجع وإلا خلعوه .. » فهل ما فعله الأمين من الهجوم على دار زوجة أخيه وأخذ ما فيها من الجوهر - إن كان هذا حدث فعلاً - يبرر خلع الأمين ؟ أما كان من الممكن إصلاح هذا الخطأ وإعادة الجوهر إلى صاحبته والإصلاح بين الأخوين ؟ بلى ، كان من الممكن لو كان بين الأخوين رجال ذوو عقول وأخلاق ، ولكننا رأينا أنه لم يكن بينهما إلا شياطين أنانيون ؛ ولهذا نجد المأمون - بعد أن بلغه ما حدث لامرأته وجوهرها - يجمع القواد الذين قِبَلَهُ ويقول لهم : « قد علمتم ما كان أبى شرط عليّ وعلى محمد ، وقد نكث ونقض العهود ، وأوجد السبيل إلى خلعه بنكثه ونقضه وتعرضه لأموالى وأسبابى وتحريقه الشروط والعهود التى عليه » (اليعقوبى ٢ / ٤٣٦) .

إذن فمسئولية الخيانة والغدر لا يمكن أن توضع على كتفى محمد الأمين العربى وحده كما تقول لنا مراجعنا ، ولكن يتحملها أساساً المأمون والمسئولون عن تدبيرها وإغراق الدولة الإسلامية فيها ، كما تقع على أكتاف رجال المأمون ... ورؤساؤهم والموجهون لهم كانوا فرساً مستعربين ، وعلى رأسهم الفضل بن سهل وأخوه الحسن بن سهل ، ثم طاهر بن الحسين البوشنجي ، وهذه حقيقة ينبغى أن تعرفها إذا كنت حقًا عربيًا تريد إنصاف العرب ، أو الإنصاف بصورة عامة .

ولكن الشيء الذى يستوقف النظر هو قلة الكفاءة التى تصرف بها الأمين عندما وقعت الحرب بينه وبين أخيه ، ومع أن هذا خارج عن موضوع هذه الدراسة (وهى تنقية أصول التاريخ الإسلامى من الأكاذيب والأخبار المسيئة للعرب والإسلام) فإن تفاصيل ما وقع تدخل فى الموضوع الأساسى الثانى الذى أثارته هذه الدراسة ، وهو فقر الفكر السياسى عند المسلمين ، ولا أقول فى الإسلام كما جرت عادتنا أن نقول ، فإن الإسلام أعطانا الأساس السليم لكل شيء حسن ، وترك لنا مسائل التطبيق ، والإسلام يعطى العقل الإنسانى أهمية كبرى ، وهذه حقيقة أساسية تتجلى فى القرآن الكريم والسنة الشريفة ، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يخاطب العقل أولاً فى القرآن الكريم، ثم يخاطب القلب بعد ذلك ، أى أن الإنسان ينبغى أن يقتنع بالدين أولا وأساساً ثم تأتى العاطفة بعد ذلك ، فإن الإنسان إذا قرأ القرآن قراءة فهم وتعقل لم يلبث أن يؤمن بالإسلام بعقله وعن اقتناع حقيقى بأن هذا القرآن لا يمكن إلا أن يكون كلام خالق الكون سبحانه ، فمثل هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن بشر ولا يمكن أن يكون إلا من خالق الكون ـ سبحانه ـ مثله فى ذلك مثل الشمس والكواكب وبقية الكون ، فإذا آمن الإنسان بذلك كان من الطبيعى أن يؤمن بصدق رسالة محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فهو الذى أعده الله ـ سبحانه ـ لتلقى رسالته ، ثم أوحى إليه القرآن كلمة كلمة ، وآية وآية ، وإلا فكيف وصل إلينا هذا القرآن ؟

فإذا آمن الإنسان بهاتين الحقيقتين وجد القرآن بين يديه كتاباً يخاطب عقله ويفتح له آفاق الكون ، ويشرح له أسرار الحياة ، دون أن يطالبه بشيء غير معقول وبشيء من صنع البشر كما نجد في الأديان الأخرى ، ثم إن الذى يطلبه الإسلام من المسلم قليل ومحدد ، فهو يطالبه بأن يؤمن بالله خالق الكون وكل ما فيه وحده دون شريك ، وهذا هو المعقول ؛ فإن هذا الكون المتناسق المترابط لا يمكن إلا أن يكون من صنع خالق واحد ، وإلا تضارب كل ما فيه واضطرب ، فإذا آمن الإنسان بالله الواحد إيماناً كاملاً ، وبصدق رسوله لم تبق عليه بعد ذلك إلا العبادات ، وهي الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وكلها تعود بالخير على الإنسان نفسه والمجتمع الإسلامي .

وتلك هي أركان الإسلام الخمسة المفروضة على المسلمين لسلامتهم وسلامة مجتمعهم ، ولا يجوز لهم التخلي عن شيء منها ، أما ما يلي ذلك من أساسيات التشريع الإسلامي الخاصة بعلاقة الإنسان برحمه وبقية الناس ، والزواج والطلاق ونظام الأسرة والميراث والدين وما إلى ذلك - فتنظيمات وردت في القرآن وأكملتها أو فسرتها السنة الشريفة ، وكلها خير للإنسان وآله وبقية البشر والأرض التي نعيش فيها وبقية الكون .

أقول هذا لكي أخرج منه بأن هذه الأساسيات كفاية ، أما ما عدا ذلك من تنظيمات اجتماعية وسياسية فلابد أن تترك لعقل الإنسان ، ومثلها في ذلك بقية أوجه النشاط الفكرى والعلمي

وإذا كان الإسلام سيتناول هذه أيضاً فماذا يبقى لعقل الإنسان ؟ ثم إن هذه كلها تنظيمات متوقفة على أحوال المجتمعات ؛ ومن ثم فإن المجتمعات الإنسانية لابد أن تختلف فيها ، والمهم فيها أن تكون ملتزمة بما ينص عليه الإسلام من العدل والأخوة والمساواة والمحافظة على كرامة الإنسان وحقوق غيره من المخلوقات ، فإذا رأت جماعة أن تكون ملكية - أى يحكمها ملوك - فلتكن كما تشاء مادام الناس راضين عن أولئك الملوك ، ومادام الملوك مؤمنين يضمنون حقوق الناس فى العدل والمساواة والأخوة والكرامة ، وقد أقر رسول الله ﷺ ملكين داخل الأمة الإسلامية هما الجلندى وأخوه ملكا عمان ؛ لأن الناس كانوا راضين عنهما هناك؛ لأنهما أولاً كانا يضمنان للمؤمنين العدل والأخوة والمساواة والكرامة ، ثم لأنهما - ثانياً - كانا يؤمنان بوحدانية الله سبحانه وصدق رسوله فيما بلغ عن الله من القرآن .

وإذا شاءت الجماعة أن تكون شورية تختار حكامها فلها أن تكون شورية يقيمها الناس ويختارون حكامهم بملء حريتهم ، ويراقبون رجالها ، ويملكون الحرية في عزلهم إذا حادوا عن الطريق ، أقول هذا لكى أخرج منه بأننا من ناحية الإسلام لا يمكن أن نقول : إن رئاسة الدولة أو السلطة السياسية العليا ينبغى أن تكون في آل فلان ، حتى قريش أو بنو هاشم لم يقل الإسلام أو رسوله : إن الرئاسة ينبغى أن تكون فيهم ، وعندما

سأل أبو بكر سعد بن عبادة في مناقشات السقيفة قائلاً : « ولقد علمت يا سعد أن رسول الله قال وأنت قاعد : قريش ولاة هذا الأمر فخير الناس تبع لخيرهم ، وفاجرهم تبع لفاجرهم ، فقال سعد : صدقت ؛ فنحن الوزراء وأنتم الأمراء ، فقال عمر : ابسط يدك يا أبا بكر فلأبايعك » (الطبرى ٣/ ٢٠٣) وسعد بن عبادة هنا لم يؤيد ما قاله أبو بكر من أن رسول الله قال : إن قريشاً ولاة هذا الأمر ، وإنما المراد تأييده كان ما قال أبو بكر بعد ذلك، وهذا يدل على أنه حتى قريش لم يكن لها ولا لأحد من فروعها أى حق في ولاية أمور المسلمين . ومن هنا يتبين لنا مقدار الخطأ في مبايعة بعض الناس للحسن بن على بن أبى طالب بالخلافة بعد استشهاد أبيه ، ولم يكن الحسن بطبعه راغباً في الخلافة ؛ فقد كان رجلاً هادئاً مرتاحاً كثير الميل إلى الزواج ، فانصرف إلى ذلك وترك الخلافة لمعاوية .

وإذا كان أخوه الحسين قد ترك المدينة إلى العراق مع نفر من أهله في طلب الخلافة لأنه ابن لعلى بن أبى طالب ـ فقد أخطأ ، فإن بنوته لعلى بن أبى طالب لا تكسبه حقًا في الخلافة أو رياسة المسلمين ، أما إذا كان قد سعى لطلب الخلافة ؛ لأنه رأى أنه أكثر أهلية لها من يزيد بن معاوية وأن هناك من يؤيدونه في ذلك ـ فلم يكن عليه بأس فيه ؛ فمن حق كل مسلم أن يرشح نفسه إذا أحس أنه يستحق الرياسة ، وأن هناك من يؤيده ، ومع ذلك فقد تبين أن الحسين لم يحسن إلى نفسه بذلك،

فقد قصد العراق لأن بعض أهله دعوه لذلك ، ولم يكن عددهم كافياً ولا كانوا بقادرين على تأييده ، وكان استشهاده على الصورة التي حدث بها دليلاً على أنه لم يحسن تدبير هذا الأمر ، وقد آل أمره إلى ما نعرف من الوقوع في الحصار وإبدائه الرغبة في التنازل عن مطلبه والاتجاه إلى أى مكان بعيد لا يخشى منه خطر فيه ، ونحن على أى حال نلوم يزيد بن معاوية ، وأبا عبيد بن زياد بن أبيه ، وعمر بن سعد بن أبي وقاص فيما فعلوا به ، ونحن نشعر بالحزن البالغ لمصيره الأسيف ، ولكننا أردنا هنا أن نقول فحسب : إن الذين طلبوا الخلافة في ذلك العصر لم يكونوا على الحق ؛ لأن الحق في الخلافة لا يكون برأى الإنسان في نفسه وطموحه إلى السلطان، بل إن هذا الحق يرجع إلى الأمة فقط ، فهي صاحبة الحق في الخلافة ، ولكن الأمر كان يتطلب - كما قلنا - تشريع الخلافة ، أى وضع نظام دستورى لها ، أما تركها تسير على النحو الذى سارت به مسألة قوة وتدبير وسعى في الخفاء فقد كان سبباً في فقر الفكر السياسى في الإسلام ، وقد أصاب أمة الإسلام من وراء ذلك شر بالغ .

والآن وقد وصلنا إلى هذا الحد في الكلام عما كان بين الأمين والمأمون فلنكمل الحديث عن المأساة التى كانت بينهما ، وإن كان هذا الكلام لا يدخل في موضوع هذه الدراسة ، وهو «تنقيةأصول التاريخ الإسلامي » فنقول : إننا ندهش من قلة

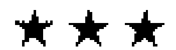
الكفاية التي ظهر بها رجال الأمين في ذلك الصراع الحاسم بينه وبين أخيه ، وأول ما يبدو لنا من ذلك هو أن المسئول الأكبر عما أصاب الأمين كان وزيره الفضل بن الربيع الذى رأينا أنه ترك مكانه الذى كان فيه من بلاط المأمون ، وما كان ينبغي له قط أن يتركه ؛لأن الرشيد اشترط على كل من ابنيه أن يحتفظ برجاله ولا يأخذ أحداً من رجال أخيه ، ويبدو أنه كان بين هذا الرجل والمأمون شيء ؛ ولهذا نجد الطبرى يقول : ذكر أن الفضل بن الربيع فكر بعد مقدمه العراق على محمد منصرفاً من طوس وناكثاً للعهود التي كان الرشيد قد أخذها عليه لابنه عبد الله ، وعلم أن الخلافة إذا أفضت إلى المأمون يوماً وهو حي لم يبق عليه ، وكان في ظفره به عطبه ، فسعى في إغراء محمد بأخيه وحثه على خلعه وصرف ولاية العهد إلى ابنه موسى ، ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه ، بل كان عزمه ـ فيما ذكر عنه ـ الوفاء لأخويه عبد الله والقاسم بما كان أخذ عنه لهما والده من العهود والشروط ، فلم يزل الفضل (بن الربيع) به يصغر في عينه شأن المأمون ، ويزين له خلعه حتى قال له : ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعبد الله والقاسم أخويك ؟ فإن الدعوة كانت لك متقدمة قبلهما وإنما أدخلا فيها بعدك واحداً بعد واحد ؟ وأدخل في ذلك من رأيه معه علي بن عيسى بن ماهان والسندى وغيرهما ممن بحضرته ، فأزال محمداً عن رأيه (٨/ ٣٤٤ - ٣٤٥) .

وهذا كلام لا يصح ولا يقبل إلا إذا افترضنا أن الأمين كان بالغاً في الغباء مداه ، فقد كان العهد الذى أخذه أبوه عليه من الجلالة والخطورة بحيث يصعب أن نتصور أن الشر كله كان من الفضل بن الربيع وحده ، ثم ماذا كان بين المأمون والفضل ابن الربيع حتى يخافه هذا الأخير إلى هذا الحد ؟ الواقع أن التاريخ هنا ناقص وغير مفهوم أو مقبول . ثم هل كان محمد الأمين يجهل أمر أخيه عبد الله المأمون إلى هذا الحد ؟ ثم إننا سنرى أن المأمون نفسه كان في غاية العقل والذكاء ، وأن رجاله الفضل بن سهل وطاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وغيرهم كانوا بالفعل أذكى وأقدر مرات من رجال الأمين . والغريب أن الأمين كتب إلى ولاته ورجاله بالدعوة لابنه موسى ثم للمأمون والقاسم ابني الرشيد ، ونحب أن نضيف هنا أن العهد الذى كتبه الرشيد بين ابنيه كان يبيح لمحمد الأمين أن يبايع لابنه على خراسان بعد أن تنتهي ولاية المأمون عليها ، معنى ذلك أن نقطة الخلاف بين الأخوين كانت يسيرة . فماذا كان يمنع المأمون من الكتابة لأخيه الأمين أو إرسال رجال لإصلاح هذا الخلاف ؟ ولو أنه كان هناك ـ كما قلنا ـ مجلس من عقلاء الرجال لهم الحق في التدخل وإبداء النصيحة لأمكنهم إصلاح هذا الخلاف ، ولكن حرص الرشيد على إبعاد الفقهاء والعقلاء من أهل الأمة عن السلطان كان سبب البلاء كله ، ولم يكن هذا خطأ الرشيد وحده ، بل كان ـ كما قلنا ـ خطأ كل رجال

السيـاسة. فقد كـانوا حريصين على ألا يدخل فى السياسـة أحد غيرهم ورجالهم وخدمهم .

وكان المأمون حسن المعاملة للرجال ، فقد اطمأن إليه رافع ابن الليث بن نصر بن سيار ، وكـان من كبار القادة ، ودخل فى رجاله ، وكذلك فعل هرثمة بن أعين .

ويستوقف النظر أن الفضل بن سهل ذا الرياسـتين سره أن ينصرف الفضل بن الربيع ومن مـعه إلى الأمين ، وكـانت سنه عندمـا صرع سـبعاً وعـشرين سنة ، وتفـاصيل الصـراع بين الأخوين مهينة جداً للأمين ، وما أظن أحداً درس التفاصيل بعد . واعتقد أنها لابد أن تدرس .



الفصل الرابع عشر

الأصول البعيدة لمحنة خلق القرآن

أثناء قيامي بهذا البحث في أصولنا التاريخية القديمة منقباً عن الأخبار والصور التاريخيـة المسيئة إلينا التي أوردها قدامى المؤلفين ـ عن غير قصد طبعاً ـ لكي ننبه الناس إلى ضرورة الاحتراس منها ، ألاحظ مرة بعد أخرى أننا في الواقع نجهل حقائق التاريخ الإسلامي ، ولا نكلف أنفسنا جهداً ، ومن هنا فإننا نردد ـ سواء في الكتب العامة أو المدرسية ـ صوراً تقليدية وضعها مؤرخون محدثون بضاعتهم من التاريخ قليلة ، وفهمهم لحقائقه مضطرب وحافل بالأخطاء .

وربما كان أول من تنبه إلى ضرورة تقويم هذا التاريخ وبدأ عملية الإصلاح هو الشيخ محمد الخضري الذي يعتبر ـ بلا شك ـ من عمد التاريخ للمسلمين في عصرنا الحاضر ، فقد قرأ هذا الرجل الأصول بعناية واضحة ، وتنبه إلى ضرورة قراءة الأصول ، ونظر إلى المادة التاريخية نظرة جديدة وجادة تخرج بنا عن الصورة التقليدية التي نجدها في مؤلفاتنا الكبرى من أوائل تاريخنا الإسلامي حتى نهايات العصور الوسطى ،

وخاصة الموسوعات من أمثال « نهاية الأرب في فنون الأدب » لأبي العباس شهاب الدين أحمد النويري المتوفي سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١م ، وشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري المتوفي سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م ، صاحب « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » ، والقلقشندي صاحب « صبح الأعشى » فهذه كلها كتب عظيمة حافلة بالمعلومات ، ولكنها كتب تجميع ، أي أن مؤلفيها جمعوا ما تيسر لهم من العلم بالماضي العربي والإسلامي ، وجمعوه في كتب ضخمة متعددة الأجزاء ، ولكن ليس فيها درس أو تمحيص ، وبعضها ينقل لنا فصولاً من كتب ضاعت أو لم نجدها إلى اليوم ، ومن الإسراف أن نطلب إلى هؤلاء الرجال أكثر مما فعلوا ؛ إذ يكفيهم أنهم جمعوا وقدموا لنا مادة ضخمة جداً وقيمة جداً ، ولكن ليس فيها درس ولا فحص ولا تعمق في أي ناحية من النواحي التي تناولتها كتبهم .

وثاني المفكرين المحدثين الذين تناولوا هذا التراث الواسع بالدراسة والنقد ، وأحسنوا التأليف في الحضارة الإسلامية والفكر العربي هو جورجي زيدان الذي أكثر الناس من الإساءة إليه في حياته ، وما زال بعضنا يسيء الظن به إلى الآن ، ولكن الرجل كان - دون شك - مفكراً ، ومؤرخاً جاداً وأصيلاً ، وصاحب أثر بعيد في فكرنا المعاصر .

وجاء بعد الخضري وجورجي زيدان مؤلفون كثيرون ، ولكنهم تقليديون يعطوننا عن الماضي العربي صوراً جامدة لا

بحث فيها ولا أصالة ولا حياة . وأنا الآن في هذه الدراسة أشعر أننا بالفعل في حاجة إلى دراسة دقيقة ومتأنية لتاريخنا الماضي وكتابته في صورة أصيلة ونقدية ؛ لأن الكتابة التقليدية السريعة لا تنفع في شيء ، وأمامك كتب التاريخ التي تكتب في عصرنا ، سواء لأغراض تعليمية مثل الكتب المدرسية والجامعية، أو لأغراض ثقافية عامة ... وأحياناً يكون الغرض تجارياً صرفاً ، ومن هنا فإننا ـ رغم كثرة ما نكتب في تاريخنا السياسي أو الحضاري ـ لا نكاد نعرف إلا القليل عن حقائق ذلك التاريخ معرفة سليمة وأصيلة . وأظنك قد تبينت ذلك فيما سبق من فصول دراستي هذه .

وعندما تعرضت لدراسة محنة خلق القرآن التي بدأت في عصر المأمون ـ وهي محنة إنسانية وخلقية قبل أن تكون دينية ـ رأيت أنني لن أفهمها الفهم الصحيح إلا إذا قرأت التاريخ العباسي قبلها في دراسة صبور متأنية في مراجعنا التاريخية الكبرى ، وهي تواريخ الطبرى (ولابد من أن ندرس تفسيره في نفس الوقت) وابن الأثير واليعقوبي وأبي الفدا ، هذا بالإضافة إلى ما كتبه ابن خلدون في المقدمة والتاريخ ، وما أورده المسعودي في مروج الذهب من أخبار وملاحظات هي الغاية في الأهمية ، وما تجده عند الجاحظ من ملاحظات وآراء ـ أصيلة أو مزيفة ـ ولكنها تنفعنا في مطلبنا هذا نفعاً عظيماً ، وكذلك لابد من دراسة كتب الخراج ، وكتاب الوزراء ، والكتاب لابن عبدوس الجهشياري .

وأبدأ فأسأل : ماذا نعرف عن التاريخ العباسي ؟ قلت : نعرف ـ على وجه التقريب ـ كيف قامت الدولة العباسية ، ولكن ماذا حدث بعد ذلك ؟ كيف كانت هذه الدولة تدار ؟ ومن الذى كان يديرها ؟ ولماذا ـ مثلاً ـ وباستثناءات قليلة ـ قصرت حياة الخلفاء العباسيين الأوائل ؟ فأبو العباس عبد الله بن محمد السفاح حكم أقل من خمس سنوات هجرية ، وأخوه أبو جعفر عبد الله المنصور بن محمد حكم فوق الاثنتين والعشرين سنة بقليل ، وأبو عبد الله محمد المهدى بن المنصور تسع عشرة سنة ، وأبو محمد موسى الهادى بن المهدى سنة واحدة وشهوراً ، وأبو جعفر هارون الرشيد بن المهدى حكم أقل من اثنتين وعشرين سنة ، وأبو جعفر عبد الله المأمون بن الرشيد حكم عشرين سنة ـ منها سنة حكمها إبراهيم بن المهدى ـ وأبو إسحاق محمد المعتصم بن الرشيد حكم حوالي ستة عشر عاماً (منها سنة حكمها من دمشق العباس بن المأمون) وأما أبو جعفر هارون الواثق بن المعتصم فقد حكم خمس سنوات ، وهكذا .

وهذه كلها سنوات هجرية ، ومعنى ذلك أن لدينا تسعة خلفاء فى أقل من مائة سنة هجرية . ولو أننا أضفنا إليهم إبراهيم بن المهدى لكان لدينا عشرة خلفاء فى مائة سنة ، ومعنى ذلك أن متوسط حكم الخليفة العباسي خلال العصر العباسي الأول عشر سنوات ، وهذه فترة قصيرة جداً بالنسبة لحكم الخلفاء ، فما السبب فى ذلك ؟

هناك أسباب عديدة ، ولكن أهمها عندنا هنا هو أن الدولة العباسية كانت منذ ميلادها دولة غاصبة . وأرجو أن تعلم أن الناس في كل عصر كانوا يعرفون كل ما نسميه بالأسرار ، فكل ما كان يجرى في القصور كان الناس في الشوارع يعرفونه ويتحدثون عنه ، وأن من يسميهم مؤرخونا بالعامة أو الرعاع أو الغوغاء - والذين نسميهم نحن اليوم برجل الشارع - كانوا يعرفون كل شيء يجرى في القصور . ومن أول الأمر كان الناس في كافة نواحي العالم الإسلامي في صميم قلوبهم غير معترفين بالدولة العباسية . وهذه الحقيقة كانت ثقيلة جدًا على نفوس بني العباس ، وكان لهذا أثر بعيد جدًا في حياة الخلفاء .

ومن ناحية أخرى فإننا نعرف أن أفراد البيت العباسي كانوا مسرفين على أنفسهم في شئون المتاع البدني ، وخاصة الجنس والطعام ، كما سنرى عندما ندرس تفاصيل حياة الخلفاء .

الحقيقة أن الخليفة العباسي الوحيد الذى كان يقدر مسئوليته ويقوم بها خلال العصر العباسي الأول هو أبو جعفر المنصور (١٢٦ - ١٥٨هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥م) فقد تولى أمور خلافته بغاية الجد ، وهذا الجد كان يصرفه عن النساء فكان لا يجهد بدنه . فإذا أصابه إجهاد كان يعرف كيف يريح بدنه ويستعيد قوته . خاصة أنه كان له قرب مدخل قصره غرفة فيها فرش وغطاء ، وكان إذا دخل قصره أسرع إلى هذه الغرفة

ليستريح ، وكان المنصور إدارياً عظيمـاً ومالياً دقيقاً ، فقد أحكم تنظيم دولته إدارياً ، وهو الذى ضبط مقادير الجباية المستحقة على كل ناحية ، وهو الذى وضع أسس جمع الأموال ، وحـدد موارد المال ، وأشرف على جبايته وحفظه .

والدولة العباسية نشأت في جزء من دولة الفرس القديمة ، وورثت أساليبها المالية وإن أعطتها أسماء عربيـة . وقد كانت موارد الأموال بالنسبة للدولة العـباسية هي الخـراج والجزية والزكاة والفيء . وكـان الأساس ألا تقل مبـالغ الأمـوال التى تجبيـهـا الدولة عما كـان الفرس يجبونه من قبل وإن اخـتلفت التسميات ، وصاحب الفضل فى ذلك هو أبو جعفر المنصور .

والدولة الإسلامية أصبحت في أيام أبي جعفر دولة آسيوية وجهتـها آسيا ؛ ولهـذا حرصت على ألا تفقـد شيئاً من أراضـيها الآسيوية ، حـتى السند والتبت ، كانت الـدولة حريصـة على سلطانهـا فيهـا وجمع المال المستحق منهـا . في حين أن الدولة الأموية كـانت دولة متـوسطية مـتجـهة بوجـهها نحو البـحر المتـوسط وحضـارته ، وكـان تطور الدولة في العـصر الأمـوى بحرياً مـتوسطياً ، فـاهتمت بالأساطيل والموانئ وكل مـا يتصل بالبحر وشئونه ، وكان اهتمامها بالتجارة عظيـماً ، أما الدولة العـباسـية فـأهملت - إلى حـد بعيـد - شئون البـحر والسـفن والموانئ والتـجارة ، بل إنها جـغرافـيًا ضمت الأندلس ومعظم المغـرب ، فكانت آخـر حـدودها من ناحـية المغـرب هى الحـدود

الغربية لولاية إفريقية ، وولاية إفـريقية كانت تلى مصر غرباً . وأقصى حد لها في الغرب كـان نهراً يسمى نهر شلف الذى ينبع من جبـال الأطلس جنوبي مـيناء يجليه الحـالية ، ويسـير إلى الشمـال حتى يقـارب البحر المتـوسط عند موقع جنوبـي مدينة الجـزائر الحالـية ، ثم يتـجـه نهـر شلف إلى الغـرب ، ويسيـر محـاذياً للبـحر حتى يصب فيه عنـد مرسى هنين غربي وهران . ولكن الدولة العـباسـية عرفت علـى أى حال كيف تحـافظ على ولاية إفريقـية ، وتحـمـيـها من الخوارج ، وتطـردهم إلى خارج حدودها الغربية .

وقد كانت الدولة العباسية تحمل في سبيل ذلك عبـئاً ثقيلاً جداً حتى تولى امر إفريقية هرثمة بن أعين ، وهو من أكبر القواد العـسكريين والحكـام الإداريين في الدولة العـبـاسـيـة في أيام هـارون الرشـيـد وولـديه الأمين والمأمـون ، وهو الذى أوصى هـارون الرشيـد بالاستجابة إلى مـا طلبه إبراهيم بن الأغلب من أن تقطعه الدولة إفريقـية لقاء خراج قليل نسبـياً . ولكن أهم ما كانت تعنى به دولة بنى العباس هو المحافظة على مذهب السنة في إفريقية .

وقـد نجـح إبراهيم بـن الأغلب في ذلـك ، وظل هو وأولاده مخـلصـين للدولة العباسية ، وصاحب الفـضل في ذلك هو أبو جعفر المنصور الذى عاش حتى قارب السبعين من العمر بعد أن ضبط الأمـور المالية والإدارية للدولة العـبـاسـيـة . وكل ما لدينا

من إحصائيات وأرقام عن دخل الدولة إنما يرجع الفضل فيه إليه . . وهذه الأرقام تصور الأحوال المالية للدولة فى أيامه .

ولقد تدهورت تلك الأحوال تدهوراً بالغاً فيما بعد ، ولكن الجهد الذى بذله المنصور في ذلك الميدان سيظل الأساس المالى للدولة إلى آخر أيامها .

وقد حكينا فيما سبق حكاية تدل على أنه كان مقتصداً جدّا في شئون النساء ، حتى إنه لم يتزوج إلا امرأة واحدة ، وهذه طبيعة وخلق فيه ، ونجد هذا الطبع فى الكثير من الناجحين من رجال الدول الإسلامية ، مثل عبد الرحمن الداخل ، وعبد الرحمن الناصر .

ومع ذلك فقد كان هذا الرجل منهوماً إلى الطعام بشكل غير عادى ، بل يمكن أن يقال إنه كان مرضاً فيه ، ويروى الطبرى فى ذلك خبراً عجيباً ، رواه له أحد أصحاب المنصور يسمى على ابن محمد بن سليمان النوفلى عن أبيه قال : كان المنصور لا يستمرئ طعامه ، ويشكو ذلك إلى المتطببين ، ويسألهم أن يتخذوا له الجوارشنات (أى الأدوية الهاضمة مثل بيكربونات الصودا) فكانوا يكرهون ذلك ويأمرونه أن يقلل من الطعام ، ويقولون له : إن الجوارشنات تهضم فى الحال ، وتحدث من العلة ما هو أشد منه عليه . حتى قدم عليه طبيب من أطباء الهند فقال له كما قال له غيره . فكان يتخذ له سفوفاً جوارشنا

يابسـاً فـيه الأفـاويه والأدوية الحـارة ، فكان يأخـذه فيـهـضم طعامـه ، قال النوفلي : قال لى كـثير من متطببـى العراق : لا يموت والله أبو جعفر أبداً إلا بالبطن ، قلت له : وما علمك ؟ قال : هو يأخذ الجوارشن فيهضم طعامه ويخلق من زئبر معدته (أى يضـعف من أحمـاض بطنه) كل يوم شيـئاً وشـحم مصـارينه فيموت ببطنه ، ويبدو أن هذا صحـيح ، فقد مات أبو جعفر وهو فى الطريق إلى مكة ، وقد أصابه حر من ركوبه فى الهواجر (أى ركوبه فى السـفر فى الأيام الحـارة) وكان رجلاً محـروراً على سنه يغلب عليه المرار الأحمر ، ثم هاض بطنه فلم يزل على ذلك حتـى نزل على بستـان عامر ، وتوفى فى السحـر أو مع طلوع الفـجر ليلة السـبت لست خلون من ذى الحجـة سنة ١٥٨هـ / أكتوبر ٧٧٤م إذ كان قريباً جدًا من مكة ، ولكنه لم يصلها .

وكـان مـعـه مـولاه المؤتمن الربيع بن يونس ، وهو والد الفضل بن الربيع وزير الأمين الذى تحـدثنا عنه وسنعود إليه وعلى ذكـر الربيـع بن يونس نقـول : إن المشكلـة الكبـرى التى أضعفت خلفاء بنى العباس وضيعت الدولة العباسية آخر الأمر هم رجال الدولة (أى رجـال الإدارة من الوزراء) فهـؤلاء كانوا بالفعل على مستوى متواضـع من الكفاءة ، فكانت تسيطر عليهم الأنانيـة المفـرطة . والسـبب فى ذلك هو أن العـباسـيين كـانوا يعرفون من أول الأمر أنهم غاصـبون ، وأن الشعب لا يحبهم ولا يؤيدهـم ؛ لأن رأى النـاس كـان أن بنـى على بن أبى طـالب هم

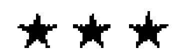
أصحاب الحق في هذه الدولة ؛ لأنهم في الحقيقة كانوا خيرة بني هاشم . والعباس بن عبد المطلب نفسه لم يكن من الصحابة المخلصين ؛ فقد كان عدو الإسلام معظم حياته ، وحارب الإسلام في بدر ووقع أسيراً ، وأمر الرسول ﷺ آمره بالا يتخلى عن فديته ، وكانت أربعة آلاف درهم ، وقال : إنه غني كثير المال . ثم إنه أسلم في نفس الوقت الذي أسلم فيه أبو سفيان صخر بن حرب ، وقد قلنا - فيما سبق - : إن أبا سفيان كان أذكى من العباس ، وقد قدم لقريش والإسلام خدمة كبرى عندما جعل مكة مدينة حرة ؛ ومن ثم فقد استطاع الرسول ﷺ ضمها إلى الإسلام دون حرب ، فسلمت مكة من ويلات الحروب ، وسلمت قريش من الفناء .

ومن أكبر الأدلة على الشعور بأن العباسيين غاصبون وأن أمة الإسلام لا تريدهم هو مقتل أبي سلمة الخلال وزير آل محمد، وما كان من الغدر بابن هبيرة ، ثم مقتل أبي مسلم الخراساني على صورة بالغة البشاعة ، كل ذلك أبعد العباسيين عن قلوب الناس ، وجعل تعلقهم الحقيقي يتجه نحو الفقهاء ؛ فهم كانوا في الواقع رجال أمة الإسلام يتعلق بهم الناس في كل مكان . وكان كبراء الفقهاء يتحاشون أي اتصال وثيق بالعباسيين ، وهذه هي « الحالة » التي أخذت صورتها الحاسمة في محنة خلق القرآن .

ثم إن غدر هارون الرشيد بالبرامكة كان له صدى بعيد في قلوب الناس ؛ لأن البرامكة - وإن كانوا فرساً - فإنهم كانوا محسنين ومخلصين ، وقد تصرفوا في أمور الدولة بإذن ورضا من العباسيين . وكانوا في الواقع محسنين وكرماء وفضلاء ، فكان يحيى البرمكي رجلاً كاملاً فاضلاً ، وقد أخلص في خدمة بني العباس ، واستخدم مواهبه الإدارية الكبيرة في إدارة الدولة بعد المنصور ، ولم يقل أحد قط إنهم كانوا مسيئين أو لصوصاً ، ولولاهم لما استطاعت الدولة العباسية أن تستقر في مكانها ، خاصة أن المهدي ثم الهادي لم يكونا على شيء يذكر من الكفاءة ، وإذا كان المهدي قد حدد للدولة رسالتها الحقيقية وهي حماية السنة والقضاء على الزندقة ، فإن الهادي لم يكن بشيء ، وكان في عزمه أن يخلع أخاه هارون (الرشيد) عن ولاية العهد ، لولا أنه مات قتيلاً على صورة غير واضحة ، والرأي السائد عند المؤرخين القدامى هو أن التي دبرت موته كانت أمه الخيزران ، وكانت من أقدر النساء ، وكانت عواطفها مع ابنها الأصغر وهو هارون الرشيد .

وجاء هارون الرشيد ، وهو في مجموعه مشكلة تاريخية ؛ فإنه ليستوقف النظر أنه كان قليل الإقامة في بغداد . ويقال : إنه كان يخافها ويخاف البرامكة ، ولكن خوفه من بغداد وأهلها لم يفارقه . فنجده دائماً وسط عساكره متنقلاً بين بلدان المشرق ، ومن هنا جاء قولنا : إنه كان يغزو عاماً ويحج عاماً ،

وهو لم يكن غـازياً عظيماً ولا كـان كثير الحج ، ومع أن الناس كانوا يحـبونه لكرمه وورعه وعـدله فإن نكبته للبـرامكة كانت ضربة قاضيـة على سلطانه ، وبعد البرامكة اعتمـد الرشيد على الفـضل بن سهل وابـن عمه وهو الحسـن بن سهل ، وهمـا من الفرس كالبرامكة ، بل كان شعورهما بفارسيتهما أقوى وأعمق ، والفضل كـان يتحـدث في مجالسه بالفارسـية ، وكان مـعادياً للعرب في بلاط العباسيين ، وخـاصة على بن الحسين الهمذاني زعيم الأزد ، وكـان متغلبـاً على الموصل هو وأخوه أحـمد وأهل بيت من الأزد ، وقـد أخطأ على بن الحسين خطأ فـاحشـاً عندما قتـل رجلاً من الأزد يسـمى عون بن جسبلة ، فانقلب الأزد علـيه وعلى أخويه أحمد وعلى وقتلوهم .



الفصل الخامس عشر

القول بخلق القرآن وسيلة للانتقام من الفقهاء

تعودنا على أن نقسو في الحكم على البرامكة ، وأن نمر مروراً عاجلاً وسطحياً بقضاء الرشيد عليهم . مع أن البرامكة كانوا في الحقيقة حصن الدولة العباسية وضمان أمنها . حقاً إنهم كانوا فرساً ، ولكنهم كانوا قد استعربوا قلباً ولساناً ، وكانوا يخدمون دولة بني العباس بإخلاص ، فقد كانوا أعرف الناس بالأموال وأساليب جمعها وتخزينها ، ثم صرفها في خدمة الدولة وخدمة أنفسهم أيضاً . وأهم من ذلك أنهم كانوا قد حصلوا على حسن ظن الفقهاء ، والفقهاء كانوا رؤساء الناس ، أي أن البرامكة كانوا يضمنون الخلفاء في نظر الفقهاء والجماهير ؛ لأنهم كانوا يعرفون الفقهاء وأقدارهم ، وكانوا يعرفون كيف يعاملونهم بكل ما يستحقونه من احترام ، وقد كان المال خير وسيلة لكسب رضا الناس في تلك العصور ، ولكن الفقهاء ـ وخاصة كبراءهم ـ ما كان يعنيهم المال إلا في قليل ، وإنما كان يعنيهم في المقام الأول الدين والشرف ، وكان البرامكة يعرفون أولئك الرجال ويولونهم ما يستحقونه من

احترام وتقدير ، وإن كان الفقهاء يحافظون على أنفسهم بعيدين عن الدولة ورجالها .

وكانت للبرامكة عيونهم ، ولكننا ننظر هنا نظراً عامّاً ، ونقول : إن البرامكة في مجموعهم كانوا عصب القوة للدولة في نظر الفقهاء والجماهير ، فلما ذهبوا ذهب ذلك كله ، وانكشفت الدولة العباسية في نظر الناس ، وبانت على حقيقتها .

وليت العباسيين عندما قضوا على البرامكة ، عرفوا كيف يعتمدون على رجال أفضل منهم ، أو رجال من العرب على الأقل، ولكنهم اعتمدوا مع الأسف على رجال فرس أسوأ من البرامكة بكثير ، وقد أشرنا إلى حقائق أليمة عن الفضل بن سهل كبير وزراء الرشيد ، وقد رأينا من سوء أخلاقه وعجزه السياسي كثيراً ، وسنرى فيما يلي نواحي أخرى من سوء حال ذلك الرجل.

أما الرجل الثاني الذى اعتمدت عليه الدولة بعد البرامكة ، فكان طاهر بن الحسين بن مصعب البوشنجي ، وهو أبو عبد الله ابن طاهر منشئ الدولة الطاهرية ، وهو فارسي الأصل ، ولكنه لا يمكن أن يقاس بأقل البرامكة ، وإليك الخبر التالي الذى يرويه ابن الأثير عن الحسين بن مصعب والد طاهر ، وهذا الخبر يغني عن كلام كثير . قال ابن الأثير في الكامل (٥/ ١٢٥) تحت عنوان : « ذكر عزل على بن عيسى بن ماهان عن خراسان

وولاية هرثمة « بن أعين » : وفيها (سنة ١٨٧هـ / ٨٠٣م) عزل الرشيد على بن عيسى بن ماهان (الذى سيكون من أكبر رجال الأمين ، وسيموت في الحرب مع طاهر بن الحسين) وكان سبب ذلك ما ذكرناه من قتل ابنه عيسى (بن على بن عيسى بن ماهان) فلما قتل جزع عليه أبوه ، فخرج من بلخ إلى مرو مخافة أن يسير عليه رافع بن الليث (بن نصر بن سيار) ليأخذها . وكان ابنه عيسى قد دفن في بستانه ببلخ أموالاً عظيمة ، وقيل كان ثلاثين ألف ألف (والمراد ٣٠ مليون درهم في الغالب) ولم يعلم بها أبوه ، ولم يطلع عليها إلا جارية له . فلما سار على بن عيسى إلى مرو أطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم ، وتحدث به الناس ، واجتمعوا ودخلوا البستان ونهبوا المال ، وبلغ الرشيد فقال : خرج من بلخ بغير أمرى ، وخلف مثل هذا المال ، وهو يزعم أنه باع حلى نسائه فيما أنفق على محاربة رافع (بن الليث بن نصر بن سيار) . فعزله واستعمل هرثمة بن أعين . وكان قد نقم الرشيد عليه ما كان يبلغه من سوء سيرته وإهانته أعيان الناس واستخفافه بهم فمن ذلك أنه دخل عليه يوماً الحسين بن مصعب والد طاهر بر الحسين وهشام بن قراخسرو ، فسلما عليه . (المراد هنا هرثمة ابن أعين) قال لحسين : لا سلم الله عليك يا ملحد ابن الملحد ، والله إنني لأعرف ما أنت عليه من عداوة الإسلام والطعن في الدين .

ولم أنتظر بقتلك إلا أمر الخليفة . ألست المرجف (بى) فى منزلى هذا بعد أن تملت من الخمر ، وزعمت أنك جاءتك كتب من بغداد ؟ اخرج إلى سخط الله ـ لعنك الله ! ـ فعن قريب (ترى) ما يكون منها . فاعتذر إليه فلم يقبل عذره ، وأمر بإخراجه فأخرج . وقال لهشام بن قرا خسرو : صارت دارك دار الندوة يجتمع إليك السفهاء ، تطعن على الولاة . سفك الله دمى إن لم أسفك دمك . فاعتذر إليه فلم يعذره فأخرجه . فأما الحسين بن مصعب (والد عبد الله بن الحسين) فسار إلى الرشيد فاستجار به ، وشكا إليه ، فأجاره ، وأما هشام (بن قراخسرو) فإنه قال لبنت له : إنى أخاف الأمير (يريد على بن عيسى بن ماهان) على دمى وأنا مفض إليك بأمر إن أنت أظهرته قتلت ، وإن أنت كتمته سلمت . قالت : وما هو ؟ قال : قد عزمت على أن أظهر أن الفالج (أى الشلل) قد أصابنى ، فإن كان فى السحر فاجمعى جواريك واقصدى فراشى وحركينى ، فإذا رأيت حالتى ثقلت فصيحى أنت وجواريك ، واجمعى إخوتك فأعلميهم علتى ، ففعلت ما أمرها به ، وكانت عاقلة ، فأقام مطروحاً على فراشه حيناً لا يتحرك حتى جاء هرثمة والياً ، فركب فرآه على بن عيسى بن ماهان ، فقال : إلى أين ؟ فقال أتلقى الأمير أبا حاتم ، قال : ألم تكن عليلاً ؟ فقال : وهب الله العافية وعزل الطاغية فى ليلة واحدة ، فعلى هذا تكون ولاية هرثمة ظاهرة .

وهذا هو طراز الرجال الذين اعتمد عليهم هارون الرشيد

بعد البرامكة ، وترى أنهم كانوا من مستوى أخلاقي وضيع ، والعلاقة بين بعضهم وبعض كانت علاقة سيئة .

وكان الرشيد يشعر بذلك ، ولكن لم تك له حيلة ، فقد كان مريضاً بعلة شديدة لا تأذن له بطول التفكير ، ثم إنه كان يخاف العيش في بغداد ، وقد روى ابن الأثير خبراً يصور لنا حالة الرشيد بعد أن قضى على البرامكة وبايع لولديه الأمين والمأمون ، ثم لابنه الثالث القاسم ، قال : « فلما سار الرشيد من الرقة إلى بغداد يريد خراسان لحرب رافع بن الليث (بن نصر ابن سيار) وكان مريضاً ، واستخلف على الرقة ابنه الثالث القاسم ، وضم إليه خزيمة بن خازم ، وسار من بغداد يريد النهروان لخمس خلون من شعبان سنة ١٩٢هـ ـ ٨٠٨م ، واستخلف على بغداد ابنه الأمين ، وأمر المأمون بالمقام ببغداد ، فقال الفضل بن سهل للمأمون حين أراد الرشيد المسير إلى خراسان : لست تدرى ما يحدث بالرشيد . وخراسان ولايتك ومحمد الأمين المقدم عليك ، وإن أحسن ما يصنع بك أن يخلعك وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم ، وزبيدة وأموالها ، فاطلب إلى أمير المؤمنين أن تسير معه ، فطلب إليه ذلك ، فأجاب بعد امتناع ، فلما سار الرشيد سايره الصباح الطبرى ، فقال له : يا صباح ، لا أظنك تراني أبداً فدعا (يريد فدعا له بطول العمر) فقال : وما أظنك تدرى ما أجد ! قال الصباح : لا والله . فعدل عن الطريق ، واستظل بشجرة ، وأمر خواصه بالبعد ، وكشف عن

بطنه فإذا عليه عصابة من حرير (حوالي بطنه) وقال : هذه علة أكتمها عن الناس كلهم ، ولكل واحد من ولدى عَلَىَّ رقيب ، فمسرور رقيب المأمون ، وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الأمين ، وما منهم أحد إلا وهو يحصى أنفاسي ويستطيل دهرى ، وإذا أردت أن تعلم ذلك فالساعة أدعو بدابة فيأتونني بدابة أعجف قطوف (يريد عجفاء ضعيفة) لتزيد من علتى ، فاكتم عنى ذلك. فدعا له بالبقاء ، ثم طلب الرشيد دابة ، فجاءوا بها على ما وصف ، فنظر إلى الصباح وركبها (ابن الأثير ٥ / ١٢٧ - ١٢٨) .

ويبدو من هذا الخبر أن الرشيد كان يشكو فتقاً أسفل البطن إلى جانب علة أخرى قاتلة ، وكان هو يعرف أنها قاتلة ، ولكنه كان فى حالة سيئة ، ولا يكاد يثق فى أحد ممن حوله ، وما نظن أن حالته كانت ستصير إلى هذا السوء لو أن البرامكة كانوا موجودين ، ولكن الذين خلفوهم فى رياسة الدولة كانوا من شرار الخلق ، وأولهم فى ذلك الفضل بن سهل وطاهر بن الحسين ، وقد كان عمر الرشيد عندما مات سبعاً وأربعين أو ستاً وأربعين سنة هجرية . وهذه سن صغيرة جداً .

على أى حال رأينا كيف وقعت الحرب والفتنة بين الأمين والمأمون ، وكيف انتصر المأمون وقتل الأمين ، وصار الأمر كله للفضل بن سهل . وكان الناس جميعاً يكرهونه ولا يرضون عن السلطان المطلق الذى فرضه على المأمون .

قال الطبري : فغضب لذلك بالعراق من كان بها من بني هاشم ووجوه الناس ، وأنفوا من غلبة الفضل بن سهل على المأمون ، واجترأوا على الحسن بن سهل بذلك ، وهاجت الفتن بالأمصار ، وكان أول من خرج بالكوفة ابن طباطبا (وهو محمد ابن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب) قال ابن حزم : القائم مع أبي السرايا بالكوفة ، وأخوه القاسم الرسي بن إبراهيم بن طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم ، وفيه الجمهرة والعدد (جمهرة أنساب العرب ص٤٣) وقد انزعج المأمون ورجاله جميعاً من ثورته ؛ لأنها لقيت من الناس تأييداً شديداً ، مما أفهم المأمون أن الناس لا يحبون بني العباس ولا يريدونهم ، حقًّا إن محمد بن إبراهيم بن طباطبا لم يلبث أن مات فجأة ، بالسم في الغالب .

ولكن نجاح الدعوة كان مخيفاً للمأمون ، خاصة أن أخ محمد بن إبراهيم بن طباطبا ـ وهو القاسم الرسِّي بن إبراهيم ابن طباطبا ـ استطاع أن ينشئ دولة كبيرة في اليمن . وكان لثورة محمد بن إبراهيم بن طباطبا صدى بعيد في العراق ومصر ومكة . قال الطبري (٨/ ٥٢١) : فوثب محمد بن محمد ومن معه من الطالبين على دور بني العباس ودور مواليهم وأتباعهم بالكوفة وانتهبوها وخربوها ، وأخرجوهم من الكوفة ، وعملوا في ذلك عملاً قبيحاً واستخرجوا الودائع التي كانت عند الناس فأخذوها ، وكان هرثمة ـ فيما ذكر ـ يخبر

الناس أنه يريد الحج ، فكان قد حبس من يريد الحج من خراسان والجبال والجزيرة وحاج بغداد وغيرهم ، فلم يدع أحداً يخرج رجاء أن يأخذ الكوفة ، ووجه أبو السرايا إلى مكة والمدينة من يأخذهما ويقيم الحج للناس (الطبرى ٨/ ٥٣١) .

وأبو السرايا هذا - وكان من رجال بنى العباس - اشتهر بالجبن الشديد ، وقد قتله الحسن بن سهل . قال الطبرى : «وذكروا أنهم لم يروا أحداً عند القتل أشد جزعاً من أبى السرايا. كان يضطرب بيديه ورجليه ، ويصيح أشد ما يكون الصياح ، حتى جعل فى رأسه حبل ، وهو فى ذلك يضطرب ويلتوى ويصيح حتى ضرب عنقه » الطبرى (٨/ ٥٣٥) وهذا الجبن والصياح غريب من رجل قتل العشرات بل المئات ، ولكن هذا كان طراز رجال بنى العباس بعد موت هارون الرشيد .

والظاهرة الكبرى التى ظهرت فى أيام المأمون وأخافته هى ميل الناس عامة للعلويين وانصرافهم عن العباسيين ، وإحساس هؤلاء بأنهم لا يستطيعون مواجهة العلويين وقواتهم ، وبلغ الأمر أن والى العباسيين على اليمن من قِبَل المأمون ، وهو إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد ابن على بن عبد الله بن عباس عندما سمع بمسير إبراهيم بن موسى العلوى إلى اليمن واقترابه من صنعاء خرج منصرفاً من اليمن فى الطريق النجدية بجميع مَنْ فى عسكره من الخيل والرجل ، وخلى لإبراهيم بن جعفر (العلوى) اليمن . وكره

قتاله . وبلغه ما كان من فعل عمه داود بن عيسى بمكة والمدينة ، ففعل مثل فعله ، وأقبل يريد مكة حتى نزل الشاش ، فعسكر هناك ، وأراد دخول مكة فمنعه من كان بها من العلويين (الطبرى ٨ / ٥٣٦) ومن الواضح أن مثل هذه الأخبار كانت تخيف المأمون وتشعره بأن بنى العباس قد فقدوا تأييد الأمة الإسلامية ، وأنهم لن يستطيعوا الثبات للعلويين . وهذا هو الذى جعل المأمون يفكر فى تولية العهد لعلوى ، وفي هذه الظروف نجد أن الفضل بن سهل يشعر بأن مركزه قد ضعف جداً ، وأن هرثمة بن أعين يجتهد في أن يحل محله من المأمون ، وكان هرثمة رجلاً عاقلاً وخبيراً بشئون الدولة ، ولم يكن يرى ضرورة لقتل الأمين عندما تنازل للمأمون وأظهر له الطاعة واجتهد في إنقاذه من الموت ، ومال المأمون إلى ذلك ، ولكن الفضل بن سهل غدر بالأمين وسلط عليه من اختطفه وقتله فى صورة أليمة جداً ، وقد حزن المأمون لذلك ، ولكنه لم يكن يستطيع شيئاً ، ووقعت العداوة بين الفضل بن سهل وهرثمة ، واجتهد الفضل في الإيقاع بهرثمة ونجح فى ذلك ؛ لأن هرثمة استهان بالمأمون وظن أنه يفرض نفسه عليه ، وعندما وصل مرو فى ذى القعدة سنة ٢٠٠هـ / ٨١٦م جعل يرعد ويبرق ليخيف المأمون ، ولكن الفضل بن سهل كان قد غير قلب المأمون عليه . فلما دخل عليه جعل المأمون يذكر له سيئاته وأخطاءه التى أبلغه الفضل إياها . قال الطبرى : « فذهب هرثمة ليتكلم

ويعتذر ويدفع عن نفسه ما قرف به ، فلم يقبل ذلك منه وأمر (المأمون) به فوجئ على أنفه وديس بطنه ، وسحب من بين يديه . وقد تقدم الفضل بن سهل إلى الأعوان بالغلظة عليه والتشديد حتى حبس ، فمكث في الحبس أياماً ، ثم دسوا عليه فقتلوه ، وقالوا : إنه قد مات » (الطبرى ٨ / ٥٤٣) وقد كان هرثمة رأس العرب في بلاط المأمون ، وقد قدم له ولأبيه الرشيد خدمات جليلة ، ولكن الدولة العباسية كانت قد فسدت فعلاً ، وانحدرت إلى مستوى لم يكن من الممكن رفعها منه بعد ذلك أبداً ، وكان العباسيون قد كثروا جدّاً حتى قال الطبرى : إن عددهم بلغ في سنة ٢٠٠هـ ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين ذكر وأنثى، أما العلويون فكانت أعدادهم أكثر ، فكانوا الوفاً في كل بلد من بلاد الإسلام رغم من قتل منهم ، وصدق على بن أبي طالب عندما قال : إن السيف أنمي للعدد ، فكلما قتل من العلويين زاد عددهم ، وكان الناس قد جرءوا على المأمون حتى قال له أحد العلويين ـ وهو يحيي بن عامر بن إسماعيل ـ : يا أمير الكافرين ، فقتل بين يديه ، وقد أحس العباسيون أن المأمون يميل إلى العلويين ، وأن في نيته أن يبايع بالعهد رجلاً علويّاً ، فدبروا القيام عليه ، واختاروا المنصور بن المهدى وأرادوه على الخلافة ، فأبى وقال : أنا خليفة أمير المؤمنين حتى يقدم أو يولي من أحب ، وانتهى الأمر بمبايعة إبراهيم بن المهدى بالخلافة في بغداد تحدياً للمأمون ، وخوفاً مما كان

الناس يسمعونه من أن المأمون ينوى أن يجعل ولاية العهد لعلوى ، ونقل الخلافة من بيت بني العباس إلى بيت على بن أبي طالب..

وكان الحسن بن سهل متعصباً للفرس ، كما كان الحال مع ابن عمه الفضل ، ولكنه كان أقل شراً . وكان الموقف يحتاج إلى رجل في ذكائه ؛ فإن بغداد خرجت عن طاعة المأمون ،وبلغ جند العلوى عيسى بن محمد بن أبي خالد بين مائة ألف وخمسة وعشرين ألفاً ، ولكنهم لم يكونوا جنداً نظامياً بل متحمسين للعلويين ، وسيطر على بغداد رجال الحرب والشطار « وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطرق ، فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به ، فلايقدر أن يمتنع عليهم ، وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك .. » (الطبرى ٨ / ٥٥١) .

وفي هذه السنة (وهى ٢٠١ هـ) جعل المأمون على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن أبي طالب - رضي الله عنه - ولى عهد المسلمين والخليفة من بعده ، وسماه الرضا على ابن محمد ﷺ ، وأمر جنده بطرح السواد ، ولبس ثياب الخضرة ، وكتب بذلك إلى الآفاق .

وواضح أن هذه كانت حيلة ابتكرها الحسن بن سهل ، فقد

رأى أن آل على قد كثروا ، وأنه لابد أن يسترضيهم حتى يكون الناس معه ، ثم ينتهي بعد ذلك من على الرضا هذا .

ثم لم يلبث المأمون أن عرف سوء تصرف الفضل بن سهل معه ، وكان الذى كشف له حقيقة هذا الرجل على بن جعفر بن محمد العلوى . (وهو على الرضا) وأخبر المأمون بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه ، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار ، وأن أهل بيته والناس قد نقموا عليه أشياء ، وأنهم يقولون : إنه مسحور مجنون ، وأنهم لما رأوا ذلك بايعوا لعمه إبراهيم بن المهدى بالخلافة ، فقال المأمون: إنهم لم يبايعوا له بالخلافة ، وإنما صَيَّرُوه أميراً يقوم بأمرهم ، على ما أخبره به الفضل ، فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشه ، وأن الحرب قائمة بين إبراهيم والحسن بن سهل ، وأن الناس ينقمون عليك مكانه ومكان أخيه ومكان بيعتك إلى من بعدك ، فقال : ومن يعلم هذا من الأهل ؟ فقال له : يحيى بن معاذ وعبد العزيز بن عمران وعدة من وجوه العسكر . فقال له : أدخلهم حتى أسائلهم عما ذكرت ، فأدخلهم ... وتأكد المأمون من ذلك كله، وأكدوا له أن أهل بيته غاضبون عليه ، وأبلغوه بما أبلغه عليه الفضل من أمر هرثمة ، وأن هرثمة إنما جاءه لينصحه وليبين له ما يعمل عليه ، وأنه إن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته ، وأن الفضل دس إلى هرثمة من قتله، وأنه أراد نصحه ، وأن طاهر بن الحسين قد أبلى فى

طاعته ، ودعوا المأمون إلى الخروج إلى بغداد ، وقالوا : إن الجند لو رأوا عزتك سكنوا إلى ذلك وبخعوا بالطاعة .

وقد ضرب المأمون الكثيرين بالسياط لهذا السبب ، وقام الناس على الفضل بن سهل فقتلوه في ٢ من شعبان سنة ٢٠٢هـ / ٨١٧م . وكان الذين قتلوه أربعة من خدم المأمون وقد أمر المأمون بقتلهم ، وأرسلت رءوسهم إلى الحسن بن سهل ، وولى المأمون الحسن مكان الفضل بن سهل (الطبرى ٨/٥٦٥) .

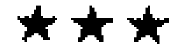
ومات علي بن موسى الرضا ، وكنا نتوقع ذلك ، وقالوا : إنه أكل عنباً كثيراً فمات فجأة ، وذلك في صفر سنة ٢٠٣هـ / ٨١٧ م ، ورحل المأمون من طوس إلى بغداد ، وفي هذه السنة غلبت السوداء على الحسن بن سهل ، فذكر سبب ذلك أنه كان مرض مرضاً شديداً فراج به من مرضه تغير عقله حتى شد بالحديد وحبس في بيت ، وكتب بذلك قواد الحسن إلى المأمون ، فأتاهم جواب الكتاب أن يكون على عسكره دينار بن عبد الله ، ويعلمهم أنه قائم على إثر كتابه (الطبرى ٨ / ٥٦٩) .

وفي السنة نفسها خلع أهل بغداد إبراهيم المهدى وعادوا إلى بيعة المأمون ، وحل طاهر بن الحسين محل الفضل بن سهل وابن عمه الحسن ، وخلع المأمون الملابس الخضراء ، ولبس الملابس العباسية السوداء . ثم أصبح طاهر بن الحسين والياً

لبغداد والعراق كله وكل بلاد الشرق حتى التبت ، وذلك فى ذى الحجة سنة ٢٠٥هـ / مايو ٨٢١م . وكتب طاهر وصية طويلة بليغة لابنه عبد الله (بن طاهر بن الحسين) ولم يكن أقل من أبيه كفاءة ، ولكنه كان فارسيًا يتكلم الفارسية فى مجالسه ، وكان آخر كلام قاله قبل موته فارسياً .

وفى سنة ٢١٠هـ / ٨٢٥م تزوج المأمون بوران بنت الحسن ابن سهل ، وأنفق فى زواجه منها مالاً طائلاً .

وفى ذلك كله ظل الفقهاء بعيدين عن دولة المأمون ، وكانت قلوب الناس معلقة ، وقد حاول أن يسترضيهم فلم يفلح ، فقرر الانتقام منهم ، ومن هنا جاءت محنة خلق القرآن .



الفصل السادس عشر

لم ينتصر المأمون على الأمين
وإنما انتصر الفرس على الاثنين

في ذلك الصراع العنيف في سبيل السلطان في دولة الإسلام كان المأمون هو الذى انتصر على أخيه الأمين وأصبح أمير المؤمنين .

ولكنه بعد النصر تبين أنه هو ليس المنتصر الحقيقي ؛ لأن الذى انتصر بالفعل هو الفضل بن سهل ، وأنه إذا كان قد أصبح أمير المؤمنين ، فهناك من يمكن أن يسمى أمير أمير المؤمنين ، وهو الفضل بن سهل ، وقد كان فارسياً متعصباً ورجلاً شريراً خبيثاً لا يخفى شره أو خبثه - كما رأينا - وكان فيما بينه وبين نفسه يرى أن الفرس أفضل وأحق بالخلافة من العرب .

وبعد سنوات قلائل في الخلافة أحس المأمون أن هزيمة أخيه الأمين بدأت من أيام أبيهما هارون الرشيد ، فإن الرشيد أخطأ خطأ فاحشاً في حق الدولة العباسية عندما قضى على البرامكة ؛ لأن البرامكة كانوا فرساً في الأصل ، ولكنهم

استعربوا فعلاً ، وأصبحوا يتصرفون تصرف عرب ، ومهما بلغ من أمر يحيي البرمكي فما كان ليخطر بباله أن يضع نفسه فوق الرشيد . أما الفضل بن سهل فكان يرى أنه أفضل من المأمون ، وقد أحس المأمون بذلك ، وسعى في التخلص من الفضل بن سهل ، واستبدل به ابن عمه الحسن بن سهل ، وكان الحسن بن سهل أعقل وأذكى وأكثر إنسانية من ابن عمه الفضل ، وهو والد بوران التي تزوجها المأمون . والحسن بن سهل تمكن من تعيين طاهر بن الحسين بن مصعب البوشنجي واليا على المشرق كله من العراق إلى أقصى المشرق . وفي سنة ٢١٠هـ / ٨٢٥م تزوج المأمون ببوران ابنة الحسن بن سهل ، ونحلها (أى أعطاها) مهراً ألف درة كانت في صينية من ذهب ، وقد قدر ذلك بملايين الدنانير في عصر كان الإنسان يعيش فيه أحسن حياة بدرهم واحد في اليوم . وما زلنا نحن نتحدث بزواج المأمون من بوران إلى اليوم ، فتصور ماذا كان الناس يقولون عنه في أيامه !!.

وبعد ذلك بقليل ، سنة ٢١٧هـ / ٨٣٢م رحل المأمون إلى مصر ، وكان معه الأفشين ، وكان الدافع الأكبر للمأمون إلى هذا النشاط هو رغبته في أن يشعر به الجمهور ويحس الناس أن الدولة العباسية تقوم بالواجب نحوهم . وأراد المأمون أن يؤكد ذلك ، فأمر الناس بالوقوف والتكبير بعد كل صلاة ثلاث مرات دليلاً على صدق الإيمان وقوته ، ففعلوا ذلك . وفي سنة ٢١٧هـ / ٨٣٢م . قتل المنصور عبدوس الفهرى رأس الثائرين في مصر،

وقد اشتد المأمون على الكثيرين ممن ضيعوا الأمانات والولايات، وضرب أعناق الكثيرين منهم . وكان للمأمون كذلك نشاط للغزو في بلاد الروم ، ولكنه لم يتعد هرقلة ، ثم وقع هدنة مع توفيل ابن ميخائيل إمبراطور الروم .

وفي نفس هذه السنة زاد المأمون أعداد الجند الذين يجمعون من الشام ، فجعلهم أربعة آلاف ، وجعل الرزق الثابت لكل منهم مائة درهم للفارس غير الغنائم والفيء ، أما الراجل فكان رزقه أربعين درهماً . وكذلك زيدت أعداد الجند من مصر والجزيرة .

وواضح أن المأمون كان يستعد بذلك كله لأمر خطير ، فقد كان يحس أن الناس منصرفون عنه وعن الدولة العباسية جملة . والفقهاء خاصة كانت صلتهم به منقطعة تقريباً ؛ لأنهم كانوا يرون أنه يخالف الدين ، والحق أنه لم يكن على العقيدة الصحيحة أو أن تصرفه - على الأقل - كان يدل على ذلك ، وهذا هو الذي جعله يفكر في مهاجمة الفقهاء واتهامهم بأن إيمانهم بالإسلام ليس سليماً ، وفي سنة ٢١٨هـ / ٨٣٣ م . كلف المأمون القاضي إسحاق بن إبراهيم بالشروع في امتحان إيمان الفقهاء .

والحقيقة أن الامتحان في ذاته كان سطحيّاً وبغير معنى ؛ لأنه كتب إلى القضاة عن طريق قاضيه إسحاق بن إبراهيم

يطلب إليهم أن يسلموا بأن القرآن مخلوق وليس قديماً . وعندما نفكر في الموضوع نجد أن السؤال في ذاته لا معنى له ؛ لأننا حتى لو قلنا إن القرآن قديم ـ أى خلق قبل الأرض والكواكب ـ فهو مخلوق ، وإلا فمن أين أتى ؟ وإليك فقرات من أول كتاب كتبه إليهم ؛ لترى أنه كان في الحقيقة مفتعلاً ولا معنى له :

جاء في الطبرى (جـ ٨ ص٦٣١ وما بعدها) : أما بعد ، فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذى استحفظهم ومواريث النبوة التي أورثهم ، وأثر العلم الذى استودعهم ، والعمل بالحق في رعيتهم ، والتشمير لطاعة الله فيهم . والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته ، والإقساط فيما ولاه الله من رعيته برحمته ومنته ، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته والاستقصاء بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق ـ أهل جهالة بالله ، وعمى عنه ، ودلالة على حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به ، ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ..

وهكذا يستمر الخطاب على هذا الأسلوب غير الواضح أو المحدد ؛ لأنه في الحقيقة لم يكن لديه شيء يقوله للفقهاء ؛ إذ لا قضية هناك ، فسواء قلنا : إن القرآن قديم أو أنزل في أيام

رسـول الله ﷺ ، فالأمـر سـيـان ، وهو مخلوق وخـالقـه هو الله سبحانه وتعالى ، فأين هو الخلاف ؟

حتى الآيات التي يستشهد بها المأمون في خطابه لا تقول ما أراد أن يقوله من أن القرآن مخلوق أيام رسول الله وأنه نزل على لسانه منجماً حسب الظروف والحـالات مثل ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (سـورة الزخـرف ٣) والمأمـون يريد أن يقـول هنا : إن القرآن لابد أن يكون قد خلق وأنزل على رسول الله بعد أن خلقت العربية ، فـهو ليس قديماً قدم السمـاء والشمس والكواكب . ثم يقول الخـطـاب بعد ذلك « فكل مـا جعله الله فـقد خلقـه ، وقال ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (سورة الأنعام ١) وقال عز وجل ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ (سـورة طه ٩٩) فأخـبـر أنه قـصص لأمور أحـدثه بعدها وتـلا به متقـدمهـا ، وقال : ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (سورة هود ١) وكل مُحكم مفصّل فله مـحكِمٌ مفـصِّل ، والله محكمٌ كـتـابه ومـفصِّله ، فـهو خـالـقه ومبـتدعه . ثم يـخطو خطاب المأمون خطوة أخرى فيـهاجم من تصور أنهم يخالفون رأيه ، ثم هم الذين جـادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ونسـبوا أنفسهم إلى السُّنة ، وفي كل فـصل من كتاب

الله قصص من تلاوته مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونحلتهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس . وكلنا نعرف أن الفقهاء لم يقولوا شيئاً من ذلك ، إنما هو المأمون الذى أحس أن هذا رأيهم فيه ، فقد كانوا - فيما نحسب ، وبعد كل ما ارتكب هو ووزراؤه فى حق الناس - يرون أن الناس يحسون أن خلفاء بنى العباس ليسوا على الطريق السوى ؛ ولهذا فقد حرصوا على ألا يتصلوا به وتحاشوه ، فبادر هو إلى الاشتباك معهم في غير قضية ، وأظن أن أى إنسان يقرأ خطاب المأمون هذا لا يجد فيه قضية أصلاً لا دينية ولا غير دينية ، وإنما هو التحدى ، تحدى الفقهاء، ويؤيد ذلك قول ذلك الخطاب فى ص٦٣٣ : فتركوا الحق إلى باطلهم ، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم ، فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ، ونقضت أحكام الكتاب بهم على دغل دينهم ، ونغل أديمهم ، وفساد نياتهم ويقينهم ، وكان ذلك غايتهم التى إليها أجروا ، وإياها طلبوا فى متابعتهم والكذب على مولاهم . وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ، أولئك الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة محمد ٢٤)

فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورءوس الضلالة ، المنقوصون من التوحيد حظًا ، المخسوسون من الإيمان نصيباً ، وأوعية الجهالة ، وأعلام الكذب ، ولسان إبليس الناطق فى أوليائه ، والهائل على أعدائه من أهل دين الله ، وأحق من يتهم في صدقه ، وتطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله ولا عمله ، فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد ، ومن عمي عن رشده وحظه من الإيمان بالله وبتوحيده ، كان عما سوى ذلك من عمله والقصد فى شهادته أعمى وأضل سبيلاً ، ولعمر أمير المؤمنين إن أحجى الناس بالكذب في قوله وتخرص الباطل فى شهادته من كذب على الله ووحيه ، ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، وإن أولاهم برد شهادته فى حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه وبهت حق الله بباطله .

وهذا كله كلام عام مطلق لا يتحصل منه شيء إلا السباب لناس لا ندرى من الذين يريدهم الكتاب ، فإن كاتبه لا يريد إلا التهجم على ناس لا يعرفهم سواه ، بل إننا لا نفهم هنا شيئاً يتصل بقدم القرآن أو خلقه . والكتاب مكتوب في شهر ربيع الأول سنة ٢١٨هـ / مارس ٨٣٣م .

وكأنما أراد الخليفة المأمون أن يحدد من يريده بهذا الأذى فكتب إلى إبراهيم بن إسحاق فى إشخاص سبعة فقهاء إليه ، قدر أن هؤلاء هم كبار الفقهاء الذين يريد أن يعاقبهم ، وهؤلاء

هم محمد بن سعد كاتب الواقدى ، وأبو مسلم مستملى يزيد بن هارون ، ويحيى بن معين ، وزهير بن حرب أبو خيثمة ، وإسماعيل بن داود ، وإسماعيل بن أبي مسعود ، وأحمد بن الدورقي . فاشخصوا إليه ، فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن فأجابوا جميعاً بأن القرآن مخلوق ، فأشخصهم إلى مدينة السلام ، وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم إلى داره ، فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث ، فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون ، فخلى سبيلهم ، وكان ممن فعل ذلك إسحاق بن إبراهيم بأمر المأمون .

ونسأل الآن : لماذا سلم هؤلاء الفقهاء ، وهم أكبر فقهاء بغداد إذ ذاك دون مناقشة ؟

سلموا بذلك لأنهم لم يروا هنا قضية ، فإنهم لم ينتبهوا إلى أن المأمون أراد أن يجعل فرقاً بين القرآن القديم والقرآن المخلوق ، فإن القرآن قديم ومخلوق في آن معاً ، وليست هناك قضية .

أجل ليست هناك قضية فقهية ، بل هنا قضية مكانة وسلطان ؛ لأن المأمون أحس أنه لم يعد له سلطان كخليفة ؛ لأن السلطان كله بيد الفقهاء ، فهم رؤساء الناس وأهل الدين والإيمان ، وهم رؤساء ذلك المجتمع ، أما هو - أي المأمون - فليس بشيء ، إنما هو رئيس رجال المال ، ورجال المال كلهم لصوص وناس بلا ذمة ولا ضمير .

وإذن فإن المأمون لم يكسب شيئاً من وراء الخطوة الأولى ؛ فقد تبين بعد قليل أن أحداً لم يفهم ما أراد ، واستمروا يطيعون الفقهاء ولا يلقون بالا إلى الخليفة ورجاله .

فعاد يكتب إلى الفقهاء مرة أخرى بأسلوب ظن أنه أوضح وأكثر تحدياً ، فجعل الخليفة هو المسئول عن الدين والإيمان ، ومن ثم فهو رئيس الفقهاء وسيدهم . قال : (الطبرى ٨/ ٦٣٤):
أما بعد فإن من حق الله على خلفائه في أرضه وأمنائه على عباده الذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وحملهم رعاية خلقه وإمضاء حكمه وسننه ، والائتمام بعدله فى بريته أن يجهدوا لله أنفسهم ، وأن ينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدلوا عليه - تبارك اسمه وتعالى - بفضل العلم الذى أودعهم ، والمعرفة التي جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ، ويردوا من أدبر عن أمره ، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ، ويقفوهم على حدود إيمانهم وسبيل فوزهم وعصمتهم ، ويكشفوا لهم معطيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم بما يدفعون الريب عنهم ، ويعود بالضياء والبينة على كافتهم ، وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم إذا كان جامعاً لفنون مصانعهم ومنتظماً لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم ، ويتذكروا ما الله مرصد من مساءلتهم عما حملوه ، ومجازاتهم بما أسلفوه وقدموا عنده ، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده ، وحسبه الله وكفى به ، ومما بينه أمير

المؤمنين برويته وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره ، وجليل ما يرجع في الدين من وكفه (= إيذائه) وضرره ما ينال المسلمون بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماماً لهم وأثراً من رسول الله - عليه السلام - وصفيه محمد ﷺ باقيالهم ، واشتباهه على كثير منهم حتى حسن عندهم ، وتزين في عقولهم ألا يكون مخلوقاً ، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذي بان به عن خلقه ، وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته وإنشائها بقدرته .. إلى آخره .

وهنا في هذا الخطاب الثاني يتضح أمران :

الأمر الأول هو أن الخليفة يقول : إنه هو المسئول عن الدنيا وما فيها ، وإنه رئيس الخلق أجمعين ، وعليهم أن يطيعوه .

والأمر الثاني هو أن القرآن مخلوق غير قديم .

ولكن الفقهاء لم يفهموا ما أراد المأمون .

فإن الرياسة التي طلبها رياسة دنيوية ، أي أنه رئيس الناس في هذه الدنيا ، والفقهاء لم يكونوا يرون بأساً في ذلك ، لأن الدنيا كلها دار مرور ولا قرار لها ، فإذا أراد الخليفة أن يكون رئيساً لها فليكن .

والأمر الثاني لم يفهم الفقهاء المراد منه ، فإن القرآن سواء أكان قديماً أم غير قديم ، فهو مخلوق ، ولا قضية هناك إذن ، بل

إن الآيات التي استدل بهـا المأمون في هذا الخطاب الثاني لا تدل على شيء محدد ، بل إن المأمون لم يكن موفقاً في اختيار الآيات، فقد وجـد أن القرآن الكريم لا يتضمن آية واحدة تقـول مثلاً : إنا خلقنا القرآن ، بل هو يقول : إننا جعلنا القـرآن ، فمضى يلتمس الآيات التي ذكرت لـفظ (جعل) بمعنى خلق مـثل قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (سورة الـزخرف ٣) كمـا قال جل جـلاله : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ (سورة الأعراف ١٨٩) وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا(١١) ﴾ (سورة النبأ ١٠ـ ١١) ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (سورة الأنبياء ٣٠) .

فسـوى ـ عـز وجل ـ بين القـرآن وبـين هذه الخـلائق التي ذكرها في شبه الصنعة ، وأخبر أنه جاعله وحده ، فقال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) ﴾ (سورة الـبروج ٢١ ـ ٢٢) فـدل ذلك على إحـاطة الـلوح بالقـرآن ، ولا يحـاط إلا بمخلوق، وقال لنبـيه ﷺ : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) ﴾ (سورة القيامة ١٦) .

ويسترسل خطاب المأمون في ذكر الآيات دون أن يوفق إلى

بيان واضح لما يقول ، فإن غرضه الخفي هو أن يتحدى الفقهاء ، ويظهر للناس أن إيمانهم غير سليم ، وهذا مطلب محال ؛ لأن الفقهاء كانوا على إيمان وثيق لا شك فيه ، ولم يكن ليخطر ببالهم أن المأمون يريد أن يوقع بينهم وبين الجمهور الذى يثق فيهم ، فمضوا على تجاهلهم لما يريد أو على جهلهم به بتعبير أصح .

وقد ظل مطلبه غامضاً حتى اضطر إلى أن يقول : وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم فى القرآن الثلم فى دينهم والحرج فى أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام ، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرفوا ووصفوا خلق الله بالصفة التى هى لله وحده وشبهوه به ، والاشتباه أولى بخلقه ، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظاً فى الدين ، ولا نصيباً من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يحل أحد منهم محل الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق فى قول ولا حكاية ، ولا توليه لشىء من أمر الرعية ، وإن ظهر قصد بعضهم وعرف بالسداد مسدد فيهم ، فإن الفروع مردودة إلى أصولها ومحمولة فى الحمد والذم عليها ، ومن كان جاهلاً بأمر دينه الذى أمره الله به من وحدانية فهو بما سواه أعظم جهلاً ، وعن الرشد فى غيره أعمى وأضل سبيلاً .

ثم قال المأمون بعد ذلك لقاضيه إسحاق بن إبراهيم : فاقرأ

علي جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق كتاب أمير المؤمنين بما كتب به إليك ، واسألهما عن علمهما بالقرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق ، فإن قالوا بقول أمير المؤمنين في ذلك فتقدم إليهما في امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق واسألهم عن قولهم في القرآن ، فمن لم يقل منهم : إنه مخلوق ـ أبطلا شهادته ..

ومع أن المأمون لم يوفق في إحكام قضيته فإن نفراً من كبار الفقهاء أدرك غرضه ، وعرف أن المراد تشكيك الناس في إيمان الفقهاء ، هنا أدركوا أن هذا الخليفة غافل تماماً عن حقائق الأمور ، فقرروا أن يخوضوا معه المعركة .



الفصل السابع عشر

الفقهاء ينتصرون على الخليفة

هذه الجماعة من الفقهاء أدركت أن الذى يبحث عنه المأمون هو نصر حاسم وواضح على الفقهاء ليكون ذلك إعلاناً صريحاً بأن رياسة أمة الإسلام هى فى الحقيقة لبنى العباس . فقرروا التمسك بالحقيقة وإعلان أن رياسة أمة الإسلام للفقهاء (أى للدين) وعلى رأس هؤلاء أحمد بن حنبل . وأحضر إسحاق بن إبراهيم كبير فقهاء الخليفة لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين فيهم أحمد بن حنبل ، فأدخلوا جميعاً على إسحاق ، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين حتى فهموه ، ثم قال لبشر ابن الوليد : ما تقول فى القرآن ؟ قال : قد عرفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة ، قال : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى . قال : أقول : القرآن كلام الله . قال : لم أسألك عن هذا . أمخلوق هو ؟ قال : الله خالق كل شىء . قال : القرآن شىء ؟ قال : هو شىء ، قال : مخلوق؟ قال : إنه ليس بخالق . قال : لست أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال : لا أحسن إلا ما قلت

لك. وقد استعهدت أمير المؤمنين الا أتكلم فيه ، وليس عندى غير ما قلت لك .

فأخذ إسحاق من إبراهيم رقعة كانت بين يديه ، فقرأها عليه ووقفه عليها . فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرداً . لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه ، فقال : نعم ، وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكاتب : اكتب ما قال .

ثم قال لعلى بن أبى مقاتل : ما تقول يا على ؟ قال : قد سمعت كلامى لأمير المؤمنين فى هذا غير مرة ، فامتحنته بالرقعة فاقر بما فيها ، ثم قال : القرآن مخلوق ؟ قال القرآن كلام الله ، قال لم أسألك عن هذا . قال : هو كلام الله ، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا مقالته ، فقال للكاتب : اكتب مقالته .

ثم قال للزيال نحواً من مقالته لعلى بن أبى مقاتل ، فقال له مثل ذلك ، ثم قال لأبى حسان الزيادى : ما عندك ؟ قال : سل عما شئت ، فقرأ عليه الرقعة ووقفه فاقر بما فيها ، ثم قال : من لم يقل هذا القول فهو كافر . فقال : القرآن مخلوق هو ؟ قال : القرآن كلام الله ، والله خالق كل شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامنا ، وبسببه سمعنا عامة العلم . وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا ، فصار يقيم

صلاتنا وحجنا ونؤدى إليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ونرى إمامته إمامة ، إن أمرنا ائتمرنا وإن نهانا انتهينا ، وإن دعانا أجبنا . قال : القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته ، قال : إن هذه إجابة أمير المؤمنين ، قال : قد تكون إجابة أمير المؤمنين ، ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم إليها . وإن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرني به ؛ فإنك الثقة المأمون فيما أبلغتني من شيء ، فإن أبلغتني عنه بشيء صرت إليه ، قال ما أمرني أن أبلغك شيئاً ، قال علي بن مقاتل : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في الفرائض والمواريث ، ولم يحملوا الناس عليها . قال له أبو حسان : ما عندى إلا السمع والطاعة ، فمرني آتمر . قال ما أمرني أن آمرك وإنما أمرني أن أمتحنك .

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل فقال : ما تقول في القرآن ؟ قال : هو كلام الله ، قال : أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله لا أزيد عليها. فامتحنه بما في الرقعة ، فلما أتى على « ليس كمثله شيء » قال ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وأمسك عن «لا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه » فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر ، فقال : أصلحك الله، إنه يقول : سميع من أذن بصير من عين . فقال إسحاق لأحمد بن حنبل : ما معنى سميع بصير ؟ قال : هو كما وصف نفسه ، قال: معناه ؟ قال : لا أدرى ، هو كما وصف نفسه .

ثم دعاهم رجلاً رجلاً ، كلهم يقول : القرآن كلام الله إلا هؤلاء النفر : قتيبة ، وعبيد الله بن محمد بن الحسن ، وابن عُليَّة الأكبر ، وابن البكاء ، وعبد المنعم بن إدريس ابن بنت وهب بن منبه ، والمظفر بن مرجا ، ورجلاً ضريراً ليس من أهل الفقه ، ولا يعرف بشيء منه إلا أنه دس في هذا الموضوع ، ورجلاً من ولد عمر بن الخطاب قاضي الرقة ، وابن الأحمر . فأما ابن البكاء الأكبر فقد قال : القرآن مجعول لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (سورة الزخرف ٣) والقرآن محدث لقوله : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ (سورة الأنبياء : ٢) قال له إسحاق : فالمجعول مخلوق ؟ قال : نعم ، قال : فالقرآن مخلوق ؟ قال : لا أقول : مخلوق ، ولكنه مجعول ، فكتب مقالته .

فلما فرغ من امتحان القوم وكتب مقالاتهم اعترض ابن البكاء الأصغر ، فقال : أصلحك الله ! إن هذين القاضيين إمامان ، فلو أمرتهما أن يسمعانا مقالتهما لنحكي ذلك عنهما ! قال له إسحاق : إن شهدت عندهما بشهادة فاستمع مقالتهما إن شاء الله .

فكتب مقالة القوم رجلاً رجلاً ، ووجهت إلى المأمون ، فمكث القوم تسعة أيام ، ثم دعا بهم وقد ورد كتاب المأمون جواب كتاب إسحاق بن إبراهيم في أمرهم .

وطبعاً لم يكن في رد أمير المؤمنين إلا الحملة على أولئك الناس ووصفهم بمتصنعة أهل القبلة وملتمسي الرئاسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة من القول في القرآن .

ثم يحمل المأمون على أولئك الرجال واحداً واحداً ويهينهم ، ويقول : فأما ما قال المعرور بشر بن الوليد في نفي التشبيه وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق وادعى من تركه الكلام في ذلك واستعهاده أمير المؤمنين - فقد كذب بشر في ذلك وكفر ، وقال الزور والمنكر ، ولم يكن قد جرى بينه وبين أمير المؤمنين في ذلك ولا في غيره عهد ولا نظر أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص والقول بأن القرآن مخلوق ، فادع به إليك وأعلمه ما أعلمك أمير المؤمنين . وانصصه عن قوله في القرآن واستتبه حقه ، فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته ، إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح والشرك المحض عند أمير المؤمنين ، فإن تاب عنها فاشهر أمره وأمسك عنه ، وإن أصر على شركه ودفع أن يكون القرآن مخلوقاً بكفره وإلحاده فاضرب عنقه . وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

وأما علي بن أبي مقاتل فقل له : ألست القائل لأمير المؤمنين إنك تحلل وتحرم والمكلم له بمثل ما كلمته به ، مما لم يذهب عنه ذكره ؟! .

وأما الزيال بن الهيثم فاعلمه أنه كان فى الطعام الذى كان يسرقه في الأنبار ، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين ابن العباس وما يشغله وإنه لو كان مقتفياً آثار سلفه ، وسالكاً مناهجهم ومحتذياً سبيلهم لما خرج إلى الشرك بعد إيمان .

وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبى العوام وقوله : إنه يحسن الجواب في القرآن فاعلمه أنه صبى فى عقله لا فى سنه ، جاهل ، وأنه إن كان يحسن الجواب في القرآن جاهل ، وإن كان لا يحسن الجواب في القرآن فسيحسنه إذا أخذه التأديب ، وإن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله .

أما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه فاعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها ، واستدل على جهله وآفته بها .

وأما الفضل بن غانم فاعلمه أنه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما اكتسب من الأموال فى أقل من سنة ، وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله في ذلك ، فإنه من كان شانه شانه ، وكان رغبته ـ فى الدينار والدرهم ـ رغبته ، فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعاً فيهما وإيثاراً لعاجل نفعهما ،

وأنه مع ذلك القائل لعلي بن هشام ما قال ، والمخلف له فيما خالفه فيه ، فما الذى حال به عن ذلك ونقله إلي غيره ؟

وأما الزيادى فإنه كان منتحلاً ، ولا كأول دعي كان في الإسلام خولف فيه حكم رسول الله ﷺ ، وكان جبريل إن يسلك مسلكه ، فأنكر أبو حسان أن يكون مولى لزياد . أو يكون مولى لأحد من الناس ، وذكر أنه نسب إلى زياد .

وأما المعروف بأبى نصر التمار ، فإن أمير المؤمنين شبه خساسة عقله بخساسة متجره .

وأما الفضل بن الفرخان فأعلمه أنه حاول بالقول الذى قاله في القرآن أخذ الودائع التي أودعه إياها عبد الرحمن بن إسحاق تربصاً بمن استودعه . وطمعاً في الاستكثار لما صار في يده ولا سبيل عليه من تقادم عهده وتطاول الأيام به ، فقل لعبد الرحمن ابن إسحاق : لاجزاك الله خيراً عن تقويتك مثل هذا وأتمانك إياه ، وهو معتقد للشركة منسلخ من التوحيد !

وأما محمد بن حاتم وابن نوح المعروف بأبى معمر فأعلمهما أنهما مشغولان بأكل الربا عن الوقوف علي التوحيد . وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهما في الله ومجاهدتهما إلا لإرباشهما ، وما نزل به كتاب الله في أمثالهما ـ لاستحل ذلك ، فكيف بهما وقد جمعا مع إياه شركاً وصارا للنصارى مثلاً ؟

وأما أحمد بن شجاع فأعلمه أنك صاحبه بالأمس والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذي كان استحله من مال علي بن هشام ، وأنه ممن الدينار والدرهم دينه .

وهكذا يستمر خطاب المأمون في بيان ما زعمه من نقائص الفقهاء ، بدلاً من أن يحاول إقناعهم بوجهة نظره ؛ لأنه في الحقيقة لم تكن له وجهة نظر ، ولو أن أولئك الفقهاء وافقوه على رأيه لما كشف عيوبهم تلك . بل إنه أحياناً يذكر من عيوب أولئك الناس أشياء لا يجوز السكوت عليها بحال إذا صدقت ، فيقول مثلاً : إن سعدويه الواسطي قال له ، قبح الله رجلاً بلغ به التصنع للحديث والتزين به والحرص على طلب الرئاسة فيه أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب بها متى يمتحن ، فيجلس للحديث .

وأما المعروف بسجادة وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه بأن القرآن مخلوق فأعلمه أنه في شغله بإعداد النوى وحكه لإصلاح سجادته وبالودائع التي دفعها إليه علي بن يحيي وغيره ما أذهله في التوحيد وألهاه ، ثم سله عما كان يوسف بن أبي يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما .

وقد كان أمير المؤمنين قد وجه إليك المعروف بأبي سهر بعد

أن نصه أمير المؤمنين على محنته في القرآن فجمجم عنها ولجلج فيها حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف ، فاقر ذميماً ، فانصصه عن إقرار ، فإن كان مقيماً عليه فاشهر ذلك وأظهره إن شاء الله .

ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمير المؤمنين في كتابك ، وذكره أميرالمؤمنين لك أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا ولم يقل : إن القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدى ـ فاحملهم أجمعين موثقين إلى معسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم إليه لينصهم أمير المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

وهذا ليس حديثاً في الدين أو مناقشة في عقيدة ، إنما هو إرهاب للناس . فمن قال ما يريد أمير المؤمنين سكت عنه وتركه ، ومن لم يقل فضحه ثم قتله .

ورجل واحد ثبت على رأيه وكلامه ؛ لأنه لم تكن له عيوب دينية أو أخلاقية يأخذها عليه المأمون ، وهو أحمد بن حنبل ، وهنا نجده وقف عاجزاً لا يستطيع شيئاً . لقد حبسه وضربه دون أن يخرج منه بأدنى نتيجة . وحاول إخوان أحمد بن حنبل أن يصرفوه عن رأيه فرفض وانهزم أمامه المأمون ، وخرج الفقهاء من محنة خلق القرآن منتصرين .

والحقيقة أن السيف أخاف كل الفقهاء إلا أربعة على رأسهم أحمد بن حنبل وسجادة والقواريرى ومحمد بن نوح المعزوب . فأمر بهم إسحاق بن إبراهيم فشدوا في الحديد ، فلما كان من الغد دعا بهم جميعاً يساقون فى الحديد ، فأعاد عليهم المحنة ، فأجابه سجادة إلى أن القرآن مخلوق ، فأمر بإطلاق قيده وخلى سبيله ، وأصر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما ولم يرجعا ، فشدا جميعاً فى الحديد ووجها إلى طرسوس ، وكتب معهما كتاباً بأشخاصهما وكتب كتاباً معزواً بتأويل القوم فيما أجابوا إليه ، فمكثوا أياماً ثم دعا بهم فإذا كتاب قد ورد من المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم أن قد فهم أمير المؤمنين ما أجاب القوم إليه .

وذكر سليمان بن يعقوب صاحب الخبر أن بشر بن الوليد تأول الآية التى أنزلها الله تعالى فى عمار بن ياسر ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ (سورة النحل ١٠٦) وقد أخطأ التأويل . إنما عنى الله - عز وجل - بهذه الآية من كان معتقد الإيمان مظهر الشرك ، فأما من كان معتقد الشرك مظهر الإيمان فليس هذه له فأشخصهم جميعاً طرسوس ؛ ليقيموا بها إلى خروج أميرالمؤمنين من بلاد الروم .

وقد أراد إسحاق بن إبراهيم أن يعاقبهم ، ولكنه لم يستطع ؛ لأن المأمون توفى سنة ٢١٨هـ - ٨٣٣م وكانت سنه إذ ذاك ٤٨ سنة هجرية ، وهي سن صغيرة جداً تؤكد مالاحظته فيما سبق من وفاة العباسيين في سن صغيرة لسبب لا نعرفه فعلاً ، ولكن الظاهرة غير طبيعية ، فهؤلاء ناس يموتون في سن لا تصدق ولأسباب غير واضحة ، فلماذا مات المأمون في هذه السن ؟ ولو أن المؤرخين قالوا لنا لاقتنعنا ، ولكننا نقف هنا متعجبين ؛ لأن هذا الرجل مات في السن التي مات فيها أبوه تقريباً (سبعة وأربعين سنة وشهوراً) .

على أى حال مات دون أن يبلغ على الفقهاء أى نصر ، مات وأحمد بن حنبل في أوجه ، يؤكد للناس بإصراره وأخلاقه أن زعامة أمة الإسلام للحق لا للقوة . وبهذا يكون المأمون قد أكمل العمل الذى بدأه أبوه الرشيد وأخوه الهادى ، وهو هدم الدولة العباسية التي قامت على غير حق ، واستمرت على غير حق ، وانتهت بتلك النهاية الخسيسة .

وقد شعر فقهاء المأمون بخيبة أمل ؛ لأنهم كانوا يرجون أن يتركوا كبار الفقهاء ويعلنوا أنفسهم رؤساءهم فلم يوفقوا . وإسحاق بن إبراهيم الذى تولى محاكمة الفقهاء لم يدر ماذا

يعمل ، ويبدو أنه فوجئ بموت المأمون ، وكانت نيته أن يرسل الفقهاء إلى المأمون بطرسوس ، فتوفى المأمون قبل ذلك ، وكان الفقهاء قد بلغوا الرقة فحبسهم واليها ثم خلى سبيلهم بعد ذلك .

وقد أوصى المأمون قبل موته بأن يخلفه أخوه أبو إسحاق الذى تلقب بالمعتصم ، ومن غريب ما يحكي الطبرى أن المأمون - وكان عليلاً - كان جالساً على شاطئ نهر فى بلاد الروم يسمى البيذندون ، وكان يستعذب ماء هذا النهر ويجده أحلى ماء في الدنيا ، وتمنى أن يجيئه رطب يسمى رطب الأزاد ليأكله مع ذلك الماء ، فجاء هذا الرطب وأكل المأمون وأخوه وسعيد العلاف القارئ فمرضوا جميعاً ، والمأمون الذى أكل أكثر من غيره مات من هذا الرطب ، فهل يمكن أن يقال : إن هذا الرطب كان مسموماً؟ ربما .

على أى حال مات المأمون ، وتولى أبو إسحاق المعتصم ، وقد أصر على سياسة أخيه فى مسألة خلق القرآن دون أن يصل إلى نتيجة .

فهل كان العلويون أحق من العباسيين بالخلافة ؟

لا ، لم يكونوا .

لأن الخلافة ملك الأمة ، الأمة هي التي تختار الخلفاء ، وهي التي تعزلهم أيضاً إذا لم يحسنوا الخلافة ، وهذا هو الذي ينبغي أن نقرره دائماً .

وسنرى فيما بعد أخطاء أخرى وقع فيها خلفاء بني العباس ، فأكدوا بها ضياع خلافتهم .



الفصل الثامن عشر

الخليفة المتوكل يكره ابنه المنتصر إلى درجة لا تصدق !

والمنتصر يشترك في قتل أبيه !

مهما نقرأ في كتب التاريخ فإننا لا نجد وصفاً صحيحاً للدولة العباسية بعد المأمون ؛ فإن الإدارة ساءت إلى درجة لا يمكن أن يقال معها : إن هناك دولة ، حقًا كان هناك خليفة ، ولكن هذا الخليفة كان قد فقد خصائص الخلفاء حتى يصعب أن نقول : إن دولة الخلافة كانت مستمرة أو موجودة في أيام الواثق الذى خلف المعتصم الذى جاء بعد المأمون ، وكان الواثق رجلاً غبيًا حقًا ، لا يعرف شيئاً عن إدارة الدولة ، وإنما هو كان رئيس جماعة من اللصوص هم كبار موظفي الدولة ، ونحن نستطيع أن نقول : إنهم كانوا بالفعل لصوصاً ؛ لأن الحد الفاصل بين السرقة والأمانة زال فعلاً ، فقد كان مال الدولة كثيراً ، ولكنه لم يكن كثيراً حقًا على دولة ؛ لأنه كان لا يكفي لإقامة مشروع كبير أو مجد عظيم ، ولكنه كان كثيراً على الأشخاص الذين كانوا يتولون الدولة . والحقيقة أنك لا تستطيع أن تقول : إنه كان هناك مال دولة .

بل كان الناس - صغار الناس أقصد - يدفعون ما عليهم ، ويأخذه جباة ضرائب يأخذون منه نصيباً لأنفسهم ، ويعطون الباقي لمن فوقهم ، وهكذا حتى لا يصل إلى الخليفة إلا سدس المال المجموع ، والباقي يتوزع بين الموظفين ، فهم رؤساء وهم لصوص في الوقت نفسه ، والخط الفاصل بين اللص ورجل الدولة في كل منهما غير واضح . ويتجلى هذا في أيام المتوكل الذي جاء بعد الواثق . والمتوكل اسمه جعفر ، وهو ابن المعتصم، وأمه أم ولد يقال له شجاع ، وقد تولى يوم الأربعاء ٢٤ من ذي الحجة سنة ٢٣٢هـ / يوليو ٧١٧م ، وكان رجلاً عاقلاً ، وكان يمكن أن يكون خليفة ممتازاً ، ولكنه كان ينكر سلطان الترك على الدولة ، والحق أن الترك كانوا يتسلطون على كل أهل الدولة ، وفي مقدمتهم الخليفة ، وكان الترك قد اعتادوا سيادة الدولة حتى أصبحوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أصحاب الدولة الحقيقيون ، وأن العرب وغيرهم من أجناس الدولة الإسلامية كانوا رعايا لهم .

وكان الخلفاء - لكي يسيطروا على الدولة فعلاً - قد استكثروا من أجناس غريبة عن العرب واتخذوا منها جنداً ، ومثال ذلك أننا نقرأ كثيراً عن المغاربة ، وأنا شخصيًا أعتقد أنني أعرف تاريخ المغرب الإسلامي معرفة لا بأس بها ، ولكني لا أعرف من هم المغاربة ، وهنا وغاية ما أستطيع قوله إنهم بربر كانوا يهاجرون إلى العراق ، ويدخلون جيوش دولة الخلافة ،

ويعتبرون أنفسهم جندها ، وكانوا يتقاضون رواتب كبيرة ، ولكن لم تكن لهم طموحات سياسية ، فكانوا يظلون جنوداً ، ويخرج أولادهم من الجيش ويتحولون إلى عراقيين ، ولم يكن الترك جنساً واحداً بل أجناساً شتى ، كان يدخل فيهم الإيرانيون ، والطبريون ، وأهل طخارستان - وهم الأفغانيون اليوم - والأرمن المسلمون ، وأهل القوقاز - وهم المسمون الغز - ولكنهم كانوا جميعاً يتكلمون لغة واحدة ، ويرون أن واجبهم الأساسي هو إخراج العرب من جند الدولة ، وهذه هي نتيجة سياسة آل عباس ، فقد كانوا أنصاف عرب ، فمعظمهم أبناء أعجميات ، وأشكالهم غير عربية وإن كانوا يشعرون أنهم عرب، وإليك صفحة من تاريخ الطبري تشعر وأنت تقرؤها أن الخليفة المتوكل عربي ، ولكنه لا يحب العرب ، ولا يريد أن يراهم في رياسة الدولة ، قال الطبري (٩/ ٢٢٢) في تفاصيل مقتل الخليفة المتوكل : (ذكر لي أن سبب ذلك أنه كان - المتوكل - أمر بإنشاء الكتب بقبض ضياع وصيف بأصبهات والجبل وإقطاعها الفتح بن خاقان) فكتبت الكتب وصارت إلى الخاتم على أن ينفذ يوم الخميس لخمس خلون من شعبان (سنة ٢٤٧هـ / أكتوبر ٨٦١م) فبلغ ذلك وصيفاً واستقر عنده الذي أمر به في أمره ، وكان المتوكل قد أراد أن يصلي بالناس يوم الجمعة في شهر رمضان في آخر جمعة منه ، وكان قد شاع في الناس في أول رمضان أن أمير المؤمنين يريد أن يقضي عليهم ، فاجتمع الناس

لذلك واحتشدوا ، وخرج بنو هاشم من بغداد لرفع القصص وكلامه إذا ركب ، فقد كان يوم الجمعة أراد الركوب للصلاة ، فقال له عبيد الله بن يحيي والفتح بن خاقان : يا أمير المؤمنين ، إن الناس قد اجتمعوا وكثروا من أهل بيتك وغيرهم ، وبعض يتظلم ، وبعض طالب حاجة ، وأمير المؤمنين يشكو ضيق الصدر ووعكة ، وإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بعض ولاة العهود بالصلاة ..) فهل هذا خبر يستحق أن يرويه الطبرى ؟ يجوز إذا كان المراد بيان خضوع الخليفة لكل ما تقوله أمة الترك ، المهم أننا نرى هنا أن الأتراك يريدون بأى طريقة أن يحولوا بين الخليفة وبين الناس ، ولكن بقية رجال الدولة لم يكونوا أفضل من الترك ، ولم يكونوا كلهم عرباً ، بل كان فيهم أكراد وأرمن وروم ، وكانوا ـ كما قلنا ـ أنصاف رجال دولة وأنصاف لصوص .

ومن حسنات المتوكل أنه أوقف بدعة الكلام فى القرآن ، قال اليعقوبى (٢ / ٤٨٤ ـ ٤٨٥) : ونهى المتوكل الناس عن الكلام فى القرآن من أهل البلدان ،و من أخذ فى خلافة الواثق (أى من قبض عليه) فخلاهم جميعاً وكساهم ، وكتب إلى الآفاق كتباً نهى عن المناظرة والجدل ، فأمسك الناس ،وبهذا انتهت هذه المعركة بانتصار الفقهاء ، ولم يكن ذلك ليهم المتوكل كثيراً ؛ لأنه فى الواقع كان يكره الترك أكثر مما يكره الفقهاء ، وكان يريد أن

يقضي عليهم ، فأوقف معركة ليبدأ معركة أخرى كان فيها حتفه .

ولم يحسن المتوكل القيام بمعركته مع الأتراك لأسباب كثيرة ، أهمها سببان : الأول أنه كان صغير السن جداً ؛ إذ كانت سنه لا تجاوز الثالثة والعشرين ، فكان في الحقيقة صبياً قليل التجربة . والسبب الثاني أنه لم يكن معه رجال يقومون بالمعركة ، فقام بها وحده وانهزم وقتل .

وبعد أن تولى بسنوات قلائل احتاج إلى أموال ، ولم تكن هناك وسيلة للحصول على أموال إلا بالقبض على موظفين كبار واستخراج ما عندهم ، ووقعت عينا المتوكل على اثنين أخوين من كبار الموظفين هما عمر بن فرج الرخجي وأخوه محمد . والاثنان كانا محبوسين بسبب السرقة ، ولكن محمد بن فرج الرخجي كان والي مصر قبل حبسه ، فوجه المتوكل كتاباً إلى مصر بالقبض عليه . وقبض في الوقت نفسه على أخيه عمر واستخرجت منهما أموال كثيرة ، ثم احتاج المتوكل إلى رجلين : واحد لديوان الخراج ، والثاني لديوان الضياع . فلم يجد غير هذين اللصين فولاهما ، وليس هذا بغريب ؛ لأنهما وإن يكونا لصين فإنهما كانا يعرفان كيف يستخرجان المال من الناس .

فعفا عنهما وولاهما . وفي السنة نفسها وهي ٢٣٤هـ / ٨٤٨م قبض على موظف يسمى أحمد بن خالد المعروف بأبي

الوزير ، واستخرج منه أموالاً كثيرة بعد التعذيب ، ثم عفا عنه . ولم يرض المتوكل عن أحمد وعمر الرخجيين ، فعزلهما وولى مكانهما يحيى بن خاقان وموسى بن عبد الملك بن هشام ، وكانا هما الآخران محبوسين في أموال فعفا عنهما ، وولاهما ديوان الخراج وديوان الضياع .

وكان المتوكل يفكر في وسيلة للإيقاع بالأتراك .

ولكنه شغل عن ذلك مؤقتاً بما كان من الكراهة بينه وبين ابنه المنتصر ، وكان ولى عهده ، وكان اسمه محمدا ، وله ابنان آخران هما أبو عبد الله المعتز بالله ، وإبراهيم المؤيد بالله ، وقد أقام المتوكل لولاية العهد لأبنائه الثلاثة حفلاً عظيماً أنفق فيه أموالاً جمة . ويبدو أن الترك أحسوا بما كان المتوكل يدبر لهم ، فتقربوا إلى ابنه وولى عهده المنتصر ، ومضوا يدبرون معه القضاء على المتوكل . ولم أجد في النصوص ما يمكن أن أعرف به سبب الخصومة الشديدة التى كانت بين المتوكل وابنه المنتصر ، ولكن الأخبار هنا مضطربة جداً ومختلط بعضها ببعض حتى ليصعب عليك أن تجد وجه الحق في أى شيء ، والشيء الوحيد الثابت هو أن المتوكل كان وثيق الإيمان بالإسلام ؛ فقد كان دائم الغزو للروم ، وكان لا يكف عن التنبيه على أن يلبس النصارى لبساً خاصاً يميزهم حتى لا يختلط أمرهم بالمسلمين ، وكان يصر - وأبوه - على أن يلبسوا الملابس

العسلية اللون وألا يركبوا الخيل ، ويدفعوا مالا كثيراً ، وقد أسلم الكثيرون منهم لتفادى هذا العذاب . كذلك غضب المتوكل غضباً شديداً على ناس أخطئوا في حق أبي بكر وعمر ونفر من الصحابة . وقد اشتهر بذلك رجل يسمى عيسى بن محمد بن جعفر بن محمد بن عاصم صاحب الخانات . وجاء في كتاب المعتصم في جريمة هذا الرجل وأمثاله : « وما شهد به الشهود من شتم أصحاب رسول الله ﷺ ولعنهم وإكفارهم ورميهم بالكبائر ونسبتهم إلى النفاق وغير ذلك ، مما خرج به إلى المعاندة لله ولرسوله ﷺ وتثبتك في أمر أولئك الشهود وما شهدوا به ، وما صح عنكم من عدالة من عدل منهم ووضح لك من الأمر فيما شهدوا به ، وشرحك ذلك في رقعة درج كتابك ، فعرضت على أمير المؤمنين - أعزه الله - فأمر بكتاب إلى أبي العباس محمد بن طاهر مولى أمير المؤمنين - أبقاه الله - بما قد نفذ إليه مما يشبه ما عنده - أبقاه الله في نصرة دين الله وإحياء سنته والانتقام ممن ألحد فيه - وأن يضرب الرجل حداً في مجمع الناس حد الشتم خمسمائة ، وخمسمائة سوط بعد الحد للأمور العظام التى اجترأ عليها ، فإن مات ألقى في الماء من غير صلاة ؛ ليكون ذلك ناهياً لكل ملحد في الدين خارج من جماعة المسلمين ، وأعلمتك ذلك لتعرفه إن شاء الله » (الطبرى ٩ / ٢٠١) .

ولم أعرف قط سبب كراهة المتوكل لابنه المنتصر إلى ذلك الحد الذى لا يصدق فى الذى نقرؤه في المراجع ، ولقد قرأت في النصوص كثيراً من أخبار الكراهية بين الآباء والأبناء ، ولكن سآتيك الآن بنص من الطبرى؛ لترى شيئاً لا يصدق أبداً (الطبرى ٩ / ٢٢٥) : « فذكر عند هارون بن محمد بن سليمان الهاشمي أنه كان حدثني بعض من كان في الستارة من النساء أنه التفت إلى الفتح فقال : برئت من الله ومن قرابتي من رسول الله ﷺ إن لم تلطمه (يعني المنتصر) فقام الفتح ولطمه مرتين يمر بيده على قفاه ، ثم قال المتوكل لمن حضر : اشهدوا جميعاً أنني خلعت المستعجل (يعني المنتصر) ثم التفت إليه وقال : سميتك المنتصر ، فسماك الناس لحمقك المنتظر ، ثم صرت الآن المستعجل ، فقال المنتصر : يا أمير المؤمنين ، لو أمرت الآن بضرب عنقي كان أسهل على مما تفعله بي ، فقال : اسقوه ، ثم أمر بالعشاء فأحضر ، وذلك في جوف الليل ، فخرج المنتصر من عنده وأمر غلام أحمد بن يحيي أن يلحقه ، فلما خرج وضعت المائدة بين يدى المتوكل ، وجعل يأكلها ويلقم وهو سكران . وذكر عن ابن الحفص أن المنتصر لما خرج إلى حجرته أخذ بيد زُرافة فقال له : امض معي ، فقال : يا سيدى ، إن أمير المؤمنين لم يقم ، فقال : إن أمير المؤمنين أخذه النبيذ ، والساعة يخرج بغا والندماء ، وقد أحببت أن تجعل أمر ولدك إلى ؛ فإن أوتامش سألني أن أزوج ابنه من ابنتك ، وابنتك من ابنه ، فقال له زرافة:

نحن عبيدك يا سيدى ، فمرنا بأمرك ، وأخذ المنتصر وانصرف به معه . قال : وكان زرافة قد قال لى قبل ذلك : ارفق بنفسك ؛ فإن أمير المؤمنين سكران والساعة يضيق ، وقد دعانى مرة وسألنى أن أسألك أن تصير إليه ، فنصير جميعاً إلى حجرته . قال : فقلت له : أنا أتقدمك إليه ، قال : ومضى زرافة مع المنتصر إلى حجرته » .

وبعد ذلك بوقت قليل جداً . وفى نفس الليلة قتل المتوكل . قتله الأتراك ، والحقيقة أن هذا التعيس الذى كان يدبر القضاء على الأتراك تلك الليلة شرب أربعة عشر رطلاً من الخمر . ولا أدرى ماذا يكون الرطل ، ولكن حتى لو قلنا : إنه كأس ، فإن رجلاً يدبر قتل الأتراك جميعاً والتخلص منهم ثم يشرب هذا القدر من الخمر لا يمكن أن يكسب . وأنا أستنكر هنا من الطبرى أن يذكر أن أمير المؤمنين المتوكل شرب أربعة عشر رطلاً من الخمر - فى نفس الليلة التى كان ينبغى أن يكون فيها مجتمع الرأى ، وأظن أن هذا يفسر لنا لماذا اعتدى المتوكل على ابنه المنتصر على الصورة المؤسفة التى رأيناها ، ولا شك كذلك فى أن المنتصر قد اشترك مع الأتراك فى تدبير قتل أبيه . وحتى ولو لم يشترك فما نظن أن النهاية التى انتهى بها المتوكل قد أحزنته .

على أى حال هذه صورة محزنة جداً : أن يصير أمر الخلافة إلى ناس مثل المتوكل والمنتصر . وهذا يؤكد مرة أخرى ما قلناه

من أن الخلافة كان ينبغي أن تشرع وتقنن وتنظم ؛ حتى لا تصير إلى الصورة المحزنة التي رأيناها ؛ لأن الموضوع هنا ليس موضوع من يتولى الخلافة وماذا يفعل بها ، ولكن الخليفة كان سيد هذه الدولة وبيده مصائر الناس . ومصائر الناس لا ينبغي أن تصير إلى ما رأيناه .

ولكن الناس كانوا قد يئسوا من الخلافة من زمن بعيد ، وكان كل إنسان قد رتب أموره ؛ ليسير بحياته وحياة أسرته دون أكتراث للخليفة وما يمكن أن يعمله ، وأظن أنه لا ضير علينا في أن نقول ذلك ؛ لأننا في الحقيقة أمام دولة كبرى هي دولة الإسلام ، ولا يجوز أن تدار دولة الإسلام على هذا النحو غير المسئول . وقد قلت ذلك أكثر من مرة . ومن الغريب أن أحداً من مشرعينا قبل العصر الحديث لم يفكر فيه .

وأوربا نفسها كانت كذلك ، ولكنها بدأت تتغير من القرن السابع عشر ، فبدأ الناس ينتبهون إلى أن العقل هو أساس حياة البشر ، وأن كل شيء لابد أن يخضع للعقل ، وشيئاً فشيئاً أخذ العقل يسيطر على حياة البشر في الغرب ، فأخذت حياة البشر تتغير ، ودخلت أوربا في العصر الحديث بتأثير العقل ، والإسلام نفسه دين عقل ، وما كان المسلمون ليستطيعوا أن يتقدموا دون استخدام العقل ، وقد نبههم إلى ذلك رسول الله ﷺ ثم أبو بكر ثم عمر ، وتوقف العقل في أيام عثمان ، فوقع الشر

في حياة المسلمين ، وقد رأينا أحوالنا في العصور الوسطى كيف كانت .

وبطبيعة الحال لا نستطيع أن نتتبع تاريخ المسلمين سنة بعد أخرى ، إنما نحن نضرب أمثلة فحسب . والغريب في خبر موت المتوكل الذى قصصنا قصته أن المتوكل الذى كان يدبر أمر القضاء على الأتراك كان لا يخطر بباله أن الأتراك قد يعلمون بما يدبر وقد يسبقون إلى قتله . هذا هو الذى حدث . إليك بقية الخبر - كما رواها الطبرى - لترى غفلة هذا الرجل السكران الذى غاب عنه أن الآخرين لهم عقول أيضاً ، وأنه كما كان يفكر في القضاء عليهم فهم يفكرون في قتله ، قال الطبرى (٩ / ٣٢٧) : فذكر عثعث أن أبا أحمد بن المتوكل أخا المؤيد لأمه كان معهم في المجلس ، فقام إلى الخلاء ، وقد كان بغا الشرابى أغلق الأبواب كلها غير باب الشط ، ومنه دخل الرجال الذين عينوا لقتله ، فبصر بهم أبو أحمد فصاح بهم : ما هذا يا سفل ؟ وإذ بسيوف مستلة ، قال : وقد كان تقدم النفر الذين تولوا قتله بغلون التركي وباغر وموسى بن بغا وهارون بن صوارتكين وبغا الشرابى ، ولما سمع المتوكل صوت أبى أحمد رفع رأسه فرأى القوم وقال : يابغا ، ما هذا ؟ هؤلاء رجال النوبة التى تبيت على باب سيدى أمير المؤمنين ، فرجع القوم إلى ورائهم عند كلام المتوكل لبغا ، ولم يكن واجن وأصحابه وولد وصيف

قد حضروا معهم بعد . قال عثعث : فسمعت بغا يقول لهم : يا سفل . أنتم مقتولون لا محالـة ، فموتوا كراماً ، فرجع القوم إلى المجلس ، فابتدره بغلون فضربه ضربة على كتفه وأذنه فقدّه ، فقال : مهلاً ، قطع الله يدك ! ثم قـام وأراد الوثوب به ، فاستقبله بضرب يده بالسيف فابانها ، وتـرك باغر ، فقال الفتح : ويلكم ! أمير المؤمنين ، فقال بغا : يا أحمق لا تسكت ، فرمى الفتح بنفسه على المتوكل ، فبجعه هارون بسيفه فصاح : الموت ! واعتوره هارون وموسى ابن بغـا بأسيافهـما فقتلاه وقطـعاه ، وأصابت عثعث ضربة في رأسه ، وكان مع المتوكل خادم صغير فدخل تحت الستارة فنجا وتهارب الباقـون .

وهذه صورة بشـعة لقتل خليـفة ما كان يستـحق أن يكون خليفة ، ولكننا رأينا أنه صـار ، فكانت خاتمتـه ما رأينـا ، وقد رأينا كذلك كيف كان يعامل ابنه المنتصر معاملة آسفـة فعلاً ، ولكن هذه صور نجد لها أمثلة كثيرة في كتب التاريخ عندنا .



الفصل التاسع عشر

لابد من التنبيه إلى .. السلبيات والإيجابيات

إن فيما أحسب أن أختتم هذه الدراسة ـ وهي لم تطل ـ ولكني قلت فيما أرى الكفاية ، وأنا شخصياً وأنا أقرأ تفاصيل خلافة المنتصر بعد اشتراكه في قتل أبيه أشعر بأن الرجل أصيب باكتئاب ، وهذا طبيعي ؛ فإن قتل الإنسان لأبيه أو اشتراكه فيه أمر لابد أن يصاب نتيجة له بشيء نفسي ؛ ولهذا فأنا أحب أن أوفر على القراء عناء الاستمرار في هذه الدراسة ، ويكفي أن القارئ عرف ما نريد أن نقوله منذ البداية ، وهو أن تاريخ المسلمين من أيام عثمان لم يعد تاريخاً سارًا أو جميلاً حقًا كانت فيه فتوحات وانتصارات ، ولكن الخلافة نفسها أصبحت أمراً لا يسر . فقد عاش المنتصر بعد موت أبيه ستة أشهر ، وتوفي مسموماً وهو في الخامسة والعشرين من عمره أو دونها ، وهي سن غير معقولة . وكان الرجل معظم الوقت مكتئباً بسبب وفاة أبيه ، ولا يمكن أن يقال : إنه كان يحكم ، إنما هو كان صنيعة في أيدي الأتراك ، وكان كثير البكاء .

وعندمـا نصل إلى خـلافة المسـتـعين الذى تولى فى ١٤ من ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ / ٨٦٢م نجد الخلافة قد أصبحت شيئاً غير معقول ، فأنكرها الناس وقاموا على الخليفة عندما قُتِلَ فى حـرب الروم عَدَدٌ من المسلمين على رأسـهم عمـر بن عـبيـد الله الأقطع ، وعـلى بن يحـيى الأرمنى ، وكـانا نـابين من أنيـاب المسلمين ، شديداً باسهما ، عظيماً غناؤهما عنهم فى الثغور التى هما بهـا ، وشق ذلك عليهم (على العامة) وعظم مـقتلهـما فى صدورهم على قرب مقتل أحدهما من مقتل الآخر ، ومع ما لحقهم من الأتراك من مـقتل المتـوكل واسـتيـلائهم على أمـور المسلمين وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء من غير رجوع منهم إلى ديانة ولا نظر للمسلمين ، فاجـتمعت العامة ببـغداد بالصراخ والنداء بالنفـيـر ، وانضم إليهـم الأبناء والشاكرية تظهـر أنهـا تطلب الأرزاق ، وذلك أول يوم فى صفر ، ففتـحوا سجن نصر بن مالك وأخرجوا من فيه وفى القنصرة بباب الجسر ، وكان فيها جماعة ـ فيما ذكر ـ من رفوع (أى نواح) خراسان والصعاليك من أهل الجبال والمحمرة وغيرهم ، وقطعوا أحد الجسرين وخربوا الآخر بالنار ، وانحـدرت سفنه ، وانتهـبت ديوان قصص المحبسين ، وقطعت الدفاتر وألقيت فى الماء ، وانتهبوا دار بشر وإبراهيم بن هارون النصرانيين كاتبى محمد بن عبد الله ، وذلك كله بالجانب الشرقى من بغـداد . (الطبرى ٩/ ٢٤٩) وهذا الخـبر يدل على

شعور العامة بالخوف وإحساسهم بانه لا توجد حكومة هناك تحميهم أو تحمي الإسلام ، وهذا أسوأ ما يمكن أن يصل إليه أمر الحكومة .

وفي صفر ٢٥٢هـ / ٨٦٦م بدأت معركة أهل بغداد والعرب مع الأتراك وحلفائهم من المغاربة ، وقد تولى ذلك رجل يسمى محمد بن عبد الله ، فأحسن تسليح جنده وسار معه الفقهاء والقضاة ، فدعا الأتراك إلى التوقف عن التمادى في الطغيان واللجاج والعصيان وبعث لهم الأمان ، واشترط أن يكون أبو عبد الله المعتز خليفة بعد المستعين فإن قبلوا وإلا باكرهم بالقتال، وقد تجمعت معه الألوف من أهل بغداد وجموع من الناس وأرهبوا الأتراك والمغاربة فلم يستطيعوا قبالتهم ، ولكن الأتراك مع ذلك ثبتوا متمسكين بامتيازاتهم ، وقد سكت الناس عن قتالهم يومًا ، فلما أصروا على امتيازاتهم نازلهم الناس وقتلوا منهم واستمر القتال .

وكان عدد القتلى والجرحى من الجانبين عظيماً ، وشيئاً فشيئاً بدأ الناس ينتصرون على الأتراك ، ثم دارت معركة مع أربعة آلاف تركي فانهزموا وقتل منهم في الموقعة ألفان ، ومن ذلك الحين لم يعد الأتراك إلى الرياسة مرة أخرى ، ولكننا لكي نصل إلى هذه النتيجة ينبغي أن نقرأ أكثر من عشرين صفحة

من الطبرى كلها تفاصيل صغيرة وقليلة الأهمية ، وهى حافلة بأسماء أعلام غريبة لا يدرى الإنسان ماذا يفعل بها . والحق أننا نعجب بالطبرى على صبره فى رواية هذه الأحداث ، ولكن المعركة مع الأتراك والمغاربة لم تنته في يوم أو شهر ، وإنما هى استمرت شهوراً ، ولكن محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين تولاها ببسالة ومهارة وكسر الأتراك وقتل منهم ومن المغاربة مرة بعد أخرى .

ولكن ذلك القتال المتصل بين الأتراك والمغاربة والشاكرية وانصارهم من ناحية ورجال الخليفة المستعين من ناحية أخيه استمر حتى نهاية خلافة المستعين فى ذى الحجة سنة ٢٥١هـ بل استمرت الفوضى بعد ذلك بعد أن بويع بالخلافة للمعتز .

وتستمر هذه الأخبار التى توقع فى النفس الملل تجعل الإنسان يحس أن التاريخ الإسلامى فقد شخصيته ورسالته ؛ لأن التاريخ إذا لم تكن له غاية أو روح أصبح حديثاً مكرراً معاداً لا معنى له ، وهذا هو الذى أنتهى إليه أنا عندما أقرأ أمثال هذه الأخبار الطويلة المتشابهة المملة فى مراجعنا .

والحق أن تاريخنا فقد شخصيته وروحه منذ أصبح مجرد نزاع على السلطان فى ذاته ، لا شىء إذا لم تكن له رسالة ، والإسلام هو رسالة التاريخ الإسلامى ، وفى عالمنا اليوم أغنياء

يملكون الملايين ، ولكن حياتهم مملة ولا معنى لها حتى أن بعضهم يقتل نفسه ؛ ولهذا فإننيّ رأيت أن أقف عند هذا الحد من تاريخ بني أمية وبني العباس ، ويكفيني أنني صورت للقارئ خواء تاريخنا وفراغه مع أنه في الحقيقة ينبغي أن يكون أغنى التاريخ ؛ لأنه تاريخ الإسلام ، والإسلام كله تقدم وخير .

وليس أدل على ذلك من خبر الأطروشي ، وهو الحسن بن محمد بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فهذا الرجل العلوي رأى أنه لا معنى لأن ينافس في طلب الدولة الإسلامية ويحاول انتزاعها من بني العباس ، ففعل ما فعله ابن عمه إدريس بن محمد بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، عندما ذهب إلى بلاد البربر وأنشأ الدولة الإدريسية خارج نطاق الدولة العباسية وخارج نطاق دولة بني أمية في الأندلس أيضاً ، وأخبار هذا الأطروشي قليلة ؛ لأن مؤرخينا يشغلون في العادة بأخبار نزاع الترك والمغاربة والأشروستية على الخلافة ، وهو نزاع مرير وفارغ وبلا معنى ، ولكن الأطروشي تنبه إلى أن بني العباس أهملوا في نشر الإسلام في نواحي طبرستان والبلاد الواسعة الواقعة بين نهر جيحون وبحر قزوين ، هناك بلاد واسعة دون إسلام ، مع أنها في صميم بلد الإسلام ، فذهب في سنة ٣٠١هـ / ٩١٣م إلى بلاد الديلم والجبل ، وهي التي نسميها اليوم بلاد خوارزم ، وهي بلاد

واسعة وخصبة وغنية يسكنها ملايين الناس ، فرأى أن ينشر الإسلام فيها ؛ لأنهم كانوا أهل جاهلية ، بل كان فيهم مجوس يعبدون النار ، فاجتهد في نشر الإسلام في هذه النواحي ، وأنشأ دولة كبيرة تعتبر من أعاظم دول الإسلام ، ولا تقارن إلا بالدولة الإدريسية .وأخبار هذه الدولة قليلة ؛ لأنها قامت في بلاد واسعة ، ولكن ليس فيها شعب قائم بنفسه يؤرخ لبلاده .

قال المسعودى في مروج الذهب (٤ / ٣٧٣) : إنها مواضع من بلاد الجبل والديلم في جبال شاهقة وقلاع وأودية ومواضع خشنة على الشرك إلى هذه الغاية ، وبنى في بلادهم مساجد ، وقد كان للمسلمين بإزائهم ثغور مثل قزوين وشالوس وغيرهما من بلاد طبرستان ، وقد كان بمدينة شالوس حصن منيع وبنيان عظيم بنته ملوك فارس يسكن فيه الرجال المرابطون بإزاء الديلم .

ثم جاء الإسلام فكان كذلك إلى أن هدده الأطروشي . وكان بين الأطروشي والحسن بن القاسم الحسني الداعي حروب على بلاد طبرستان ، فكانت بينهم سجالاً ، وكان الحسن بن القاسم الحسني الداعي قد نزل الرى ـ وذلك سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م ـ في جيوش كثيرة من الجبل والديلم ، ومعه « ما كان بن كالى » الديلمي أحد فتاك الديلم ووجوهها ، فأخرج عساكر نصر بن

أحمد بن إسماعيل بن أحمد صاحبه عنها ، واستولى عليها وعلى قزوين وزيخان وقم وأبهر وغير ذلك مما اتصل بالرى ، فكتب المقتدر إلى نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان ينكر عليه ذلك ، ويقول : إنى ضمنتك المال والدم ، فأهملت أمر الرعية وأضعفتها وأهملت البلد حتى دخلته المبعضة ، وألزمه إخراجهم عنه ، فوقع اختيار نصر صاحب خراسان على اتفاق رجل من أصحابه من الجبل يقال لواحد منهما أسفار بن شيرويه ، وأخرج معه ابن المحتاج الجبلي فيمن معه من الجيوش إلى حدود الرى ، فكانت الموقعة بين شيرويه الجبلي وبين « ما كان بن كالى » الديلمى فاستأمن أكثر أصحاب «ما كان بن كالى » الديلمى وقواده مثل مشير وتالجين وسليمان بن شركلة الإشكرى ومراد الأشكرى وفشونة بز أومرك فى آخرين من قواد الجبل ، فحمل عليهم « ما كان » فى نفر من الأتراك ، فولى « ما كان » ودخل بلاد طبرستان ، وانهزم الداعى بين يديه و« ما كان » على حاميته ، فلحقته خيول خراسان والجبل والديلم والأتراك فيهم « أسفار بن شيرويه » ومضى « ما كان » لكثرة الجيوش وانحاز الداعى ، وقد لحق بقرب « آمل » قصبة بلاد طبرستان إلى طاحونة هناك ، هنالك وقد تخلى عنه من كان معه من الأنصار فقتل هناك ، ولحق « ما كان » بالديلم ، واستولى أسفار بن شيرويه على بلاد

طبرستان وجرجان وقزوين وزيخان وأبهر وقم وهمذان والكرخ « الكرج أيضاً » لصاحب خراسان ، واستوثقت له الأمور ، وعظمت جيوشه وكثرت ، ودعا أعوانه وتجبر وشقى ، وكان لا يدين عمله الإسلام ، وعصى صاحب خراسان وخالف عليه ، وأراد أن يعقد التاج على رأسه وينصب بالرى سريراً من ذهب للملك ، ويتملك على ما في يديه مما قد ذكرنا من البلاد ويحارب السلطان وصاحب خراسان . فسير الحضور هارون ابن غريب في الحال نحو قزوين فكانت له معه حروب ، وانكشف هارون وقتل من أصحابه خلق كثير ؛ وذلك بباب قزوين .. ! المسعودى ، مروج الذهب ٤ / ٣٧٤ ـ ٣٧٥ ويكفى هذا القدر من ذلك الخبر الهام ؛ لأنه طويل ، وهو مثال هام من أخبار هامة ورئيسية ، ونحن لا نعرف عنها شيئاً ؛ لأن الحقيقة أننا لا نعرف الكثير من حقائق تاريخ الإسلام ، فهذا تاريخ دولة إسلامية كبرى أدخلت في الإسلام ملايين البشر ومساحة ضخمة من هذه الأرض ، وقد أنشاها وقام عليها رجل واحد من الطالبيين وهو الأطروشي هذا . وقد لقب بالأطروشي لأنه كان قليل السمع ، أى أنه كان يعانى من ضعف سمعه ، ولكنه مع هذا استطاع أن يكمل مساحة الإسلام من هذه الناحية التى يقع فيها اليوم جزء كبير من بلاد ما وراء النهر وروسيا الإسلامية . فهذه بلاد خوارزم وطبرستان . بهذه المناسبة أحب أن أنبه إلى

أن الإسـلام باق في تلك البلاد إلـى يومنا هذا ؛ لأن الإسـلام إذا دخل بلداً لم يخرج منه أبداً ، الإسبان والكاثوليك لكي يتخلصوا من المسلمين أبادوهم بصورة بشعة ، وهذه فضيحة من فضائح التـاريخ ، ومازال البشر يذكـرونها إلى اليـوم للإسبـان أو قل للكنيـسة الكـاثوليكية ؛ لأن تلك الـكنيسـة هي ـ دون شك ـ ألد أعداء الإسلام ، وما زالت ؛ لأنها زائفة ـ والإسلام حقيقة ـ ولكنه زيف مرتب منظم ، أما نحن فعلى الرغم من أننا على الحق فإننا في فـوضى دائماً ، وفي اليـوم الذى نتخلص فـيه من الفـوضى سنسود الدنيـا ، أقصد أن الإسـلام دين الله ، ولابد أن يعم الدنيا مهما كانت العقبات في طريقه .

وأقف هنا بهذه الدراسـة ، ويكفي أنني لَفَتُّ أنظار القراء إلى أن كتبنا الماضية فيهـا الكثير مما يسيء إلينا ، ولابد من التنبيه إلى ذلك ـ لا أقـصـد بذلك أن نتـدخل في النـصـوص ؛ فـإن النصـوص تراث ، والتـراث لا يمس ـ ولكن يكفي أن ننبـه إلى مواضع الإساءة ، ولابد أن نشير هنا إلى أن كتابنا الماضين كانوا موضع إعجاب ، فقد حفظوا في أذهانهم هذه الأخبار الكثيرة قبل أن يدونوها ، ونحن اليوم لدينا الدفاتر والكراسات والبطاقات ؛ لأن الورق رخيص ومـوجود في كل مكان . أمـا في الماضي فكان الورق غالياً ـ لم يكن موجوداً ـ وبعض مؤلفينا كانوا يصنعون الورق والحبر في بيوتهم ، وكان الواحد منهم يجمع مواد صنع

الورق ويوقد عليها النار شهوراً حتى تنطبخ وتصير عجينة ورق ، ثم يسطرونها على صفحات خشبية وينتظرون حتى تجف ، ثم يأخذونها ويكتبون فيها . وقد ألف بعضهم كتباً فى طرق صناعة الورق والحبر . وكان بودى أن أنشر واحداً منها ، ولكن عاقنى عن ذلك كثرة المخطوطات للنص الواحد . وكان من المستحيل علىَّ جمع كل مخطوطات النص الواحد حتى يكون النشر علمياً .

ويكفى أن تنظر إلى كتاب مثل مروج الذهب الذى تقع نسخته المطبوعة فى أربعة أجزاء تضم ألفاً وخمسمائة صفحة على وجه التقريب . وهذا الكتاب يضم من شتى المعلومات ما يحار له العقل ، فإن فى كل صفحة تقريباً خبراً مستقلاً ، والرجل ينتقل من خبر إلى خبر بسهولة ويسر ، وأنت لا تمل القراءة فيه أبداً ؛ فهو متنوع ، وهو جميل وطريف ، ولابد أن الله سبحانه وتعالى ـ قد يسر له ذلك لحكمة عنده . فهو ـ سبحانه ـ يريد أن نعلم ذلك كله حتى ننتفع به عندما تجىء ساعة نشر الإسلام فى الأرض كلها ، ولابد من ذلك ؛ لأن الله ـ سبحانه ـ يريده .

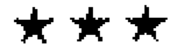
ونحن لدينا عن تاريخ الإسلام أربعة أصول قديمة هى على التوالى : تاريخ الطبرى ، ثم اليعقوبى ، ثم ابن الأثير ، وأبى

الفدا ، هذا عدا ما كتبه ابن خلدون ـ وهو عمدة مؤرخينا ـ وكان بعض الناس يقولون : إن ابن خلدون وضع فى مقدمته قواعد لم يطبقها في تاريخه ، وهذا غير صحيح ، والسبب في ذلك الخطأ هو أن أحداً لم يقرأ تاريخ ابن خلدون قراءة مدققة متفحصة ، وأنا ـ شخصيّا قرأت تاريخ ابن خلدون كله ، فما عرفت مؤرخاً إسلاميّاً أرخ للرومان والروم والبيزنطيين ومذاهب اليهودية ثم المسيحية جميعاً وتاريخ الفرس ، أى أنه المؤرخ العربى الوحيد الذى كتب التاريخ القديم كتابة صحيحة. أما تاريخه للمغرب والبربر وبنى هلال وقبائلهم فشىء عجيب يدل على ذاكرة نادرة فعلاً .

أما الطبرى فهو عجيبة ، والمعلومات التى يسوقها فى تاريخه وتفسيره للقرآن شىء له العجب ، ونحن لا نطيق الصبر على قراءة كل هذه التفاصيل ، فما بالك بمن حفظها فى ذهنه أولاً ثم كتبها بهذه الدقة وذلك الشمول . وأنا قرأت الطبرى، ولكن ينبغى أن أقرر أننا نحتاج إلى دراسة النص ، فهناك العشرات بل المئات من المصطلحات الإدارية والعسكرية والفنية نحن لا نعرفها ، ومن أسف أنه لم يبق لى من أيام العمر ما أنفقه في التعرف على معانى هذه المصطلحات ، ولا أرى بين الشباب الجديد من أتصور أنه يصبر على مثل هذا البحث . على أى حال أنا أنبه ، وعليكم أن تنظروا في التنفيذ .

أما ابن الأثير فمؤرخ عـجيب . إنه مؤرخ صحفي الروم . أي أنه مغرم بالبحث عن الأخبار وإيرادها ، وهو أحياناً يوجز كلام الطبري ، ولكنه أصيل في أحـيان كـثيرة ، وتاريخـه الذي بين أيدينا ينتهي في أواخـر القرن السادس الهجـري . وهو أساسي ورئيسي بالنسبة للعصور القريبة من عصره .

أما أبو الفدا صاحب « المختصر في أخـبار البشر » فهو أمير أيوبي مؤرخ ، وهو يعترف بأنه أحياناً يوجز تاريخ ابن الأثير ، ولكنه أصيل في أحيان كـثيرة أخرى ، وإذا نحن تركنا جـانباً الجـزء الأول الخـاص بتحديد السنين والإحصـاءات لحـوادث التاريخ القديم وأعمـار الأنبيـاء فإن البـاقي عظيم القيمة ، هو يصل بنا إلى أوائل القـرن السابع الهجـري . ويكفي لكي نعرف فضله أن نقول : إن أهل الغرب كانوا يقـولون أحيانا : إن محمداً ﷺ أسطورة ، وحاشا لله أن يكون كذلك ، وهذا على مثال ما يقال عندهم من أن السيد المسيح أسطورة ، فلما قـرأ أحد المستشرقين السـيرة الموجـزة ـ كـما أوردها أبو الفـدا في تاريخـه ـ تبين أن رسول الله ﷺ شخصية تاريخية حقاً ، وأنه قـام برسالته على النحو الذي يقصه المسلمون .



الفهـــــــرس

تنقية أصول التاريخ الإسلامي

كتاب للأستاذ الدكتور حسين مؤنس يدق به ناقوس التنبيه في عالم شغل عن كل شيء إلا عما يربطه بالملهيات والمغريات ، إلا أنه لايفقد الأمل في وجود من يستطيع القيام بالبحث والتدقيق في أصول التاريخ الإسلامي ليصحح ما يحتاج إلى تصحيح ، وتصفية مايحتاج إلى تصفية مما شابه من عدم الدقة ، ومن سوق الأخبار على عواهنها مما يسيء إلى أمة الإسلام ، ويتيح الفرصة للمستشرقين ومن لف لفهم أن يطعنوا في الإسلام ودولته .

والكتاب وجهة نظر للكاتب نعرضها كما هي ؛ لعلها تشحذ الهمم ، وتدفع إلى التنقيب من أهل التنقيب والبحث ، وتصحيح ماقد يكون أساء إلى أمة الإسلام ودينها بالحجة والبرهان.

والله من وراء القصد ، وهو نعم المولى ونعم النصير !!

الناشر

دار الرشاد